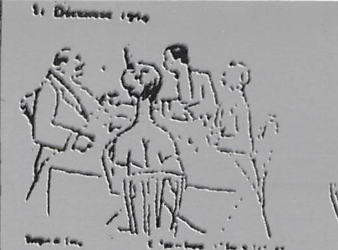
ترجمات ثروت عكاشة









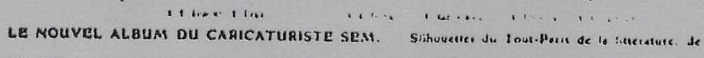


فرنسا والفرنسيون على لسان

الرائد طومسون

بيير دانينوس







ثروت عكاشة هو أحد المثقفين المصريين النادرين بتكوينه الفكرى والإنسانى، فهو الكاتب المبدع الموسوعىّ الثقافة والفكر، والعالم المتذوق للفنون جميعها، والمؤرخ والناقد لها.

آمن بالتغيير والتجديد، وسعى إليهما بنظرة مستقبلية متفائلة، عاملاً على إرساء الدعائم الأساسية لنهضة مصر الثقافية الحديثة، كان رجل الثورة المستنير وصاحب المشروع الحداثى.

وهو صاحب المآثر الخالدة فى الذاكرة الإنسانية المتجسدة فى مشروعه لإنقاذ آثار النوبة ومعبدى أبوسمبل وفيلة.

وهو إلى ذلك المفكر والفنان الذى لم تشغله المهام والأنشطة الرسمية الكثيرة عن الإبداع فى مجالات الأدب والفلسفة والفنون.



فرنسا والفَرنسيُّون

على لسان الرائد طومسون

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

ترجمات ثروت عكاشة

- العدد : ١٣٠٢
- فرنسا والفَرنسيُّون على لسان الرند طومسون
- پيير دانينوس
- ثروت عكاشة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

Major Thompson And I

by : pierre Daninos

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

فرنسا والفرنسيون

على لسان الرائد طومسون

تألـيـــف : پيير دانينوس

ترجمة وتقديم : ثروت عكاشة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دانينوس ، بيير .

فرنسا والفرنسيون على لسان الراند طومسون

تأليف : بيير دانينوس ، ترجمة وتقديم :ثروت عكاشة.

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ .

٢٠٨ ص ، ٢٤ سم

١ - فرنسا - تاريخ .

(أ) العنوان ٩٤٤

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٢٨٧٠

الترقيم الدولى 3-971-437-977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة المترجم 7

هل لى أن أقدّم نفسى ؟ 17

الفصل الأول : تُرى من هو الفرنسى ؟ 23

الفصل الثانى : موطن الرِّيبة والغفْلة 33

الفصل الثالث : أمّة الانقسامات 47

الفصل الرابع : بلاد المصافحة بهزّ اليد 57

الفصل الخامس : أعَنْ أدب أم عَنْ مجاملة ؟ 67

الفصل السادس : الكونت رينو ده لاشاسيِلْيير يتراشقه نفرٌ بألسنتهم 77

الفصل السابع : قوانين الضيافة وفن طهى الأطعمة الشهيّة 85

الفصل الثامن : مارتين وأُورسولا 95

الفصل التاسع : الصديق اللّدود بالوراثة 115

الفصل العاشر : اللغة الفَرنسية كما يتحدّث بها أهلُها 129

الفصل الحادى عشر : الفرنسى فى أسفاره 139

الفصل الثانى عشر : أربعون مليونًا من الرياضيّين 151

الفصل الثالث عشر : فرنسا مُمسكة بعجلة القيادة 165

الفصل الرابع عشر : أيام عطلة الأحد الجميلة 175

الفصل الخامس عشر : الاختراعات الفرنسية الشيْطانيّة 183

الفصل السادس عشر : أرض المعجزات 191

مقدمة المترجم

هذا الكتاب لأديب فَرنسى من مواليد عام ١٩١٣ هو پيير دانينوس، خرج به على القرّاء فى مقالات متتابعة فى صحيفة فيجارو الباريسية، بَدءًا من ١٦ يناير ١٩٥٤، ثم إذا هو فى السادس والعشرين من شهر مايو من هذه السنة يضم تلك المقالات فى كتاب عنوانه "مذكرات الرائد طومسون: استطلاع فرنسا والفَرنسيين"، الذى آثرت له فى ترجمتى الثانية العنوان الذى سجلته .

وعلى حين كان مارك توين يرى أن السخرية مبعثها الحزن الدفين كان مؤلِّفنا على العكس يرى أن مبعث السخرية لهوٌ يملأ عليه نفسه. فالحياة عنده سلسلة متصلة من الأحداث الساخرة. وهذه النزعة من دانينوس نزعة فلسفية باسمة لا عابسة، تثير الضحك فى الآخرين، دون أن يكون لها حظ من الضحك فى نفس صاحبها .

وكان دانينوس دَقيقًا فى ملاحظاته، يدلُّنا على هذا قوله حين يصف فرنسا : "إن فِرنسا تنقسم إلى ثلاثة وأربعين مليونًا من الفَرنسيين"، يعنى أن كل فَرنسى عالَمٌ قائم بذاته، ولكلّ شخص مشروعه المُنمنم الخاص. وقد أثَّرت مثل هذه العبارات المبسَّطة فى نفوس الناس، فما من قارئ من قرائها إلا وساءل نفسه : كيف لم أفطن إلى هذا؟

وكان دانينوس قَلِقًا فى كتاباته، قلقًا فى حياته، على الرغم مما لقيت مؤلّفاته من رواج، ولكن هذا الروّاج كان هو مبعث القلق فى نفسه، فما كان أخْوَفه ألاّ يكون ما سوف يكتُبه له أثره فى نفوس القراء، مثل الأثر الذى كان لما سبق من مؤلفاته .

وللكاتب فى هذا المجال كتب أخرى تناول فيها المرأة كما تناول الرجل. ومن الشّق الأول كتابه "سونيا وأنا والآخرون أو معجم العادات السيئة المُتفشّية"[1]، وكان عن

نظرة الرجل إلى المرأة. وقد حرَص الكاتب - بعد أن أصدر هذا الكتاب - على أن يُمهر مقالاته كلها باسم سونيا، فأحدثت هذه المقالات ضجيجًا فى الدوائر الأدبية الأوربية جميعًا، حتى لقد بادرت بعض البلاد بدعوته إليها، وبصحبته سونيا .

ومن الشق الثانى كتاب "شخص ما اسمه بلُو"(٢) ، الذى يمثل شخصية خبير إخصائى فى شركة تأمين يحرّك على شفتى القارئ الفَرنسى ذلك الخاطر الذى يُعدّ أعظم جائزة يمكن أن يحظى بها مؤلف : "ما أشبهنى بمسيو بلو، بل إنه هو أنا نفسى" .

أما هذا الكتاب الذى أقدّمُه للقراء فهو نتاج استقصاء طويل، جمع فيه المؤلف كل ما وقع له عن فرنسا والفَرنسيين خلال الخمسينيات. وكم تحرّج وهو يُصدرُ هذا الكتاب أن يسىء إلى مواطنيه بالكَشْف عن جميع مساوئهم وما يزخر به سلوكهم من مآخذ ومتناقضات، فتحايل وجعل الكتاب مذكرات على لسان ضابط إنجليزى، زاعمًا أنه ترجمة عن مقالات ظهرت بالإنجليزية .

وما لبثت هذه الشهرة التى لصقت به، أعنى شهرته بسُونْيا، أن دفعته إلى تأليف كتابنا هذا ليخلع على نفسه رداء جديداً غير رداء سونيا، فإذا هو يُبدع شخصية أخرى هى شخصية الرائد طومسون. ولقد فكر، أول ما فكر، فى أن يختار لكتابه هذا شخصية حكيم فارسى أو تركى يجعل منه سبيله إلى نقد أسلوب الحياة الفرنسية، غير أنه لم يلق فى تلك المحاولة بُغيته المنشودة، فإذا هو سرعان ما يعدل عن هذا إلى شخصية الرائد طومسون. والذى هو مَن أوْحى إليه باختيار تلك الشخصية مما علق بذهنه عن صورة ضابط إنجليزى يُدعى واردن - كان قد تعرّف إليه خلال الحرب العالمية الثانية - ألِف الترحال، وكان يعد كل بلد يحلّ به ولا يدخل فى نطاق الكومونولث البريطانى غريبًا عليه، فإذا هو يجد فى حياة هذا الضابط الذى خدم فى جيش الهند وأدى خدمات لا حصْر لها للمخابرات البريطانية المعِين الذى استقى منه شخصية الرائد طومسون، التى صوّرها على صورة هذا الضابط فى كل مناحيها رُتبةً

وفعالاً وخلقةً، بشعره الأبيض ووجنتيه المحمرّتين وقسماته البارزة. وما اكتفى المؤلف بما عُرف عن تلك الشخصية، بل ليزداد معرفة بملامح الأرستقراطية البريطانية رجع إلى دائرة المعارف البريطانية؛ ليكون صادقًا فى تصويره لهذه الشخصية، فإذا هو يخرج من هذا كله بتاريخ حافل للرائد طومسون، الذى غدا عند الفَرنسيين النموذج النمطى للضابط البريطانى الچنتلمان، الذى إذا لم يُشغل بتدخين غليونه شغل نفسه بشرب الشاى، والذى لا يعرف كيف يتذوّق طعامًا، ولا يستسيغ عادات الفَرنسيين المستهجنة، أولئك الفَرنسيون الذين هم فى نظره شديدو النهَم حين يأكلون، مفرطون فى عَبِّ النبيذ حين يشربون، كثيرو اللغْو حين يتكلمون، ثم ما أبعدهم عن الجادَّة حين يلتزمون بسياراتهم الجانب الأيمن من الطريق. وفى الحق لقد أمتع الرائد طومسون الفَرنسيين حين كشف عن مساوئ طباعهم وعما يشين سلوكهم الاجتماعى، غير أن الكتاب كما عاب الفَرنسيين عاب الإنجليز أنفسهم، فسخريته بالفَرنسيين صحبتها سخرية بالإنجليز، وكان النقد الساخر ذا حدّين، فلقد رأى القرّاء الإنجليز هم الآخرون صورتهم تعكسها صفحة مِرآة فرنسية بالغة السخرية والفكاهة .

ولقد غرق المؤلف فى شخصية الرائد طومسون، حتى أصبحت تلك الشخصية تغلب عليه وإذا هو يذوب فيها، وإذا هو بعدُ يغارُ منها حين غلبته على أمره، فإذا الناس يذكرون طومسون ولا يذكرون المؤلف. فحين طالع دانينوس القراء بمقالاته تلك مُسنداً إياها إلى الرائد طومسون، زاعمًا أن هذا النص مترجم عن الإنجليزية، أخذ الناس يسائلونه عن النص الإنجليزى الذى ترجم عنه، ولم يكن ثمة نص، بل كان الأمر من ألوان الدعابة التى قصد بها المؤلف - كما قلت قبل - أن يخرج من الحرج الذى أحسه وهو يواجه قومه بالنقد اللاذع على لسانه .

وأخيراً يدعى الكاتب أنه أحس الندم حين جعل تلك الشخصية الإنجليزية تطغى على شخصيته. نحس هذا فى كلمته التى وجهها إلى أعضاء إحدى الجمعيات الأدبية البريطانية وكانت تستضيفه : "ما أشد حمقى حين استضفت إنجليزيا فى كتابى، فإذا

هو ينحّيني جانبًا ليأخذ مكانه في الكتاب، وإذا أنا لا مكان لي فيه، حتى بتُّ أتساءل عن دعوتكم، هل كانت لي أم للرائد طومسون"؟

ولعل من السخريات التي واجهت المؤلف حين أصدر كتابه تلك الكلمة التي كتب بها إليه السفير البريطاني حينذاك بباريس يقول له : "كم أنا شاكر لو أبلغت تهنئتي إلى الرائد طومسون، فكم كنت أكون سعيدًا لو أني رأيت توقيعه على الإهداء" !!

ثم لعله من قارص الكلِم ولاذعه تلك الكلمة التي كتبت بها إليه قارئة فرنسية ضاقت بعبارات النقد الساخرة، التي جرى بها قلم الرائد البريطاني لتنال من الفَرنسيين، فعابت عليه قبوله الاضطلاع بترجمة هذا الكتاب الذي لا يُقبل فرنسي على ترجمته إلا إذا كان مرتشيًا .

وفي الحق أن هذا الكتاب يعد من أعمق الكتب نقدًا للحياة الفرنسية، وإن كان الودّ لمواطنيه يطغى فيه على السخرية منهم. وحسب المؤلف تلك العبارة التي علّق بها على كتابه عالم الاجتماع الذائع الصيت أندريه سيجفريد، الذي عدّ هذا الكتاب "من الروائع" لما فيه من صدْق الحدس والنفاذ إلى أعماق الحياة ودقة التعبير .

وكم لاقى هذا الكتاب من رواج، فيقال إن ما بيع من طبعته الفرنسية يربو على أربعة ملايين نسخة. هذا إلى أنه سرعان ما تُرجم إلى اللغات الإنجليزية واليابانية والألمانية والنرويجية والسويدية والبرتغالية والإسبانية، ثم أسعدني الحظ بأن أنقله إلى العربية .

ومما يُضاف إلى إعجاب القراء بهذا الكتاب أن معاهد فن الاختزال قد اختارته نصًا لتعليم الاختزال ، كما غدت منزلة الرائد طومسون تعدّ كمنزلة الشاعر ڤرچيل لدى الضباط لطلبة بقيادة حلف الأطلسي بباريس عام ١٩٥٤ ، فأصبح مادة للترجمة في جميع الفصول التي تدرّس فيها لغات مختلفة للضباط أركان الحرب. ثم إذا هذا الكتاب يُعد ليصبح مسرحية تُمثل ظهرت على مسرح "تروا بوديه" بباريس، ثم إذا هو

يُسجل على أسطوانات ذاعت بين الناس وأخذت شهرتها. وبعد هذا كله تحول فى عام ١٩٥٥ إلى فيلم سينمائى ناطق بالفرنسية؛ كى لا يغيب بصوره عن أذهان الناس، أخرجه بريستون ستورجس Preston Sturges ، واشترك فى تمثيله چاك بوكانان Jacque Buchanan ومارتين كارول ونويل نويل .

وكان ما دفعنى إلى ترجمة هذا الكتاب أنى حين كنت أختلف إلى أستاذ لى فى الفرنسية بباريس قد أنهيت إليه ما ألقى من الباريسيين من دعابات لا أستسيغها، فأشار علىَّ بأن نقرأ معًا هذا الكتاب، فسوف أجد فيه معينًا خصبًا أستقى منه روح الدعابة عند الفَرنسيين. وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد ظهرت بعد نزولى باريس بأشهر قليلة فى عام ١٩٥٤ .

وسوف يرى القارئ فى هذه الطبعة الثانية للكتاب أنى قد أكون أعدت الترجمة من جديد، فلقد فاتتنى فى الترجمة الأولى أشياء رأيت أن أتداركها هنا، والمرء متزوّد مع الزمن من حياته ما عاش، وهو لهذا لا شك معيدُ النظر فيما كتب، إن بدا له أن يعيده .

ولعل القارئ لا يفوته أن القيام بترجمة مثل هذا الكتاب الذى قوامه الأسلوب الساخر ليس من اليُسر بمكان، فالمؤلف فرنسى نزع عن نفسه شخصيته الفرنسية، وتقمّص شخصية إنجليزية مسرفة فى التمسك بالتقاليد البريطانية، التى أخذ المؤلف يجعلها وسيلته إلى السخرية بالفَرنسيين طباعًا وسلوكًا. والعُسر الذى أشرت إليه فى هذا الكتاب هو تحويل أسلوب فرنسى ساخر إلى أسلوب عربى ساخر، وما أصعب التوفيق بين الاثنين .

ولا يفوتنى أن أذكر أن إقامتى فى باريس أعوامًا أربعة متصلة أول الأمر ملحقًا عسكريًا بالسفارة المصرية، ثم اختلافى إليها بعدُ فى الفَينة بعد الفينة؛ إذ كنت عضوًا بالمجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو، كان هذا وذاك مما أعانانى على تفهّم الروح الساخرة للفرنسيين واستيعابها، مما شجّعنى بعدُ على نقلها إلى العربية فى صورة أقرب إلى صورتها الحقيقية .

ولما كُتب لهذا الكتاب من نجاح مطرد واصل پيير دانينوس حديثه عن زيارتين له فى صحبة الرائد طومسون، إحداهما إلى إنجلترا والأخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى كتابين، أولهما عنوانه "الرائد طومسون وأنا"[٣]، وثانيهما عنوانه "سرّ الرائد طومسون"[٤]. وقد تناول هذان الكتابان الحياة الإنجليزية والأمريكية بما تزخران به من تقاليد وطباع وسلوك بالنقد والتحليل فى أسلوب ساخر ممتع[٥] .

وأخيراً لا أُحبّ أن أقع فيما وقع فيه غيرى من نسيانهم لمؤلف هذا الكتاب الأستاذ پيير دانينوس وتعلُّقهم بالرائد طومسون، فأهضم صاحب الكتاب حقَّه، فإليه منى خير تحية وأعمق إعجاب .

المعادى فى ١٨ فبراير ١٩٨٩

ثروت عكاشة

طومسون :

(ما كُتب عنه فى دليل "من هو؟")

الرائد المبجَّل وليام مارماديوك، الحائز على وسام .D.S.O (١٩٣١)، ووسام.O.S.I (١٩٣٤)، ووسام .O.B.E (١٩٤٣)، ولد فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٠٢، وكان الابن الرابع لـ "اللورد" الرابع ستروفورنس .

تنشئته :

الرجبى "كلية ترينيتى". زميل جمعية "أولْ سولز بأكسفورد" .

حالته الاجتماعية :

١ - تزوج فى سنة ١٩٢٩ پنلوب أورسولا هوپكنز .

توفيت سنة ١٩٣١ .

٢ - تزوج فى سنة ١٩٣٢ مارتين نيكول نوبليه .

خدمته :

- التحق بالجيش سنة ١٩٢٤ .

- اشترك فى حملات وزير ستان (١٩٢٤) .

- نقل إلى الهند بولاية راوالپندى (١٩٢٦) .

- التحق بكتيبة اللانسرز التاسعة فيما بين النهرين (١٩٢٨) .

- ثم بفِرقة دوجراس بفلسطين ومصر فى (١٩٣١) .

- عيِّن كاتم أسرار للمقيم السياسى بالخليج الفارسى سنة (١٩٣١) .

- اشترك فى الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥/٣٩ مع كتيبة رويال ورويكشير، ونال وسام "الذِّكر الحسَن" مرتين، ووسام الخدمة الممتازة، وصليب الحرب الفرنسى .

- اعتزل الخدمة عام ١٩٤٥ . وعيِّن بالسلك السياسى لصاحبة الجلالة .

مؤلفاته :

"عرب ما بين النهرين"، و"مذكرات مختلفة عن حشرات جنوب إفريقيا الحرشفية الأجنحة" .

هواياته :

الصيد، والتاريخ الطبيعى، والجولف، والحدائق .

النوادى :

نادى الفرسان بلندن .

نادى السيارات بباريس .

عضو شرف بجمعية لاعبى الجولف بأدنبره .

العنوان :

١ - تاور كوتدج. رولاند كاسل. بندلتون هامشير. إنجلترا .

٢ - طرف توماس كوك وولده "باريس". فرنسا .

الهامش

(١) Sonia, Les Autres et moi, ou Le Dictionnaire des Maux Courants (Plon).

(٢) Un Certain Monsieur Blot (Plon)1960.

(٣) Le Major Thompson et Moi, 1956 (Hachette).

(٤) Le Secret du Major Thompson, 1957 (Hachette).

(٥) مؤلفات أخرى لبيير دانينوس :

* Méridiens, 1945 (Plon) .
* Eurique et Amérope, 1946 (Plon).
* Les Carnets Du Bon Dieu 1947 (Plon).
* L'Eternel Second. 1949 (Plon).
* Passeport pour La Nuit ou Le Roi - Sommeil, 1946 (Plon).
* Comment Viver Avec (on asns) Sonia, 1953 (Plon). Savoir - Vivre International, 1954 (Hachette). Code de la susceptibilité et des bons usages. inter nationaux, 1951 (Ode), en collaboration avec 54 auteurs.
* Le Tour Du Monde du Rire. Etude du rire et de l'humour a travers le monde, 1953 (Hachette), en colloboration avec 25 auteurs.

هل لى أن أقدِّم نفسى؟

ليس فى طَبْعِ رجلٍ إنجليزى مهذّب (ومالي أصفه بقولي مهذّب؟ فالإنجليزى بطبعه مهذّب، وهو فى غِنى عن هذا الوصف الذى قد يثير ثائرة مواطنى المُبجّلين) أن يخوض فى الحديث عن نفسه، لا سيّما وهو يستهل القول، اللّهم إلاّ إذا اطّرح كبرياءه شيئًا. ألا ما أشبهنى حين يُطوِّح بى إلى أرض فرنسا برائد الفضاء الذى يَنْفلتُ من جاذبية الأرض إذا ما اندفع مُحلّقًا، فإذا أنا قد اطّرحت عن عاتقى كل قوانين الجاذبية البريطانية. وإذ كنت سأتحدّثُ عن قوم يجهلُون كل شىء عنى فأنا فى حلٍّ من أن أقول عن نفسى ما لا تُجيزُه قواعد السلوك، وأستطرد فأقول: ما قد يعدّه سكان الجانب الآخر من بحر المانش مما لا يليق ذِكره .

اسمى طومسون .

وليام مارماديوك طومسون .

وإذ كنت لحُسن الحظ قد وُلدتُ إنجليزيًا، فأنا أمضى فى حياتى محصورًا بين اثنتين : تسبق اسم أسرتى الحروف الأولى من اسمى، وتعقبه ألقاب الشرف التى حظيت بها على مر السنين، وهى : و.ج. م[1]، و. ن. هـ[2]، و. أ. ب[3] .

ومن المؤكد أن القارئ لا يعرفُ ما لتلك الحروف التى تسبق أو تلحقُ اسمًا إنجليزيًا من أهمية، فما أشبه هذه وتلك بالحدود الدولية التى لا تُنتهك، والتى هى أشبه ما تكون بمعطف واق لا ينفذ إليه منه ما يسوؤه، أو بالكسوة التى يغطّى بها أثاث المنازل فتقيه من القذى. فإذا ما حاول فَرنسى أن يبعث إلىَ خطابًا باسمي مجرَدًا عمّا يسبقه وعمّا يلحقه، عندها أحسّ وكأن لقب أسرتى قد أصيب بوعكة، وأنى تعرّيت من

ثيابى على ملأ من الناس. وهذا أمر من الإزعاج بمكان. فعلى الرغم من أن المُرسِل هو الذى أخطأ السبيل، فإنى أحسُّ كأنى أنا الذى انتهكت آداب اللّياقة .

ولا أُحبُّ أن يسيء الفَرنسيون الظن بهذا الرأى، فلو أنى جرؤت بأن أكون صريحًا فى الحديث عنهم فهذا لحُبّى إياهم حبَّهم لملكة إنجلترا. تُرى هل ثمة حب يبزَ هذا الحب ؟

وها أنذا منذ أن تركت الجيش وتولّت عنى أورسولا(٤) قد اتّخذت من باريس بلد زوجتى الثانية مقرًا لإقامتى، وأحسّ بنعمتيْن اثنتيْن أغْدَقهما اللّه علىّ : أني إنجليزي، وأني أعيش على طعام فرنسى .

أما عن ألوان الرياضة المتعدّدة التى كانت دراساتى بالقياس إليها أمرًا ثانويًا، والتى ما تخيّلتُ يومًا أنى سوف أُتمُّها، فهى - أعنى الرياضة - على الرغم من هذا لم تكسِبْ بِنْيتى أكثر مما أكسبت بنية مواطنىّ الآخرين. وعلى الرغم من طُولى الفارع، فلقد كان الناس يميّزوننى بحُمرة بَشَرتى أكثر مما يميّزُوننى بفراعة قامتي، كما يكشف اعوجاج ساقىّ عن أنى كنت فارسًا. وإن كانت لى هاتان العينان المستديرتان الزرقاوان الجاحظتان فهذا لما اعترانى من دهشة دائمة منذ أن وطئت قدماي أرض فرنسا. ولى أنفٌ أجدع قصير كأن الزمن عَجل عن أن يُسوِّيه، كما لى وَجْنتان مُكتنزتان لهما نُضرة تفاحتيْن كنديتيْن، وتكاد حُمرتهمَا مع عروق فَوْدَىّ الأزرقيْن وشاربي الأبيض تُشكّل كلها صورة ناطقة للعلَم البريطانى. وإذا زدتُ بأن أسنانى العليا الأمامية كادت ببروزها تحجبُ وراءها شفَتي السفلى وبَدت وكأنها مغروسة فى الهواء ، الأمر الذى يظن معه الجَهلة ببواطن الأمور - ولا تُوجد فى إنجلترا إلا قلّة قليلة لا تحظَى بهذا الشّكل الجافى - أني لا أفتأ ضاحكًا، وأنى أكثر بشاشة مما قد يُوحى به مظهرى، فإنى أكون قد أسرفتُ إسرافًا لا يليق باسترسال قلمى فى رسم صورتى الشخصية .

ونعودُ إلى الحديث عن السبب الرئيسى الذى يثير دهشتى فى حياتى والذى من أجله كتبتُ هذه المذكِّرات. وقد يبدو أن كل ما سأرويه هنا مُحالٌ تصديقه؛ لذا كان علىّ أن أُقسم بحق القديس چورچ إنه صدق لا زيغ فيه .

لقد طوّفت فى العالم كثيراً إلى أن لوّحت شمس الهند بشَرتى بلون النحاس وأنضجتني رمال ما بين النهرين المحرقة وأنا أسعى جاهداً للذَّوْد عن صاحبة الجلالة المعظّمة، كما عهدت إلىّ المخابرات[٥] – التى هى فى مفهوم أهل بريطانيا العظمى تدل على فرع من فروع الخدمة العامة أكثر مما تدل على صفة الذكاء – بمهام سرية فى بتشوانا لاند وفلسطين وأفغانستان. غير أنى أستطيع اليوم القول بأنى لم أحس مع كل جولاتى هذه بوحشة الغربة التى أحس بها وأنا على بعد ثلاثين كيلومتراً من دوڤر فوق هذه الأرض الطيبة التى تحمل اسم "فرنسا"، ذلك الاسم الشهىّ الممتع .

أقول، ولتمزّقنى الكواسر المتوثّبة المصَوَّرة على شعار الأسرة الملكية إن كنت كاذباً، إنى أحس وأنا فى جزر كايمان[٦] أنى أقرب إلى لندن منى وأنا بإقليم أنجوليم الفرنسى، كما أكاد أحس أن سلوك محاربى قبائل الماورى فى نيوزيلنده أقل غموضاً من سلوك مواطن من أعيان مدينة روبيه[٧] يوم عطلة الأحد[٨]، على الرغم من أن المولْى القدير عزّ وجل حين أراد أن يفرّق بين هذين الشعبين الإنجليزى والفرنسى المتباينين اجتزأ بأن يسكب بينهما بضعة دِلاء من المياه فحسب .

موجز القول أنه فى هذا العصر الذى بدا العالم فيه مصاباً بدوار الانبهار بكشف مرتفعات الهملايا والغوص فى أعماق المحيط الهادئ، رأيت أن الكشف عن فرنسا أوْلَى ..

حاشية :

لا يفوتنى أن أعرب عن شكرى لجهود صديقى ومساعدى پ. س. دانينوس الذى لا يفتأ يندب حظه لأنه لم يولد إنجليزياً. فتلك – لو صحّت – كانت ستكون فرصته

الوحيدة لاكتساب شيء من روح الدعابة، في حين لا يعدو حظه من الدعابة الآن غير ترجمة أفكاري فحسب. ويقول المثلُ ("المترجم خائن" Trauttore Traditore ، تُرى هل يقوى على ألا يخونني) أبداً؟ هذا ما أتمناه على الرغم من عدم إيماني بهذا. ذلك أن الشعوب التي توارثت العداوة تُخفي في ثنايا عقلها الباطن رواسب من تلك الخصومة (وقد أدركت شيئًا من هذه العداوة المترسَبة في تعليقه على موضوع مدينة كاليه). ثم إن صديقي هذا - صدّق أو لا تصدّق - يظن أنه يعرف الإنجليزية لتحدّثه بها منذ عشرين عامًا فحسب ، وقد تكون جرأة مني أن أزعم أنا الآخر أني أعرف الفرنسية والفرنسيين لمخالطتي إياهم منذ ربع قرن. فإن الذين يدعون أنهم يعرفون بلداً ما ظهراً لبطن هم أولئك الذين لم يقضوا به غير أسبوعين، ثم غادروه وما حملوا في حقائبهم غير آراء لقنوها جاهزة من قبل. أما أولئك الذين يعيشون على أرضه عيشة حقة فإنهم يدركون يوماً بعد يوم أنهم لا يعرفون إلا عكس ما عرفوه من قبل .

الهامش

(١) D.S.O وسام الخدمة الممتازة .

(٢) O.S.I وسام نجمة الهند من الطبقة الممتازة .

(٣) O.B.E وسام الإمبراطورية البريطانية من الطبقة الممتازة .

(٤) أورسولا هى زوجة الرائد طومسون الأولى، وقد اعتاد الإنجليز أن يقولوا عند وفاة من يعزّ عليهم "تولّى" Passed away ولا يقولون "توفى" .

(٥) Intelligence Service .

(٦) جزر إنجليزية صغيرة من بين جزر الهند الغربية .

(٧) مدينة صناعية تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة ليل .

(٨) كان الإنجليز خلال العصور الوسطى قد حاصروا مدينة كاليه الفرنسية وهددوا بإبادتها إن لم يخرج إليهم ستة من أعيانها، وفى رقابهم الحبال، ليلتمسوا الرحمة ويدفعوا الفدية. وبالرغم من أن أهل كاليه قد استجابوا لهذا المطلب فإن الإنجليز لم يبقوا على هؤلاء الستة من الأعيان، بل قتلوهم .

وكان الرائد طومسون قد كتب "كاليه" بدءًا فلفتُّه إلى أن اختيار هذا الاسم قد يثير أحقادًا قديمة دفينة فى قلوب الفرنسيين؛ إذ جلابيب هؤلاء الستة لا تزال تتراءى خافقة فى صفحات التاريخ . وسرعان ما عدل الرائد عن "كاليه" واستبدل بها "روبيه" (المترجم الفرنسى).

وللمثال الفرنسى أوجست رودان مجموعة نحتية شهيرة تخلّد هذا الحادث بمتحف رودان بباريس معروفة باسم "أعيان مدينة كاليه" (المعرّب) .

الفصل الأول

ترى من هو الفَرنسي؟

كان لي صديق طبيب من أشهر جرّاحي المخ أجرى لأحد الإنجليز ذات يوم عملية فتح مخ خلسة في عيادته الكائنة بشارع هارلي في لندن، فإذا هو يجد به : بارِجة بحرية من أسطول صاحبة الجلالة، وتاجًا ملكيًا، ومعطفًا واقيًا من المطر، وقدح شاي، ومستعمرة، وشرطيًا، وزجاجة ويسكي، ولائحة نادي الجولف الملكي، وجنديًا من حرس كولد ستريم، وإنجيلاً، وجدولاً لمواعيد القطار المتجه من كاليه إلى شاطئ الريڤييرا، وممرضة حسناء من مستشفى وستمنستر، وكرة كريكت، ومُزْنَة ضباب، ورقعة أرض لا تغيب عنها الشمس أبدًا، حتى إذا أمعن في اللاوعي المغطّى بعُشب بديع قد نالته يد التهذيب منذ أمد بعيد، وجد إلى جانبه سوطًا ذا ألسنة تسعة وفتاة بضَّة يافعة بجوربها الأسود(١) .

ولم تَعْر الطبيب قُشَعْريرة حين اكتشف ما اكتشف، بل أحس أنه قد اختلس النظر إلى ما لا يحلّ له أن يراه: لذا لم يكلف نفسه عناء استدعاء رجال سكوتلانديارد ولا شرطة الآداب، وقنع بأن أغلق على المخ كما كان. ورأى أنه مضطر إلى أن يجاري كل من يقول بأن هذه الأشياء المتنوعة كلها هي مقومات المواطن الإنجليزي السليم(٢) .

وكم تساءلت تُرى ماذا كان سيجده هذا الصديق الجرّاح لو فتح مخ رجل فَرنسي؟

رباه، أنَّى لنا أن نتبيّن ما يتميّز به الرجل الفَرنسى ؟

إن الكلمة المأثورة عن الرجل الفَرنسى التى تقول : ما أشدّ نهمه إلى الخبز، وما أبعده عن الإلمام بالجغرافيا، وما أحرصه على أن يضع شارة وسام جوقة الشرف "لچيون دونير" فى عروة سترته لا يُجانبها الصَّواب أبدًا، وما أيسر على من يُنعم النظر فى هذا الوسام أن يتبين أنه ليس فى كل أحواله وسام جوقة الشرف، بل هو الوسام العلوى المغربى!(٣)

على أن هذا التعريف قاصرٌ، فإن الفزع ليتملّكنى حين أفكِّر فيما قد يُصاب به صديقى من الهول لو تهيَّأ له أن يفتح مخ أحد الفرنسيين، فلسوف يسقط مغشيًا عليه فى هُوَّة من المتناقضات. فما أشق أن تحاول وضع تعريف لهذا الشعب الذى يقضى يوم راحته يتشَدَّق بعقيدته الجمهورية، على حين يقضى سائر أيام الأسبوع الأخرى يتغنّى بالحديث عن ملكة إنجلترا، والذى يدّعى التواضع ثم يتباهى بأنه وحده حامل مشعل الحضارة، والذى يحرص على أن يكون مما يُؤثَر عنه خارج بلاده أنه صاحب الفطرة السليمة بينما هو على النقيض من ذلك فوق أرضه إلا فى القليل ؛ إذ يكاد يطوّح بحكوماته فى مَهْدها .

شعبٌ يضع حب فرنسا فى قلبه، وهو الذى يضع ثروته كلَّها خارجها .

شعبٌ فى طبعه كراهية اليهود، وهو الذى لكل واحد منه صديق حميم من اليهود .

شعبٌ يعشق الاستماع إلى مغنّيه الفكاهيين وهم يسخرون من قدامى المحاربين، وهو إذا ما استمع إلى صوت النفير العسكرى امتلأ حماسة .

شعبٌ يأبى أن يسمع الآخرين يذكرون عيوبه، وهو الذى لا يفتأ يعدّد عيوبه ويسخر منها .

شعبٌ يتظاهر بالهُيام بالخطوط النقية الرشيقة للعمارة العريقة، وهو الذى أُشبع عاطفة بالميل إلى تصميم برج إيفل .

شعبٌ يُعجب الإعجاب كله بجهل الإنجليز بأساليب "الفهلوة" والاحتيال الملتوية، وهو الذى يؤمن فى الوقت نفسه بأن إبلاغ مصلحة الضرائب بدخله الصحيح ضربٌ من السخف اللا معقول .

شعبٌ يسخر من الفكاهات التى تُروى عن بُخل الأسكتلنديين، وهو الذى لا يفتأ يناهد فى خفض سعر السلعة عن ثمنها المحدد .

شعبٌ لا يريم عن أن يشيد بتاريخه مزهواً، وهو الذى يهرب من كل ما يصدع الرأس(٤) .

شعبٌ يأبى أن يعبُر حدود وطنه دون أن يهرّب معه شيئًا ولو كان صغيراً، وهو الذى يجهر بضرورة التزام القانون .

أُمَةٌ يُباهى أفرادها بأن ليس ثمة مخلوق يستطيع خداعهم، وهو الذى يخدعه أول نائب يعده بالوصول إلى القمر .

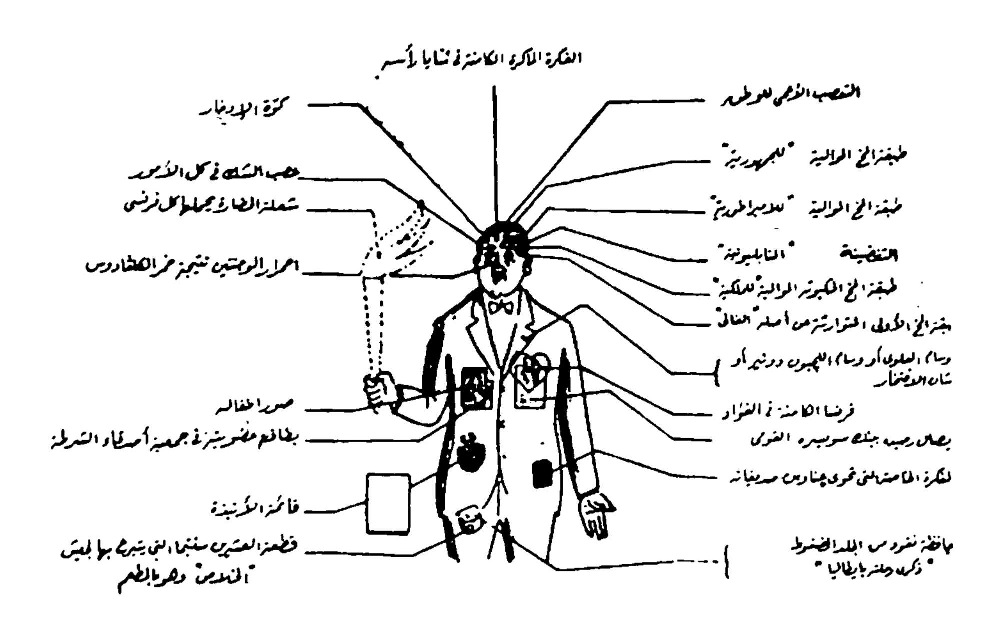
مجتمعٌ يردّد : لا تحفّف ثيابك الصوفية قبل نهاية شهر أبريل، وهو الذى لا يُجيز التدفئة بعد نهاية شهر مارس .

شعبٌ يختال بسحر ريفه الطبيعى، وهو الذى يتيح لمهندسيه أن يقيموا من الأبنية ما يشوّه جمال الريف .

شعبٌ يحمل للقضاء تبجيلاً عميقًا، وهو الذى يحاول أن يخدع قضاته بالبحث عن محام له أسلوبه فى التحايل .

وأخيراً، شعبٌ تستخفّه النشوة عندما يتحدث عظيم منه عن عظمة فرنسا وعن رسالتها العظمى وعن تقاليدها العظيمة[٥]، وهو الذى لا أمل لأفراده إلا أن ينزوى كل واحد منهم بعد حياة ممتعة قصيرة فى ركن هادئ صغير فوق رقعة أرض صغيرة يتملّكها، برفقة زوجة قانعة بعدد من الثياب الرخيصة[٦] ، وتتفنّن فى طهى الأطباق الشَهيّة اللّذيذة، وفى المناسبات يدعو أصدقاءه مرحّبا ليلعبوا معه لعبة مُقْتَصَرة من ألعاب الورق .

هؤلاء المحافظون الذى لم يتوقّفوا منذ قرنين من الزمن عن الجنوح صوْب اليسار، وإذا هم قد أدركوا يمينهم ثانية. وأولئك الجمهوريون الذين لم يكفّوا منذ أكثر من قرن عن كبت ميولهم الملَكية، وإذا هم لا يفتأون يلقّنون أطفالهم - وأصواتهم يحبسها الدمع - تاريخ الملوك الذين خلقوا مجد فرنسا خلال ألف سنة مضت .



قطاع مصوّر بالأشعة لمواطن فرنسى

أنّى لمراقب داهية، وإن بلغ من الحذق ما بلغ، أن يُعرّفهم بكلمة، ثم لا تكون تلك الكلمة هى "التناقض" ؟

من هو الفَرنسى إذن؟

إنه مخلوق على النقيض تماماً مما تخاله. وإذا حُملتُ على أن أحدّد صفته الغالبة فلسوف أقول دون تردد هى "الشك والريبة" .

خُذ لذلك مثلاً صديقى المسيو توپان الذى عرَفته منذ أمدٍ بعيد، والذى يحلو له أن يتمشدق بحفاظه الشديد على المؤسسات الجمهورية، ومع ذلك فعندما يسمع نائبًا من النواب يتمثل فى ختام خطابه بالمبادئ الخالدة لثورة سنة ١٧٨٩، لا يملك إلا أن يبتسم فى سخرية لا تترك مجالاً للشك فى أنه لم يعد يؤمن بها .

والمسيو توپان رجل يؤمن بالسلام، ولكن ما يكاد ممثلو الدول العظمى يجتمعون حول مائدة خضراء لإرساء أسس اتفاق دولى - على حد تعبير مهندسى الصحافة - ثم يذيعون بيانًا يعبّر عن تطابق وجهات نظرهم - حتى يبتسم ويهزّ رأسه قائلاً : هل تصدّق أنت هذا ؟ ما هى إلا كلمات ... كلمات. كلمات ليس غير .

والمسيو توپان رجل مشغول الفكر، مُثقل بالهموم، قد أعْيته مطالب الحياة، ولا يزال مُقيَّداً بحنينه إلى ما كان عليه الماضى عام ١٩٠٠ من رخاء وما كان عليه الفرنك الذهبى الفَرنسى من ازدهار، ومن هنا ما عاد لا يؤمن بشىء، إذ لم يعُدْ للإيمان بأى شىء فائدة .

وإذا كان الإنجليزى قليلاً ما يُنعم فكره، وأقلّ من هذا أن يستغرق متأملاً، فهو يعوّض هذين بالقيام بعمل إيجابى وإن طال المدى. أما الفَرنسى فلا ثقة له بما يفعل، وما إن يقع له شىء حتى يُثير حوله جدلاً ونقاشاً. وخير مثل لهذا هو ما يدور بمجلسهم النيابى، حتى ليخال المرء أن الناخبين لم ينتَخبُوا نوابهم إلا ليهدموهم. فما أكاد أمرّ

مع مسيو توپان فى الأتوبيس أمام مبنى الجمعية الوطنية حتى يتهلّل وجهه بابتسامة ساخرة !

أتراه مِن أتباع النظام الملكى؟ كلا .

أتراه من أشياع بوناپرت ؟ لا .

أتراه يتطلّع إلى الدكتاتورية؟ إنه ليمقتها . فمَنْ هو إذن؟

إنه بفِطرته معتدل لا يميل إلى التطرف، تفرض عليه روحه الثورية أن ينتخب أحد الراديكاليين، فإذا كان عَكِرَ المزاج انتخب راديكاليًا اشتراكيًا. إنه يرى أن عليه أن يؤدى حقه الانتخابى ليكون له نائب يمثّله فى البرلمان. وقد يحدث ساعة مرور الأتوبيس بهذا المبنى أن يكون هذا النائب نفسه على المنصّة رافعًا عقيرته متمثّلاً المبادئ المقدسة لثورة ١٧٨٩ ومُشيدًا بحقوق الإنسان ؛ غير أن مسيو توپان لم يَعُدْ فى قرارة نفسه يؤمن بأن هذا النائب له إيمان بما يقول؛ إذ إنه سرعان ما يتغيّر رأى النائب إذا ما جلس فى الجمعية الوطنية بين ستمائة نائب آخر. وقد يكون مسيو توپان على حق، فنراه يحمل على نوابه دون رِفق، وينظر إليهم نظرة فيها القليل من الثقة، شأننا نحن الإنجليز حين تقع أعيننا على من يحتال فيلفُّ حول عنقه ربطة خريجي كلية إيتُون السوداء ذات الخطوط الزرقاء، على حين يعلم الجميع أنه لم ينتسب إليها يومًا ما .

وقد يكون جميع ركاب الأتوبيس بما يبدو على وجوههم يفكّرون جميعًا على غرار تفكير مسيو توپان. وما أصعب أن نتصور أن هؤلاء الواقفين بالأتوبيس هم أنفسهم مَنْ انتخبوا أولئك النواب الجالسين بقاعة الجمعية الوطنية، الأمر الذى يدعو إلى القول بأن هذين الفريقيْن يعيشان على كوكبيْن مختلفيْن. ولعل الكلمة المعبّرة حق التعبير عن هذا كله هى التى تجرى على



حلم الفرنسى، بعد حياة ممتعة صغيرة

لسان واحد من هؤلاء الذين يحملون شارات الأوْسِمة على صدورهم وهى قوله : "إن ما نحتاج إليه حقًا هو رجل قوى الشَكيمة يعيد إلى هذه الفوضى نظامها، فما أحْوَجَنا إلى ضربة قاضية من مِكْنسة لا تُبقى ولا تذَر" .

وهنا قد يخيّل إليك أن الشعب ينشد دكتاتورا ، ولكنك بذلك تكون قد أخطأت الفهم. فلو ظهر مثل هذا الرجل القوى المنشود فى الأفق وانبرى متحدثًا عن إصلاح المؤسسات النيابية أو استعادة نظامها لرأيت أنه إذا ما ظفر برضًا نائب واحد أثار ألف غاضب. فمن أصوات تصيح فى وجهه قائلة : أيها الوغد، ومن أصوات أخرى تصِمه بالخيانة العظمى وبأنه يريد وأد الجمهورية، إلى أصوات تصيح : "لن يعبُروا"(٧)، ثم ينادون بمبادئ ثورة ١٧٨٩ .

ألاَ ما أعجب مسيو توپان الذى كان يسخر منذ قليل من ذكر عام ١٧٨٩، ثم إذا هو الآن يأخذ تلك الذكرى مأخذ الجِدّ .

وقد يُخيّل لمن يتتبّع الأمور فى غير انحياز أن أشدّ ما يتمسّك به الفَرنسى هو حقّه فى الانتخاب العام وحقّه فى التعبير عن إرادة الشعب وحق المؤسسات الجمهورية – أو إن شئت فقُل "الجمعية الوطنية" – فى الإفصاح عن نفسها، ولكن حسبُك أن تمرّ وأنت راكب الأتوبيس أمام الجمعية الوطنية (ارجع إلى ما سَبَقَ قوله) .

***

وسينجلى للقارئ من هذه المواقف كافة أن فرنسا ليست دولة يسهل حُكمها؛ إذ لا يلبث أن يفلتَ مقْود الحكم من يد من يحكمها ساعة يتسلّم الحكم. ومع ذلك فما أكثر ما يخطئ الأجانب حين ينتقدون الفرنسيين ويرمونهم بالتقلّب والبُعد عن الاستقرار. وما أراه أنا هو أن هذه الظاهرة دليل على وعى هذا الشعب. فكم من دول كثيرة تفقد اتزانها عند ما تسقطُ حكوماتها، أما عن الفرنسيين فعلى الرغم من أن حكوماتهم بلغت من الكثرة مبلغًا كاد أن يؤدى إلى فقدان الاتزان، فطالما سقطتْ حكومات وظلُّوا على اتزانهم وهدوئهم التام الذى لا يدانيهم فيه شعب. إن فرنسا هى الدولة الوحيدة فى

العالم التى لها من سلامة "جسدها" ما يمكّنها من أن تعيش هادئة دون "رأس" شهرا بين كل أربعة شهور[٨] .

نحن الإنجليز نعدُّ الحكومة ضربة لازِب لا غنى عنها ، على حين أن الحكومة فى فرنسا ضربٌ من الترَف، فى قدرتها أن تحظى به ثلاث مرات أو أربعًا أو خمسًا فى كل عام، وذلك لما لدستورها من صلابة وقوة ولما فُطرت عليه من فطرة سليمة. وهذه وتلك مما يُتيح للشعب الفَرنسى الجديد بالإعجاب أن يغامر باقتحام أشد السُّبل وعورة، دون أن يفقد اتزانه .

الهامش

(١) الجورب الأسود تتميز به تلميذات المدارس الإنجليزية .

(٢) يبدو أن إحدى القارئات من جنوب إفريقيا قرأت ما كتبه الرائد بإحدى الصحف فأعدت ردًا نُشر بصحيفة ناتال ديلى نيوز بمدينة دربان بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٥٤ جاء فيه : إنى أعرف الجرّاح الذى أجرى عملية فتح المخ معرفة وثيقة، وأؤيد كل ما ذكره الرائد عنها، فلقد كنت الممرضة المنوط بها مساعدته وشاهدته بنفسى وهو يستخرج كل الأشياء المنوه عنها . أما ما لم يذكره الرائد فهو أن الجراح كان فرنسيًا، وأما ما لم يعرفه المؤلف فهو أنى وقعت فى غرام الجراح. وحدث أن أجريت نفس العملية لهذا الجراح يومًا ما، ولشد ما كانت دهشتنا حين رأينا بعد فتح جمجمته تسعة عشر من رؤساء الوزارات الفرنسية، وثلاث راقصات من مسرح الفولى برچير، ونصف قرص من جبن الكاماممبير الطازج، وخط ماچينو كاملا، وبضع سيارات نقل مليئة بالفرنكات الفرنسية المتدهورة القيمة .

(٣) اعتاد الفرنسيون حين ينزلون بلدًا يستعمرونه أن يحوزوا أوسمة تلك البلد دون جهد (المعرّب).

(٤) استخدم المؤلف كلمة Histoire فى موضعين بمعنيين مختلفين، فاستعمل الكلمة أولاً بمعنى التاريخ، ثم ثانيًا بمعنى المتاعب التى تصدع الرأس .

(٥) Lorsque un de leurs grands hommes leur parle de leur grandeur, de leur grande mission civilatrice ...

(٦) Une petite vie, dans un petit coin tranquille, sur un petit bout de terre á eux, avec une petite femme.

(٧) Il ne passeront pas عبارة مأثورة اتُّخذت مثلاً للتحدّى جاءت أول ما جاءت على لسان أحد قادة فرنسا العسكريين خلال الحرب العالمية الأولى، والمعنى أن الألمان لن يعبروا (المعرّب).

(٨) لا يفوت القارئ أن هذا الكتاب صدر عام ١٩٥٤ فى أثناء حكم الجمهورية الرابعة، وكانت هذه هى حال فرنسا عندها (المعرّب).

الفصل الثانى

موطن الريبة والغفلة

يذهب الفرنسيون دومًا إلى الاعتقاد بأن الدول الأخرى لا تفتأ تُصوّب أنظارها نحو فرنسا، أو هذا على الأقل هو ما تردّده صحافتهم، فما تكاد تلوح أزمة فى الأفق حتى ينشروا بالخط العريض : "إن عيون الأجانب ترقُبنا يومًا بعد يوم" .

أما عنّى فما اعتليتُ يومًا صخور دوفر قبل شروق الشمس لأختلس النّظر من خلال التلِسْكُوب إلى الفرنسيّين وهم ينهضون من فراشهم ؛ إذ هذا الأمر يخالف سُنن اللياقة. وقد يكون ثمة نفر من الأجانب العابثين يستبيحُون لأنفسهم مثل هذا التّلَصُّص، وكم راجعتُ نفسى أسائلها عن طبيعة مثل هذا الأجنبى الفضولى الذى لا يكفّ عن استراق النظر، وإذا أنا أتخيلّه ذات ليلة فى رؤيا لى - وما أندر رؤاى - شخصًا خليطًا من أجناس مختلفة : قدمٌ له فى الكرملين وقدمٌ له أخرى فى الستي[1]، رأسه بريطانى ومَعدتُه روسية، وعقله الباطن جرمانى وحافظة نقوده أمريكية، وهو وإن لم يغِبْ عن ذاكرته ما مُنِىَ به الفرنسيون من هزائم فى وُوترلو وسيدان، فهو على الرغم من هذا يختلس النظر إلى فرنسا فى ثوبها الجميل، متربّصًا بها على ما تحسدُه عليه بها الدول أجمع .

ويؤمن الفرنسيون أن بلادهم لا تُضمر الشّر لغيرها أبدًا. فالإنجليزى فى رأيهم متعال، والأمريكى مُسيطر، والألمانى سادى، والإيطالى مراوغ لا يُسْبَر غوْره، والروسى غامض، والسويسرى سويسرى، أما الفرنسى فوديعٌ ... والجميع متحاملون عليه .

ولفرنسا دائمًا موقفان : إما أن تسيطر على العالم بإشعاعها حربًا وغزوًا وفنا وأدبًا ، إلى غير ذلك ، وتلك هى عهود فرنسا العظمى بطولة وتألقًا، وإما أن تقع فريسة للغزو والهزيمة، وإذا هى تطؤها الأقدام ويُنكَّل بها ويُشرَّد أفرادُها، وهذه هى عهود فرنسا العُظمى المهيضة الجناح. والموقف الأول يُرضى كبرياء الفَرنسى ويروى تعطّشه للعظمة، وهذا هو الجانب النابليونى الذى يشغل فكره، والأمر الثانى يتمثّل فى قدرته الفائقه على النهوض من عَثْرته واسترداد قواه، وهذا هو "الجانب الچان داركي" الكامن فى السويداء من قلبه .

وما أصعب على الفَرنسى أن يخال إنسانًا يتطلع إلى فرنسا وليس فى يدها غصن الزيتون تُلوِّح به ، باعتبارها فريسة وادعة فى قبضة الشعوب المعتدية .

وإن من يرقب الأمور عن كثب بصدق نيّة يسلّم بأن مثل هذا التفكير له ما يبرّره، فقد قُدّر لفرنسا أن تكابد أشد هجمات الجنس التيوتونى عنفًا ثلاث مرات فى أقل من قرن. ولكن عليه إذا أراد أن يلزم جانب الإنصاف أن يُغمض عينيه قليلاً عما دار خلال السنين الثمانين الأخيرة - التى لم تكن غير ذرات ضئيلة من الرمال فى عُمر الزمن - وأن يدرس حوليات القرون السابقة ليقرّ رغم أنفه بأن ذلك الإسپانى الذى ذاقت بلاده الأمرَّين على يد جيوش ناپليون الغازية من العسير عليه أن يرى فى فرنسا ضحية بريئة مضطهدة ! ومع ذلك ، فعلى الأجنبى - كما يرى الفرنسيون - أن يدرك أنه إذا كان الجيش الفَرنسى قد زحف ذات يوم على إمارة پلاتينات الچرمانية أو قام بغزو سرقسطة الإسپانية فإنه لم يفعل هذا إلا مضطرًا دفاعًا عن نفسه![٢]

وكما يؤمن الفَرنسى بأنه هدف لاضطهاد خصومه الذين يشنّون الحرب عليه، يؤمن كذلك بأنه هدف لاضطهاد حلفائه الذين يعقدون الصُلح من وراء ظهره، وبأنه هدف لاضطهاد العالم كله، هذا العالم الذى يعيش على مخترعاته - فما من اختراع يخترعه الفَرنسى إلا وقد شكى بعده من سرقته منه - بل هو يشعر أيضًا أنه هدف لاضطهاد مواطنيه الفرنسيين : فالحكومة تستغله، ومصلحة الضرائب ترهقه، ورئيسه

لا يدفع له أجراً يتفق وخدماته، والتجار يكدسون ثرواتهم من كَدّه، وجاره لا يكفّ عن التنديد به . جملة القول أنه هدف لاضطهاد الجميع!

وهذا الشعور بالتهديد المتصل الذى يحس أنه يواجهه يقفه دائمًا موقف المدافع عن نفسه. ويتجلى هذا الشعور عندما يسأل الفَرنسى مواطنًا من مواطنيه عن حاله، فإننا نجد الناس فى جميع أنحاء العالم يجيبون على مثل هذا السؤال بما يعنى أنهم بخير أو بسوء أو فى حال بين بين، أما فى فرنسا فالجواب الذى يجرى على ألسنتهم جميعًا هو : "إنى أقاوم قدْر استطاعتى"(٢) .

وفى هذا ما يدل على أن الفَرنسى يشعر أنه مهيضٌ دومًا. ولكن ترى من هذا الذى يُهيض هذا الفَرنسى الرقيق الوديع؟

لقد تفضّل صديقى ومساعدي الوفىّ فلفتَ نظرى إلى كلمة صغيرة فى مفردات اللغة الفرنسية ، تكشف عن "شخصية الفَرنسى الغامضة". إنها كلمة "هم" ils، التى تعنى أي شخص آخر غيره ؛ يقولها الرؤساء عن المرءوسين، والمرءوسون عن الرؤساء، والخدم عن السادة، والسادة عن الخدم، وراكبو السيارات عن المشاة، والمشاة عن راكبى السيارات ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا الدولة ومصلحة الضرائب ... والأجانب .

ومادام الفَرنسى محاطًا هكذا بالأعداء والخصوم إحاطة المياه بإنجلترا، ومادام هدفًا للمُطاردين الشّرِهين الطامعين فى بلاده الجميلة وفى حافظة نقوده وفى حُريته وفى حقوقه وفى شرفه ، وفى زوجته ، فمن اليسير علينا إذن أن نفهم لِمَ كان دومًا على حذر وشك وريبة. فهو يرتاب فى كل شىء. تُرى هل لى أن أقول إنه يُولد مرتابًا، ويشبُّ مرتابًا، ويتزوج مرتابًا، ويمضى فى حياته مرتابًا، بل ويقضى نحْبه أشدّ ارتيابًا! وكما يعتري الخَجُول حينًا نوبات من الجرأة تنتاب الفَرنسى بين الحين والحين نوْبات من الغَفْلة الغريبة .

ولكن تُرى هل فى إمكانى أن أجْلُوَ هذا؟ إخالني مستطيعًا .

ما الذى يُريب الفَرنسى، وأى شىء يُريبهُ حقًا؟

كل شىء ...

فمنذ اللحظة الأولى التى يجلس فيها المسيو توپان فى مطعم من مطاعم هذا البلد الذى يستطيع المرء أن يتناول فيه أشهى الأطعمة، يبدأ شكّه فيما سيُقدَّم إليه من طعام. فإذا ما طلب المَحار على سبيل المثال بادر بسؤال النادل : "هل هو حقًا من نوع ممتاز؟ وهل تضمن لي جودته؟" .

ولم أسمع يومًا نادلاً قال : "لا، لا أضمن لك جودته". فعلى العكس من هذا يقول : "إنه من نوع ممتاز"، ثم ينحنى ويُسرّ فى أذنه ناصحًا : "لكنه على هذا مما لا يتفق ومذاقك الرفيع أيها المسيو توپان (أو المسيو ديليتانج - دِلْپيه أو المسيو دوپُون أيّا كان الاسم)". وما أسرع ما يملأ هذا الإطراء المسيو توپان تيهًا بنفسه، لا سيما إذا كانت فى صحبته سيدة .

إن المسيو توپان يعلم حق العلم أن ذِكر المحار بقائمة الطعام يعنى أنه طازج حقًا، لكنه راغب فى أن يطمئن وأن يهدئ من روعه، ثم هو بعد هذا كله يحب أن يثبت لنفسه ولغيره أنه ليس ممن يُغَرَّر بهم. فالمسيو توپان يشك فى كل شىء ... حتى الماء! فيصرّ عند طلبه على أن يكون ماءً قراحًا fraiche ، وكأنه فاته أن الماء لا يُقدم ساخنًا أو ملوّثًا. ثم هو يشترط حين يُقدَّم له الخبز أن يكون طازجًا، وحين يطلب نبيذًا يُنبّه رئيس الخدم ألا يكون مغشوشًا. ثم يتساءل : "هل نبيذ بوميرول هذا جيد، وهل أشربه وأنا مطمئن إلى أنه غير مخلوط؟" .

ربّاه تُرى كيف تكون حال المسيو توپانْ فى بلد مثل وطنى - إنجلترا - حيث يعتبرُ مجرد الجلوس إلى مائدة الطعام مغامرة مفزعة!

وما إن يفرغ المسيو توپان من وجبته الشّهية حتى يراجع بفكره قائمة الحساب، ثم يلتفت إليّ مفسرًا : "الأمر أمر مبدأ لا غير". فهو لا يحب أن يغالطه أحد، والمغالطة فى المطاعم شيء مألوف. وما أخْيَب أمله إذا لم يقع على خطأ، ثم ما أشدّه غضبًا وصخبًا حين يقع على خطأ ... وهو على الحالين لا يخرج من المطعم إلاّ وهو أشدّ ارتيابًا!

وأذكر مرة وأنا أصحب المسيو توپان إلى محطة أوسْترلِتْز لنستقل منها القطار إلى بلدة صغيرة كنا نقصد إليها فى الجنوب الغربى من فرنسا أنه استأذنني فى أن يعرِّج على إحدى الصيدليات لشراء دواء كان فى حاجة إليه فبادرته بقولى : كم أنا آسف، هل أنت مصاب بوعكة؟

فقال : هوِّن عليك، فليس الأمر كما تظن، غير أنى لا أطمئن إلى الطعام الجاسكونى .

فقلت له : هلا اشتريت دواءك حيث ننزل؟

قال : ما إخالنى مطمئنًا الاطمئنان كله لما أشتريه فى تلك البلدان الصغيرة، وما أكثر اطمئنانى لو اشتريته من پاريس .

وكم كانت دهشتى حين اجتزنا فى طريقنا جملة من الصيدليات ، ليس فى مظهر واحدة منها ما يُنقصُ من قدْرها، غير أن المسيو توپان لم يطمئن إلى واحدة منها. عندها فقط أدركت مغزى تلك العبارة الفرنسية التى كثيرًا ما استعْصَى علىّ فَهمها وهى : "هذا الدواء مقصور بيعه على الصيدليات الجديرة بالثقة"، لكأن جميع الصيدليات التى مررنا بها لم تكن فى نظر المسيو توپان جديرة بالثقة .

وأخيرًا انتهينا إلى الصيدلية الجديرة بالثقة!

وفيما هو يعود إلى السيارة ممسكًا بزجاجة صغيرة قال معتذرًا : "بينى وبينك إنى لا أطمئن إلى العقاقير كلها ... إذ لا غناء فيها أبدًا، غير أن زوجتى تؤمن بها ... والإيمان هو الدواء الشافى حقًّا" .



مراجعة قائمة الحساب : ما أخيب أمل المسيو توپان إذا لم يقع فيها على خطأ، ثم ما أشدّه غضبًا وصخبًا حين يقع على خطأ .

وأخذ قلق المسيو توپان يزداد كلما اقتربنا من المحطة، ومضى ينظر إلى ساعته بين الفَينة والفينة، فلقد كان دون شك يرتاب فى صلاحيّتها. ثم انتهى به الأمر إلى أن طلب من السائق أن يحدّد له الوقت على وجه الدقة. إن الإنجليزى أو الألمانى إذا وقع لأحدهما مثل هذا يسأل كل منهما بلغته قائلاً : ما هو الوقت؟ أو كم الساعة؟ ويقنع بما يتلقّاه من إجابة . أما المسيو توپان فلا يقنع بإجابة ما عن الوقت ، فهو لا يقنع إلا بالتوقيت المثالى الدقيق ... توقيت المرصد ... توقيت جرينتش(٤) ... توقيت جبل پالومار(٥). وما لبث أن اطمأن إلى ما ذكره سائق السيارة عن الوقت حين وجده لا يختلف كثيراً عن الوقت الذى تشير إليه ساعته. غير أنه ما كاد يصل إلى فناء المحطة حتى أخذ يتثبّت للمرة الأخيرة من الوقت مستأنسًا بالساعة التى تعلو هذا الفناء، مبرّراً ما يفعل بأن الساعات المثبّتة خارج المحطات تسبق المثبّتة داخلها بثلاث دقائق كى تستحثّ الراكبين على الإسراع. وبناء على ذلك أخّر المسيو توپان ساعته ثلاث دقائق عن ساعة المحطة الخارجية ، ثم عاد فقدّمها دقيقة متأثراً بما يدين به من شك وريبة. وهكذا أضاع من الوقت ما يقرب من ستين ثانية!

وبعد أن قصدنا القطار استقر بنا المقام فى مقعديْن إلى جوار النافذة ، ثم غادرنا القطار لنسير قليلاً على الرصيف، ولكنه قبل أن نترك مقعدينا بالمقصورة كان قد احتجز مقعداً ثالثًا، ووضع فوق المقعد الأول قبعته وفوق الثانى مظلّته، وفوق الثالث معطفى الواقى من المطر. وعندما عقّبت على ذلك بأننا اثنان فحسب قال : "هذا خير وأبقى، لنضمن عدم مضايقة الناس لنا" .

وكان ظنى أن المسيو توپان على بيِّنة من خط سير القطار، فقد رجع هو نفسه إلى "الدليل" قبل الركوب. غير أنه ما كاد يلمح أحد موظفى المحطة حتى بادره مستفسراً : "هل أنت واثق من أننا لن نضطر إلى تغيير القطار فى الطريق؟" ثم التفت إلىّ وقال : إنى لفى شك من كل ما هو مسطور فى هذا "الدليل" ومثله!

وليس ثمة مكان أفضل من مقصورة القطار ، يتجلّى فيه الوحش المفزِّع للفَرنسيين الذى هو كلمة "هُم ils" بمعنى الآخرين. كنت على دراية بذلك، غير أنى فى هذه المرة سمعت فوق ما كنت أتوقّع. لقد بدا هذا الوحش المفزِّع – أول ما بدا – على استحياء حين هوّم النعاس على الجميع، ثم ما كاد التيار الكهربائى ينقطع فجأة مع انتهاء ذلك اليوم البارد المُعتم حتى انبرت عجوز فى السبعين من عمرها كانت تدفئ قدميْها بمدفأة صغيرة تشكو قائلة : "كان عليهم أن يفحصوا هذه العربات قبل أن يُخْرِجُوها للرُكّاب" .

وبدا الركاب الخمسة الذين ضمّتهم المقصورة أولاً صامتين يراودهم شك مقرون بالتّحفُّظ ، وكانوا حتى هذه اللحظة يطالعون صحفهم أو صحف جيرانهم بعد النطق بالعبارة التقليدية : "هل تسمح لي؟ مع جزيل الشكر"(٦) وكأنهم كانوا يرتقبون إشارة البَدء الأولى لينطلقوا صوب الحلبة. وكما يتبادل اللاعبون كرة الرجْبي التقطت كلمة "هُم" سيدة ثرية أسدلت على وجهها خِماراً شفافًا ، وكانت تحمل جرْوًا وقالت : "انظروا كيف أصَرّوا على أن تكون لهذا الحيوان الصغير المستأنس تذكرة!"

والتقط رجل فى الجناح الأيمن الكرة وهى طائرة فى الهواء، وكان يبدو شديد الثقة بنفسه مُحْتميًا فى رحلته بشارة وسام جوقة الشرف يُعلّقها مزهوا فى عروة سترته، وتتدلّى على صدره سلسلة ذهبية ولُغدٌ ذو طيّات ثلاث ، راحت تهتز مع وسامه وسلسلته الذهبية إثر قهقهته الهازئة ، وقال : عجبًا. هم لا يبالون بشىء يا سيدتى ولا يعبأون بأحد .

وهنا أقحم السيد توپان نفسه فى الحديث دون أن يتحرّج ليُعلّق بقوله : إلا بما يعود عليهم بالنفع .

– طبعًا .

– ما دمنا ندفع لهم .

- إنهم لا يأبهون لما بعد هذا .

وهنا اتّسعت رقعة المعركة. وكم أسفت إذ لم أشترك فى تلك المعركة التى كانت تدفعنى إلى خوضها دفعًا روح الرياضة المتأصلة فىّ. ولكنى التزمت موقف الحَكَم الصَامت، مكتفيًا بأن أحْصِي النقاط وأسجّل كم مرة قيلت كلمة "هُم" .

- لو أن لنا حكومة !

- بل ثمة حكومة، وكأنها غير موجودة .

- إن كل ما نحتاج إليه هو حكومة تَحْكُم .

- ما أفدحَ ما تطلب .

- نريد رجلاً ذا قبضة حديدية .

- يُخلّصنا من هذا كله بمَسحة فُوطة قوية .

- وفى انتظار هذا الرجل ها "هُم" أولاء باقون فى أماكنهم .

- نعم ، ولن يُزحزحهم شىء .

- إن كل ما يشغل بالهم هو حشْو جيوبهم بالمال .

- وتشحيم الأكفّ[٧]، وتهيئة الوظائف لأولادهم .

- إنهم ينعمون بكل المزايا .

- ورائحة "اليَخْنى"[٨] فاحت .

- ورحلات تدفع الدولة نفقاتها. هل سمعت عن تلك البَعثة التى يزعمون أنها برلمانية ، والتى سافرت إلى أفريقيا السوداء ؟ مَنْ يدفع تكاليفها ؟

- نحن طبعًا .

– أنت طبعًا .

– أنا طبعًا .

– نعم بكل تأكيد. وَيْ ! لقد تجاوزُوا الحدَّ. يا للعار لبلادنا الجميلة !

– الغنية !

– التى تتوقُ إلى الرُّقى والتقدم !

– سينتهى بهم الأمر إلى خرابها !

– وهم قادرون على هذا !

– انظر إلى هذه المقصورة ! أليست فضيحة ؟ حين أفكر أن هناك مسافرين أجانب، ماذا عساهم يظنون بنا ؟

وهنا اتجهت الأنظار كلها صوبي تلتمس عندى الصّفح ، وكأنها تقول : اغفري لنا يا إنجلترا .

– لأكتبنّ خطابًا إلى الشركة .

– اكْتُبْ ما تشاء، ولكنهم لن يعنوا حتى بقراءة خطابك !

وفى هذه اللحظة مرَ مفتش القطار فبادرته السيدة صاحبة الكلب قائلة : هذه فضيحة. أتسمعنى ؟ فضيحة ! الأجدر بك أن ترد إلىّ ثمن تذكِرتى .

فأجابها المفتش : إذا كان لديك ما تشكين منه فاكتُبى رأسا إلى الشركة القومية للسكك الحديدية .

– إذن ما فائدة وجودك هنا ؟

– مراقبة التذاكر يا سيدتى. تذكرتك من فضلك .

وهنا انبرى الرجل حامل شارة وسام جوقة الشرف ، وكان يتحرّق شوقًا للمشاركة فى المعركة قائلاً : لتكن أكثر تأدّبًا مع السيدة .

- أنا على أدب جَم ... لكن ما شأنك أنت ؟ تذكرتك من فضلك .

- لن أُريكها . لن أُظْهِرَها ، ولن أُريك إياها .

- سأضطر لاتخاذ إجراءاتى إذا ما أصررت على ذلك .

- كفى، ولتدفعنَّ ثمن هذا ، يا صديقى[٩] .

ثم أردف وهو يخرج قلما ذهبيًا يتدلّى من طرف سلسلة : دعنى أولاً أدوّن رقْمك .

ثم نهض واقفًا إلى مستوى رأس المفتش وهو يُثبّت منظاره ويبلّ طرف قلمه بلسانه ، وقال : ثلاثة آلاف وتسعمائة وسبعة وثمانون. حسنًا. إن رقمة ٣٩٨٧ . سيرَى عمّا قريب. ها هى ذى تذكرتى، وسترى ما ستأتيك به الأيام ... سترى كثيرًا !

وتبسّم المفتش وثقب التذكرة فى هدوء، بينما صاحب الوسام يقول : من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

ومضى المفتش يقول : التذاكر من فضلكم .

وأذعن الركّاب على مضَض وهم يتأفّفون. وما كاد المفتش يغلق باب المقصورة حتى تمتمت السيدة صاحبة الكلب من خلال خمارها الشفّاف :

- يا لها من عقلية ! ما كنا نرى مثل هذا قبل الحرب ! لقد أصبحوا جميعًا على غِرار هذا الرجل .

- بل أشدّ سُوءًا يا سيدتى .

- كلهم متشابهون .

وحين غادرت المقصورة بعد لحظات لأستنشق بعض الهواء النقى فى الممر سمعت مفتش القطار يقول لزميل لحق به : لست أدرى ماذا حلّ بهم جميعًا اليوم. عليك أن تعاملهم برِفق شديد، فإن أعصابهم متوتّرة ، لا تكاد تحتمل صوت ضغط مقراض التذاكر ... فلتكُن حذرًا معهم .

***

المفتشون يرتابون فى الركّاب، والركّاب يرتابون فى المفتشين ... تُرى أيهم فى هذا القطار الفَرنسى، قطار الشك والرِّيبة، كان أكثر شكًّا وأشدّ ارتيابًا ؟

وانتهينا إلى مقصدنا ، وكنت ما أنفك أُردّد فى نفسى هذا السؤال : تُرى هل ما زال المسيو توپان على ريبته ؟ إنه ما كاد يبلغ الفندق حتى بدأ الشك يعاوده من جديد، لا سيما عن فراش النوم، إذ راح يتلمّس الحشيّة ، ويتحسّس الملاءات والأغطية ، ويفحص صوان الملابس . إن هذه الظاهرة ، ظاهرة الشك ، لا ينفرد بها المسيو توپان وحده، فإن الملايين من الفرنسيين يرتابون فى أصحاب الفنادق، وفى قوائم الحساب، وفى المحار، وفى الزوجات اللواتى يَقُدْنَهُم من أنوفهم، وفى رجال الجيش الذين يدفعونهم إلى الأمام، وفى رجال السياسة الذين يدفعونهم إلى الوراء، وفى أعداء الحروب الذين قد يبيعون وطنهم فرنسا إلى العالم، وفى المدرسين الذين لا يُفرقون بين ما يحشون به أذهان أبنائهم وبين ما يحشون به أذهان أبناء أعدائهم، وكأنهم بهذا حريصون على أن يثبتوا أن ذاكرتهم تحوى كل شىء .

الهامش

(١) City حيّ السيتى هو قلب لندن الاقتصادى (المعرّب) .

(٢) عندما نشب جدل حاد بين الرائد ومساعده الفرنسى الذى سأله قائلاً : هل لى أن أفهم من هذا أن سلفكم المبجّل المدعو الرائد ريكس هودسون - عندما قتل بيديه وباسم صاحبه الجلالة الموقّرة أبناء ملك الهند الثلاثة وأرسل أباهم إلى مدينة رانجون ليقضي نَحبَه فى المنفى - أكان يريد الخير لهم؟ فأجاب الرائد : أستطيع أن أقرر بشكل قاطع أن الأمر كذلك (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٣) "On se défend ..."

(٤) جرينتش ضاحية من ضواحى لندن بها مرصد قديم اتُّخذ خط الطول الذى يمرّ بها خطًا طول أساسيًا (المعرّب) .

(٥) جبل پالومار فى كاليفورنيا عليه مرصد معروف بمنظاره المعظّم الذى يبلغ قطر عدسته خمسة أمتار (المعرّب) .

(٦) يريد القول إنهم يستولون على صحف جيرانهم قبل أن يأذنوا لهم .

(٧) يقصد الرشوة .

(٨) L'assiette au beurre تعبير فرنسى بالعامية يكنى عن النّهب والاختلاس .

(٩) حينما يقول الفَرنسى لفَرنسى آخر "يا صديقى" Mon ami بمثل هذه اللهجة، فهذا دليل مؤكد على أنه يعدّه خصمًا (ملاحظة للرائد) .

الفصل الثالث

أمّة الانقسامـات

تذكر كتب الجغرافيا ودوائر المعارف أن "تعداد الشعب البريطانى تسعة وأربعون مليون نسمة" ، أو "أن المجموع الكلّى لسكان الولايات المتحدة الأمريكية مائة وستون مليونًا". وأما عن فرنسا فالأجدر أن يقال إنها "تنقسم إلى ثلاثة وأربعين مليونًا من الفرنسيين !"

إن فرنسا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تحسّ وأنت تضمّ عشرة من أبنائها إلى عشرة آخرين منهم أنك لا تقوم بمسألة جَمْع ، بل تقوم بمسألة قِسْمة مقامها عشرون. ورأيي أن الأمر أحوج ما يكون إلى عالم نفسانى مثل فرويد لا إلى ضابط بريطاني متقاعد لكى يفسّر كيف يستقيم لأولئك القوم "مُطوِّحى رءوس الملوك على المقصلة"، المنقسمين على أنفسهم منذ أمد بعيد - أن يتطلّعوا معجبين هذا الإعجاب إلى قصر بكنجهام ، وأن يراودهم الحلم بالوحدة الوطنية، ذلك الحلم الخيالى البعيد المنال الذى طالما وَصَفُوه بأنه البلسم الوحيد الشافى لجراح فرنسا الممزّقة . ليس هناك غير الحرب وحدها هى التى تتيح للفرنسيين استخدام هذا البلسم الذى سوف يُخلَعُ عليه حينذاك اسم "الوحدة المقدّسة". فعندها سرعان ما سيُعَبِّئ الفرنسيون مائة وخمسين فرقة حربية. وليس لنا أن نشكو من ذلك، فإنهم عندما يعجزون عن أن يقاتل بعضهم بعضًا يجتمعون على قتال العدو المشترك، مما يتيح لنا نحن الإنجليز - لوفق تقاليدنا - أن نتلكأ أمدًا أطول لنرى أكثر[١] .

وما إن يُرَفْرف السّلام بجناحيْه حتى تعود فرنسا من جديد إلى صراعاتها التقليدية. وفى ظل شعاراتها المتوارَثة المنادية بالمساواة والإخاء تندفع دون حرَج لتأخذ فى لعبة من ألعابها الرياضية المحببّة ، التى تحظى بإقبال الشعب بعد سباق الدرّاجات، وهى صراع الطبقات .

ولكى أعفى نفسى من الجدل مع الخبراء، سأترك لهم عبء شرح تطور هذه الرياضة على مرّ الزمن، وكذا شرح قواعدها واتجاهاتها، إلاّ أن ثمة أمرًا واحدًا يَلفت انتباهى، وهو أن عابر الطريق الأمريكى إذا شاهد رجلاً من أصحاب الملايين يمر أمامه فى سيارة كاديلاك، أخذ يحلم بأن يقود هو نفسه مثيلتها فى يوم من الأيام. أما عابر الطريق الفرنسى فإن الحُلم الذى يراوده إذا شاهد صاحب الملايين يمرّ أمامه فى سيارة كاديلاك هو التطلّع إلى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن ينتزعه من سيارته ويُرغمه على السير على قدميه ، شأنه شأن غيره من الناس[٢٠٢] .

ثم ما أغناني عن أن أسرد كل المُفارقات التى تُباعد ما بين الفرنسيين بعضهم وبعض، وحسبى أن أقدّم مثالاً واحدًا له دلالته : إذا ما استيقظ فرنسى فى پورت ده بُو بجنوب فرنسا من هؤلاء المولعين بمذهب العُرى، فأنت لا شك ستجد فى هذا الصباح نفسه فرنسيا آخر من سكان مالُو - ليه - بَان فى الشمال قد هبّ مُعترضًا على مذهب العُرى. ولا يقف الخلاف عند هذا الحدّ، فإن من يدين بالعرى ما يلبث أن يؤسس جمعية تدين بهذا المذهب يكِلُ إليها انتخاب رئيس ونائب رئيس لها يُسفر عن أن يكون هو هذا الرئيس. ثم لا يطول الأمد حتى ينشب خلاف بينه وبين نائبه، فلا يلبث هذا النائب أن ينفصل عن الجمعية ليؤسّس جمعية لعراة آخرين ذوى نزعة أكثر من الأولى تطرُّفًا نحو اليسار. أما من يُعادي مذهب العرى فنراه رئيس شرف لحركة مناهضة لهذا المذهب . وهكذا تتوالى الجمعيات، فكل مَنْ يناهض يؤسّس جمعية .

وعلى مثل هذا النحو تجرى الأمور السياسية فى فرنسا، وكذا رياضة الانزلاق على الجليد. فعندما نشأت بدعة زحّافات الانزلاق القصيرة سرعان ما دبّ الخلاف بين محترفى رياضة الانزلاق فى فرنسا، وإذا هم



سيبلغك أمري عن قريب يا صاحبي ... فما أطول باعي!

ينقسمون على أنفسهم إلى فرق عديدة : جماعة "ضد زحافات الانزلاق القصيرة" وأخرى "ضد زحافات الانزلاق الطويلة". فثمة فى قرارة نفس كل فرنسى تكمن كلمة "لا anti" متحفّزة للوثوب والانقضاض حين تلوح فى الأفق كلمة "موافق Pro" ! وقد تُفسّر لنا هذه الظاهرة لغز الأحزاب السياسية الفرنسية المعقّد(٤)، فقُل لى بربّك كيف يقدر الإنجليزى السَّوىّ - أعنى الإنجليزى القادر على التمييز بين "المحافظ" و"العمالى" - أن يتبيّن تلك الفروق الدقيقة التى تفصل بين "يسارى جمهورى" و"جمهورى يسارى"، أو بين نائب من "الاتحاد الجمهورى والحركة الاجتماعية" وبين نائب من "الحركة الجمهورية الاجتماعية" ؟

فى الحق أنى أَعْجِزُ شخصيًا عن ذلك !

وما أعجزنى كذلك عن دراسة مئات الآلاف من الانقسامات بين الفرنسيين، فهم كما نعلم عنهم لا يميلون إلى التدقيق فى الأمور، وحسبى هنا أن أسوق اختلافهم الجوهرى الذى يُفضى كل يوم إلى تقسيم الفرنسيين إلى معسكرين : الموظّفون(٥) الذين يؤكدون لك أنهم دائمًا آخر من تفكّر الدولة فيهم ولا تعنى بمصالحهم ... وغير الموظفين الذين يدّعون أن كافة المصائب مردّها إلى الموظفين. والنتيجة المنطقية لذلك هى أن اثنين وأربعين مليونًا من المواطنين الفرنسيين يقفون صفا ضد المليون الثالث والأربعين الذى ينتظم الموظفين فى فرنسا ... يحدث ذلك فى كل يوم من أيام الأسبوع ، ما عدا يوم الأحد الذى يعدّه الفرنسيون يوم هُدنة، على حين يبرمون من الملل خلاله .

وقد يبدو - بادئ ذى بدء - أن ضآلة عدد الموظفين بالنسبة لمجموع السكان تضعهم موضع المغلوبين على أمرهم، ولكن إياك والحكم على الأمور فى فرنسا من النظرة الأولى، فالمرء لا يكفّ عن اكتشاف ألغاز جديدة، وينتهى به الأمر إلى أن يفهم جيداً لماذا يصعب فهم هؤلاء القوم .

إن المواطن الفرنسي عندما يدخل مركز الشرطة أو مكتب الضمان الاجتماعي أو دار العمدية يذكّرني برام من رماة القوس على أُهبة الاستعداد للذهاب إلى ميدان القتال في حرب المائة عام ! فتجده مسلحًا بأعصاب متوتّرة، مزوّدًا بردود ساخرة. مؤمنًا منذ البداية أنه لن يحصل على ما يبغيه، وأنهم سيُرسلونه من المكتب رقم ٢٢٣ بالدور الأول إلى شُباك "ب" بالدور الثالث، ومن الدور الثالث إلى مركز الشرطة، ومن مركز الشرطة إلى المحافظة ، حيث يعلم في النهاية أن لائحة عارضة قد جدَت وعوّضته عن الشهادة ، التي كان يعتقد أنه لابد له منها بشهادة أخرى جديدة على نمط القديمة مع فارق واحد فقط، هو أنها تحتاج إلى إجراءات أخرى مختلفة !

وأمام هذا "المُهاجم" الذي يُطلقُ عليه العُرف الرسمي اسم "طالب الحاجة"(٦) - وكأن هذا العُرف يقصد إثارة عدائه سلفًا - يقف الموظف الرسمي الذي يغطّي ذراعيه عادة بكُمّين باهتين، ويرتدي حلّة اعتاد ألاّ يلبسها إلا وهو يعمل إلى أن تبلَى. وعلى جدار اللامبالاة المتمثّل في قول الموظف : "أمامي غيرك ... أتخال أنك الوحيد من أصحاب الحاجات ؟ لست أنا من يسنّ القوانين ويضع اللوائح" تنكسرُ حِراب المتحاربين واحدة إثر واحدة، يستوي في ذلك أكثرهم شراسة وأكثرهم حَمْلاً للأوسمة، لا يُغني عنهم ما يتفوّهون به من مثل قولهم : "سيبلغك أمري عن قريب يا صديقي، فما أطول باعي!"(٧)

وفي اللحظة نفسها يُخرج صاحب هذا الباع الطويل من حافظته بطاقة يقْسِمُها خطٌ أحمر، ولا يتيح الوقت لأحد أن يعرف فحواها، إلا أنها على الرغم من ذلك يكون لها أثر السّحر في الجمهور، لكأن ذراع صاحب هذا الجاه العريض قد امتدّت من فوق رأس الموظف فاخترقت الجدران وعبرت نهر السين ، إلى أن اقتحمت على الوزير مكتبه في الضفة الأخرى، فإذا هو يأمر بفصل هذا الموظف المُخطئ .

ويظل الموظف محتفظًا بهدوئه ورباطة جأشه ، آمنًا خلف شبّاكه، يحسّ في جلسته أمام صاحب الحاجة براحة تشبه الراحة التي ينعم بالشعور بها الجالسون في شرفات

المقاهى وهو يطلّون على المارة أمامهم ... بل قد يفوقهم بأنه آمن فى منطقة نفوذه، مطمئن فى داره وأمامه صندوقه الصغير المألوف. أما إذا كان الموظف سيدة فإنها تضع مكان هذا الصندوق الصغير سلة صغيرة تضم حاجياتها، كالمقص وشغل الإبرة وقليلاً من الكعك والحلوى، كما قد يستقر فيه أحيانًا طابع بريد من أقل فئة، ذلك الطابع المُحَيِّر الذى يفتقده الموظف دائمًا، ويبحث عنه متأفِّفًا فى مكانه المألوف لديه ، فلا يعثر له على أثر. أتُرى لأنى أبعث بأغلب رسائلى إلى بلاد نائية أجد أن الأجر الذى أدفعه مقابل وزنها لا يمثِّل رقمًا كاملاً من الفرنكات ؟ وهكذا تطلب إلى الآنسة أن أدفع ٩٣ سنتيما أو فرنكا واثنى عشر سنتيما مثلاً ! فإذا وُفقت إلى العثور على الطابع ذي الخمسين سنتيما فى يُسر ، ثم على الطابع الثانى ذى الثلاثين سنتيما اضطرّتْ أن تبحث عما يُكمل النقص فى حافظة زميلها، وقد تعثُر عليه فى سلّتها الصغيرة .

ومما لفت انتباهى أن للآنسات الموظفات بمكاتب البريد ميْلاً شديداً لاقتناء عُلب السّيجار الفارغة. ربّاه ... لعمري كم من معالم ومجاهل تقطعها علبة السيجار الهاڤانى قبل أن ينتهى بها المطاف إلى أن تُستخدم صندوقًا لحفظ الأدوات فوق منضدة موظَّفة فى مكتب بريد بفرنسا .

وقد يكون ثمة لوح من الزجاج يفصل بين المتحاربيْن – صاحب الحاجة والموظّف – تتخلّله على ارتفاع معين نحوٌ من عشرة ثقوب دقيقة. ولقد ظننتُ لأول وهلة أن الغرض من هذه الثقوب هو إتاحة الفرصة لتبادل قذائف السّباب بينهما، غير أن الأمر لم يكن كذلك. فقد خُرِمَتْ هذه الثقوب على مستوى لا يسمح بأن يتواجَه الفمان – فم الموظف وفم طالب الحاجة – فلا يصيب رذاذ لُعاب هذا وجه ذاك ، مما يضطر الخصميْن لأن يرفع كلٌ منهما صوته . كذلك قد تكون ثمة فتحة صغيرة عند قاعدة اللوح الزجاجى فى مستوى رأس الموظف، فيضطر صاحب الحاجة إلى طأطأة رأسه ، بحيث يصبح فى وضع أدنى من وضع الموظف .

ومن خلال هذه الثقوب وتلك الفتحات والشبابيك يقضي الفرنسي شطرًا كبيرًا من حياته لإثبات وجوده، ولإثبات أنه يُقيم بالفعل حيث هو مقيم، ولإثبات أن أولاده أحياء ولم يَقْضُوا نحبَهم بعد ! فقد تخال أن وجود الفرنسي دليل على أنه حيّ، وهذا خطأ تتردّى فيه، فهو لا يُحْسَب عند السلطات من الأحياء إلاّ بعد أن يقدّم شهادة ميلاد قبل كل شيء، ولابد له ثانيًا من شهادة تثبت أنه لا يزال على قيد الحياة . والطريف أن هذه الشهادة الثانية سرعان ما استبدلت بأخرى هي شهادة عدم الوفاة. وهذا نموذج لتلاعب الفرنسيين بالألفاظ، حتى مع تلك الألفاظ التى لا موجب للتلاعب بها .

وعلى الفرنسي بعد أن يُثبت بالدليل القاطع وضوح النقطة السوداء على الصفحة البيضاء - إذا جاز لي أن أعبّر عن ذلك بهذا التعبير الجنائزى - أنه لا يزال على قيد الحياة، أن يحصل على شيء آخر إذا ما عَنَّ له الانتقال إلى إيطاليا على سبيل المثال، وهو أن يستخرج جواز سفر. والعجيب أن رحلة الفرنسى إلى إيطاليا تبدأ من بوابة مسكنه، فهى التى تستطيع أن تعطيه للتو أو بعد حين - حسب مزاجها - شهادة الإقامة التى لابد له من الحصول عليها ؛ إذ لا يُعتد بقول أى فرنسى - وإن كان راشدًا - عن عنوانه الذى يقطن فيه . من هنا كانت حاجته إلى ختم بوابة المنزل، التى هى ومثيلاتها عيون الشرطة السّاهرة. ثم عليه بعد ذلك أن يبذل وقتًا غير قصير فى بعث ذكرياته القديمة بحثًا عن بطاقة الخدمة العسكرية، ولا تكون فى الكثير من الأحيان فى المكان نفسه الذى تركها فيه منذ عشر سنين .

أذكر أنى قد قابلت المسيو توپان ذات يوم وهو فى طريقه إلى مركز الشرطة يسعى إلى استخراج بطاقة جديدة لتحقيق الشخصية. وقد يظن الزائر الطارئ أنه لا حاجة لمسيو توپان الذائع الصيت فى حيّه الذى يقطنه منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا إلى من يؤكد أنه حقًا مسيو توپان. وقد فات هذا الزائر السّاذج أن ما خاله ليس من الحق فى شيء . فعلى مسيو توپان لكى يُثبت أنه هو نفسه هو أن يأتى بشاهدَيْن

اثنين ، يُفترض فيهما أن يكونا على صلة به منذ أمد طويل. وهذا خطأ آخر، فهذان الشاهدان اللذان يقرّان بمعرفتهما إياه لا يعرفان عنه شيئًا ما، وحسبهما أنهما معروفان لمأمور الشرطة، وأحدُهما فى العادة صاحب المقهى القريب والآخر بدّال الحى، ولهما من الاتّجار بهذه الشهادة يومًا بعد آخر مكاسب لا يُستهان بها(٨) .

هذا هو الطابع العام لتلك البلاد الوديعة، حيث تكون ابتسامة ما لها أثرها فى قلب رجل الشرطة، ثم إن فى القانون الفرنسى من الثغرات ما يمكّن من تجاوزه ، حتى ليُعدّ تطبيق القانون بحذافيره لونًا من ألوان العقوبة ! فالغاية عندهم هى الشكل والمظهر. وقد أدركت هذه الحقيقة فى اللحظة التى وطئت فيها قدماى أرض فرنسا فى كاليه ، عندما سمعت لموظف جمرك قد خدعه مسافر فارتكب مخالفتين يقول له بلهجة فكهة يتميّز بها أهل أوڤيرن : "حذار أن يقع منك هذا مرة أخرى ... فلسوف تضطرنى عندها لتطبيق القانون عليك" !

الهامش

(١) Wait encore un peu plus et de see davantage

(٢) هذا القول ثم قولهم Faites comme tout le monde "افعل كغيرك من الناس" من الأقوال المأثورة عند الفرنسيين، وكثيراً ما يتبعونه بقولهم Attendez أى "تريّث". ولكثرة ما تتردد هذه العبارة : "افعل كغيرك من الناس" على ألسنة الفرنسيين قد يخطر للمرء أن كل الناس فى فرنسا يفعلون فعل غيرهم، بينما الأمر على خلاف ذلك ؛ إذ ليس ثمة بلد فى العالم يعزف الناس فيه عن أن يكونوا مثل غيرهم كما هى الحال فى فرنسا، كما أن أولئك الذين ينادون بالمساواة سرعان ما يتصارعون فى سبيل كسب بعض الامتيازات الشخصية، كحق مرور سياراتهم قبل غيرها، أو الحصول على بطاقات الدعوات المجانية، إلى غير ذلك (ملاحظة الرائد) .

(٣) يعنينا أن نشير إلى ما أبداه الرائد من حذر حين تجنّب الحديث عن عابر الطريق الإنجليزى الذى يمنعه سلوكه السّوي بطبيعة الحال من أن يشرد بفكره وهو سائر فى الطريق (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٤) يشير المؤلف إلى الإسراف فى تعدد الأحزاب بفرنسا خلال عهد الجمهورية الرابعة (المعرّب) .

(٥) يطلق عليهم عادة اسم Ronde cuire ، بمعنى عبيد الروتين .

(٦) Postulant .

(٧) Vous aurez de mes nouvelles, mon ami ... j'ai le bras long ! .

ولا يراد بتعبير "ما أطول ذراعى" بالفرنسية ما يراد عند العامة عندنا، فهو فى الفرنسية كما هو فى العربية الأصليّة يراد به أنه صاحب نفوذ واسع لا يفلت منه شىء (المعرّب) .

(٨) ثار فى تلك اللحظة جدل كنا نلمح بوادره بين الرائد ومساعده الفرنسى، فقد لفت ثانيهما نظر أوّلهما إلى أن بطء الخدمة العامة البريطانية مما يُضرب به المثل، وأن قلة اكتراث الموظفين البريطانيين تُدانى قلة اكتراث الموظفين الفرنسيين. وهنا انفجر الرائد قائلاً : قد أتفق وإياك على كلمة "البطء" ، ولكننى لا أتفق وإياك على عبارة "قلة الاكتراث". وخير لك أن تقول السلوك المتئد. أليس ذلك كذلك؟ (ملاحظة شاهد) .

الفصل الرابع

بلاد المصافحة بهزّ اليد[1]

تُعدّ إنجلترا عند الفرنسيين وعند شعوب أخرى كثيرة هى بلاد المصافحة بهزّ اليد Shake-hands ؛ ولهذا يحرص المسيو توبان حين يلقانى فى الطريق على أن يُوقفنى برهة ليشدّ على يدى مصافحًا بعنف : لأنى إنجليزى من بلد ديْدنه المصافحة باليد، على الرغم من أنى لفتّ نظره غير مرّة للكفّ عن هذه العادة .

وفى الحق أن عادة المصافحة باليد قد اختلقها الكُتّاب الفرنسيون على الإنجليز ، فملأوا بها رواياتهم البوليسية التى تدور أحداثها فى إنجلترا لكى تكون لها واقعيتها كما يخالون. والمعروف أن عادة المصافحة بهزّ اليد هى للفرنسيين. ومثل ما قيل عن المصافحة باليد قيل عن آداب المائدة، فلقد أخذ العالم كله عن الإنجليز آداب المائدة وعَرف عنهم كيف يجلس إلى المائدة، بينما الفرنسيون هم الذين يعرفون وحدهم كيف يتخيّرون أشهى الأطعمة. وإن كان الأنجلو ساكسون هم الذين وضعوا مصطلح "هز اليد" (شيك هاندز)، إلا أن الفرنسيين هم الذين يهزّون اليد مصافحين، وقد أصبح هذا اللون الهمجي من التحية مقتصرًا على النذْر اليسير من سكان إنجلترا ، فقَلّ أن يصافح واحد منا آخر باليد ، ثم يعود إلى مثلها حتى آخر يوم من حياته .

ذكر أحد رجال الإحصاء ممن أثق بتقديراته ثقة كبيرة - لأنه ليس عضوًا فى أى معهد للإحصاء، ولأنه يذكر أرقامًا تقريبية لا يتوه معها المرء فى تفاصيل دقيقة - أن الفرنسى المتوسط الأهمية مثل المسيو توبان أو المسيو شارنليه يُضيع ما يقرب من ثلاثين دقيقة كل يوم فى المصافحة باليد .



ما أكثر ما شهدتُ فرنسيّين يأتون بحركات بهلوانية تدهش لها وسط شارع مزدحم بالسيارات ، فيُعرّضون أنفسهم للوقوع تحت عجلاتها مائة مرة، وهم ينقلون ما فى يمناهم إلى يسراهم، لا لشيء إلا ليمدّوا يُمناهم الخالية ليصافحوا بها زميلاً قد لا يأبه لهم، وقد يتركهم دون أن يصافحهم وإن دَهَمَتْهم سيارة أحيانًا .

وهذا يعنى أنه يُضيع فى المصافحة ما يُربى على سنة كاملة من عمره إذا ما بلغ الستين. ثم إن الفرنسى عامة يصافح من يعرفهم من الزوار والأقارب والأصدقاء طيلة النهار : فى التاسعة صباحًا وظهرًا فى الثانية ثم السادسة بعد الظهر، هذا إلى ما يقع منه من مصافحة لغير هؤلاء ممن لا يعرفهم. وبهذا ترتفع مدة المصافحة إلى ما يقرب من أسابيع ثلاثة كل عام ، أى ما يقرب من سنين ثلاث من حياته. وإذا ما عرفنا أن هذا الفرنسى المغرم بالمصافحة يقضى نحوًا من ثلاث ساعات يوميًا إلى مائدة الطعام وثمانى ساعات فى الفراش، انتهينا إلى أن الفرنسى لا يعيش - كما يفهم الإنجليز معنى المعيشة بمدلولها السليم - من سنيه الستين إلا نصفها. وهى لعَمرى فترة جدّ قصيرة لا تغنيه شيئًا(٢) .

ولنعد إلى حديث المصافحة التى ظلت كما هى عليه فى بلادنا منذ ألف سنة، وهى عند الفرنسيين على أنماط مختلفة، فقد تكون حارة أو دون كُلفة، وقد تكون تعاليًا أو تزلفًا، وقد تكون مراءاة أو جفاء. ومنهم من لا يظن أنه قد بلغ من المصافحة غايته إلا إذا ما اعتصر أصابع مصافِحه حتى يطحنها. وقد يمسك أحدهم بكفّك لا يرسلها وكأنه لا يريد أن يعيدها إليك. يفعلون ذلك وهم يحاجون غيرهم وكأنهم يوثّقون حجتهم. ومنهم من يترك يدك فى يده تتأجج حرارة. وقد نجد غير هذا بين المتصافحين، فمنهم من يدسّ يده بين يديك وكأنها فطيرة ليّنة مما قد تتقزّز له. وقد يمنحك أحدهم ثلاث أصابع من يده أو اثنتين، وقد يجتزئ بطرف أصبع واحد فحسب. هو على أية حال يمنحك شيئًا ما وعليك أن تتناوله. وما أكثر ما شهدت فرنسيين يأتون بحركات بهلوانية تدهش لها وسط شارع مزدحم بالسيارات فيعرّضون أنفسهم للوقوع تحت عجلاتها مائه مرة، وهم ينقلون ما فى يمناهم إلى يسراهم، لا لشىء إلا ليمدّوا يمناهم الخالية ليصافحوا بها زميلاً قد لا يأبه لهم، وقد يتركهم دون أن يصافحهم وإن دهمتهم سيارة أحيانًا .

وكنت ذات مساء أرقُب أحد النقاد المسرحيين وهو يختتم على عجَل مقالاً تترقّبه صحيفته، فإذا أصدقاء له يفاجئونه وقد اندفعوا نحوه بعد تردد باسطين أيديهم ملحّين،

ولم يكن هو أقل إلحاحًا منهم. رأيته يصافح بيده خمس مرات خلال خمس دقائق قومًا ما انقطعوا عن ترديدهم "لا عليك ... بالله لا تزعج نفسك"[٣] ، وما أدرانا أنهم سوف يتهمونه بالتجافى عنهم هذا المساء ، إذا لم يطوّح بأوراقه ويلقى بقلمه جانبًا وينهض ليصافحهم ! ذلك لأن الفرنسيين على درجة كبيرة من الحساسية فى هذه الأمور، وما أكثر ما تسمع بعضهم وهو يقول : "عجبًا ! ما باله لا يشدّ على يدى !" وما أوْلى ذلك التعس أن يستعرض كل ما فعله بالأمس، لعله يكون قد بدر منه شيء آذى صاحبه فلم يشدّ على يده على نحو ما كان يفعل، وهذا من الخطورة بمكان !

أما الإهانة التى ليست بعدها إهانة فهى ألا يتناول المرء يدًا تمتد إليه ويدعها معلّقة فى الهواء . فإذا ما سمعت الفرنسى يقول عن شخص ما : "لقد رفضت أن أمدّ إليه يدى" كان ذلك بمثابة قول الإنجليزى : "لقد سددت إليه طعنة قاتلة"[٤] .

وإذا أقام أجنبى فى فرنسا زمنًا فسرعان ما تصبح مصافحة كل يد تقترب منه عادة متأصلة فيه. فأنا الآن إذا ما عدت إلى إنجلترا أجد يدى ممتدة فى الهواء عن غير إرادة، وما يدور بخلد أى من مواطنى ما هو فاعلٌ بها. ألا ما أسوأ هذه العادة ! وإذا ما كان هيّنا عليك أن تمدّ يدك، فإنه لمما يؤذى مشاعرك أن تقبضها إليك حين لا تجد من يرغب فيها. ولقد حدث لى يومًا وأنا أجتاز ميدان جروڤنر (بلندن) أن تقدم منى إنجليزى فجاملنى بأن تناول يدى الممدودة، ولكنى بعد تأمل قلت لعل هذا من محض الصُّدفة أو لعل صاحبى أجنبى !

وفى الحق أن هذا الماء القليل الذى يفصل إنجلترا عن القارة لم يُسمّ عبثًا باسم "ذراع البحر" أو "الكُمّ"[٥]، فإنه من غير شك الذراع الفاصلة بين نهجين فى الحياة، فإذا ما عبرت تلك الفراسخ الثمانية من الجنوب إلى الشمال وجاوزت يابسة إلى أخرى ووطئت أرض إنجلترا لن تجد اليد تُمدّ لتُقبّل كما هى العادة فى فرنسا، وكذا تجد تلك الذراع التى كانت فى فرنسا دائبة الحركة مستقرّة ساكنة فى إنجلترا .

لقد تعلّم الإنجليزى منذ طفولته الغضّة أن يكون صُلب العود، وأن يعيش وذراعاه ملتصقتان بجسمه ، سواء أكان سائرًا على قدميه أم ممتطيًا صهوة جواده أم جالسا إلى مائدة الطعام. انظر إلى الإنجليزى وهو يأكل. إنك لا تكاد ترى ذراعه تتحرك، فهو يبدو وكأنه لا يأكل (ثم هل يسمًى ما يأكله أكلاً ؟!) وكأن طعامه تحمله إلى فمه يد "المخابرات" الخفية. ولو أن ثمة خريطة للإيماءات لرأيت الذرا ع البشرية ساكنة فى بورنموث، وتأخذ تتحرك فى كاليه، ثم هى تهتز فى باريس، وتدور حول نفسها فى طيش بروما ، حيث تغدو مروحة تعبّر باهتزازها عما يدور من أفكار .

وليست تحية الصباح عند الفرنسيين هى وحدها التى تبدو غريبة فى أعين جيرانهم، بل إن ثمة ما هو أشد غرابة من ذلك. فإن الإنجليزى عندما يلقى إنجليزيًا آخر يقول له : كيف حالك؟ How d'ye do? ، ولن يكون رد صاحبه بطبيعة الحال غير ما سُئل هو به، وهو "كيف حالك؟"، أما إذا لقى فرنسى فرنسيا آخر وقال له : "كيف حالك؟ Comment allez - vous ?" أخذ صاحبه يسرد عليه فى تفصيل كل ما يتصل بصحته. وقد يبدو هذا الأسلوب الإنجليزى لأول وهلة غريبًا، ولكن إذا ما تدبرنا جليّة الأمر قد يكون أقرب إلى العقل من نظيره الفرنسى . فمن الحق أن يقال إنه فى الحالة الأولى لن تجد أحدًا يُصغى إلى أحد، أما فى الحالة الثانية فقلما نجد الفرنسى يُصغى إلى رد صاحبه، فقد يكون فى صحة جيدة فلا تعنيه صحة صاحبه، وقد يكون مصابًا ببرد فلا يعنيه إلا ما يعانيه. وهاك مثلاً قد يجرى على لسان فرنسى فيقول لصاحبه : ما زلت أشكو عرق النسا .

فيقول له صاحبه : ويلاه ! أعِرْق النسا تشكو ؟ هل تعلم أنه ألمّ بساقى اليسرى كلها سنة ١٩٥١ فقصدت طبيبًا إخصائيًا غير الطبيب الأول، واعجب معى يا صاحبى ... أتدرى ماذا قال لى ؟

هذا الفرنسى الذى أصيب بعرق النسا عام ١٩٥٤ يكتم آلامه كى ينصت لهذا الذى أصابه عرق النسا عام ١٩٥١، ويمضى الحديث بينهما على هذه الحال أخذًا وردًا

وهما يتبادلان نوادرهما وحكاياتهما وحوادث السيارات وعثرات الأقدام وأحاديث العمل . ويمكننا القول إن الفرنسيين يُعنون بوجه عام بالحديث عما يقع لهم كما يعنون بالحديث عما لا يرضونه عند غيرهم ، على حين لا يُعنى الإنجليز بشئون غيرهم. وإذا كان فى طبع الإنجليز ألا يسأل بعضهم بعضًا عما يعانى بعضهم من تقرّح الجلد أو آلام المعدة أو الكبد – وهو العدو الأول اللدود لكل فرنسى – لذا لم تعد له حاجة إلى الإصغاء إلى جواب ما لم يُسأل عنه .

وما إن يبادل الفرنسى صاحبه السؤال عن صحته وعن صحه أقاربه ثم عن صحة أطفاله الذين يُريه صورهم حتى يعقّب قائلاً : "ما أبدعهم!" ثم يضيف قائلاً : "دعنى أنا الآخر أريك صور أطفالى". ثم يدعان هذا إلى السؤال عن تطور الأحوال، فيقول أحدهما للآخر : "ما الذى صارت إليه أحوالك؟"[٦] . وما أضيق صدر الإنجليزى عادة بمثل هذا السؤال الذى يعدّه تدخلاً فى شئون الناس فهو لا يسأله، على العكس من الفرنسى الذى هو دومًا أشوق ما يكون إلى تعرّف تطور أحوال صاحبه. فما أتوق الفرنسى إلى أن تقص عليه كل ما يمسّك ويمسّ أسرتك مع الإيجاز الدقيق، فتحدثه عما إذا كنت قد طلّقت زوجتك، وعما إذا كنت لا تزال مقيمًا حيث أنت، وعما إذا كنت لا تزال تعمل فى بنك كريدى ليونيه أو فى شركة التأمين المتحدة أو فى شركة البترول! وكم يعجب حين يرى أنهم لا يزالون يستبقونك فى عملك هذا طوال تلك المدة!

وبعد هذا العرض الطويل الذى لا يفوت الفرنسى خلاله أن يندب سوء حظه ويحسد الآخرين على ماهم عليه من حسن حظ، يعود فى العادة إلى الحديث عن الصحة فيقول : "وبعد ... فإنك تنعم بصحتك ... هذا لعمرى خير وأجدى ... كفى ... هيًا[٧]". وينتهى بهما الحديث إلى تلك العبارة المأثورة : "لقد آن لى أن أنصرف عجلاً. كفى. هيّا ... إلى اللقاء ... هيّا"[٨] .

ولقد سألت غير واحد من الفرنسيين عما جروا عليه من استخدام كلمة "هيّا" على هذا النحو وكأنها طقس من الطقوس، فما استطاع أحد منهم أن يبيّن لى الغرض منها. وإخالها أنها وسيلة من وسائل الانتقال الخفيّة التى يولع الفرنسى بأن يستقلّها حين يرغب أن يفارق فرنسيا آخر .

حقًا إن هذا لمن الغرابة بمكان !

ربّاه ! إنى لأسمع صفير إبريق الشاى يهتف بى ويناديني ... وياله من نداء عذب لا يستطيع أشد الإنجليز هيامًا بفرنسا أن يقاوم إغراءه. وعلىّ إذن أن ألبّى النداء. "هيّا" وحسبى الآن ما ذكرت ... هيّا .

الهامش

(١) صافحه : حيّاه يداً بيد .

(٢) ثار عندها جدل بلغ منتهاه بين الرائد ومساعده ، حتى كادت عرى الصداقة بينهما أن تنفصم، فقد قال له المساعد :

- إن لكم فى الحياة لنهجًا قاتلاً .

فرد الرائد قائلاً : إن الإنجليز ليؤثرون سلوك هذا المنهج من الحياة حتى الموت .

- وما الذى حملك إذن على أن تنزل فرنسا لتعيش بها ؟

- هذا أمر آخر ... وعلى أية حال فأنت لا يسعك إلا أن تسلم بأن الوقت الذى يقضيه الإنجليزى إلى مائدة الطعام هو دون الوقت الذى تقضونه أنتم إليها .

- إذا قيس ما تحويه أطباقكم من طعام إلى ما تضعونه من وقت فى تناوله لكان ما تضيعونه من وقت يجاوز الحد. ثم أنتم تتناولون ثلاث وجبات يوميًا ، على حين لا نتناول نحن سوى وجبتين، ومع ذلك فالإحصاءات تدل على أنكم تكتنزون طاقات حرارية أكثر .

- مردّ هذا كما هو معلوم إلى أن ما نأكل يحتوى على سُعْر حرارى أوفر .

- وما أنت قائل فى الشاى ؟

- ماذا عن الشاى ؟

- أعنى هل دار بخلدك أن الإنجليزى يشرب الشاى مع البكور فى السادسة صباحًا ومع الإفطار ثم فى مكتبه فى الحادية عشرة، ثم مع وجبة الغداء، ثم فى الخامسة وقت تناول الشاى، وأخيرًا قبل النوم، وبذلك يقضى أربع سنوات من عمره أمام إبريق الشاى ! ألا تعد هذا بدوره أعجوبة ؟

وهنا آثر الرائد وقد ثار الدم فى وجهه أن يغادر الحجرة ليهدئ من ثورته، ولم يعد إلا بعد ساعة وقد عاوده هدوؤه، وبعد أن أخذ بثأره من تطاول مساعده الفرنسى عليه بأن قصد إلى مشرب الشاى الإنجليزى بشارع ريڤولى وارتشف فنجانًا من مشروبه المفضل (ملاحظة شاهد عيان) .

(٣) Je vous en prie ... ne vous derangez Pas !

يدرك الفرنسى ما عند الفرنسى من حساسية لمن يتجاهله ؛ لهذا يبادر بمصافحته حتى لا يثير تلك الحساسية فى نفسه (المعرّب) .

(٤) I cut him dead.

(٥) معنى كلمة manche مانش الفرنسية : كُم .

(٦) Qu'est ce que vous devenez ?

(٧) Allez .

(٨) IL faut que je me sauve ... Allez, au revoir, allez !

الفصل الخامس

أعن أدب أم عن مجاملة؟

لا يغيب عن أى تلميذ فرنسى أن المسيو دانتروش قائد الحرس الفرنسى فى موقعة فونتنوا[١] قد تقدم وحده حاسراً رأسه إلى صفوف الإنجليز قائلاً : " أيها السادة الإنجليز ... لتكونوا أول من يطلق الرصاص" .

كما لا يغيب عن أى تلميذ إنجليزى أن لورد هاى قائد الحرس الإنجليزى هو الآخر تقدم وحده حاسر الرأس إلى صفوف الفرنسيين ، وصاح : "أيها السادة الفرنسيون ... لتكونوا أول من يطلق الرصاص" .

أما المؤرِّخون الدارسون لهذا القول وذاك - والذين دَيْدنهم الانقسام على أنفسهم - فيذهبون فى "تأويل" هاتين العبارتين مذاهب شتى، وهو ما تمليه عليهم نظرتهم المِهْنية للأمور. فيرى نفر منهم أن العبارة الفرنسية كان المقصود بها الفرنسيين عندما وقع بصر قائدهم على الإنجليز وقد انكشف عنهم ضباب إنجليزى لا عهد لهم به. والعبارة عند هؤلاء على وجهها الصحيح هى : "أيها السادة (يعنى الفرنسيين) ... الإنجليزى (يعنى تحذير الفرنسيين من الإنجليز) ... لتكونوا أول من يطلق الرصاص". فالعبارة بعدُ ليست خطاباً للإنجليز ، بل هى خطاب للفرنسيين .

ويرى نفر آخر أن العبارة على ظاهرها أريد بها خُدعة حربيــة مألوفة درج عليها القادة الفرنسيون حينذاك ليستنفد العدو طلقاته، وعندها يشن الفرنسيون هجومهم .

ويرى غير هؤلاء وهؤلاء - وهم جمهرة كبيرة - أن هذه العبارة الكلاسيكية تحمل ما كان عليه الفرنسيون من بسالة ومجاملة متأصلَتين .

ومن الخير أن نترك هؤلاء جميعًا جانبًا ونعود إلى قول شاهد عيان هو الماركيز ڤالفون الذى كتب :

"بعد أن وقف الضباط الإنجليز بجنودهم على بُعد ثمانين خطوة من الصفوف الفرنسية أخذوا ينظمون صفوفهم ، ثم رفعوا قبعاتهم محيّين الضباط الفرنسيين الذين رفعوا هم الآخرون قبعاتهم (ألا ما أعجب أمر هؤلاء الذين عاشوا وماتوا على تلك العادات النبيلة ! ألا ترى معى هذا؟). وهنا تقدم لورد هاى وحده وعصاه فى يده حتى إذا ما كان على بُعد ثلاثين خطوة من صفوف الفرنسيين رفع قبعته مرة أخرى ثم اتجه إلى القائد الفرنسى دانتروش مخاطبًا : "أيها السيد ... هلا أمرت رجالك بإطلاق النار؟" فأجاب القائد الفرنسى : "لا يا سيدى. لن نكون نحن البادئين أبدا" .

ولكن الشىء المؤكد على كل حال هو أن واحداً منهما قد بدأ بإطلاق النار ، وإلا لم تكن ثمة موقعة تسمى موقعة فونتنوا، الأمر الذى يفنّد الأقوال السابقة للمؤرخين. تُرى هل لهم أن يتيحوا الفرصة لرائد سابق كانت له خدمته فى الجيش الإنجليزى بالهند أن يدلى برأيه فى هذا الموضوع ؟

فى ظنى - وما أريد به أن أوذى شعور الفرنسيين - أنه قد يكون فرنسىّ ما صاح مخاطبًا جنود اللورد هاى : "أيها السادة الإنجليز ... لتكونوا أول من يطلق الرصاص" . وقد لا يكون أحد ما فى الصفوف الإنجليزية قد فهم المقصود من هذه العبارة ، فنحن نعلم جميعًا أن العالم ليس فيه من لا يتكلم الإنجليزية، وأن ما يتميز به الإنجليزى أنه فى غنى عن أن يفهم لغة غير لغته، وحتى لو أنه فهم لغة أخرى غير لغته فما يجب أن ينزل على أية حال إلى مستوى يظن به الآخرون أنه يفهم لغة غير لغته .

والدارس المحايد الحق ينتهى به استقراؤه النزيه إلى أن هذه العبارة ليست غير إحدى العبارات التاريخية التى وُضعت عمداً لا لشىء إلا لتثبّت فى أذهان تلاميذ المدارس التواريخ والموجزات التاريخية ؛ إذ إن أطول الأقوال المأثورة عُمراً وأكثرها رسوخاً فى الأذهان هى من غير شك تلك الأقوال الملفّقة من أساسها، ولاسيما تلك الشعارات الحماسية المدوّية .

والراجح أن هذا القول المأثور عن فونتنوا قد سُبك فى مسابك التاريخ الفرنسى التى تخصّصت فى صبّ وخراطة العبارات التى تجمع بين البطولة والإغراق فى المجاملة مثل : "خسرنا كل شىء إلا الشرف" أو مثل "سيدتى ... إذا كان ذلك ممكناً فقد أنجز فعْلاً، وإن كان مستحيلاً فسيُنجز حتماً"(٢) .

أما عندنا – نحن معشر الإنجليز – فإن مسابك الصُّلب التاريخية فى برمنجهام وليدز، على الرغم من أنها اشتهرت هى الأخرى بأعمال الصبّ والخراطة، فقد آثرت أن تتخصص فى ابتكار تلك العبارات التى تجمع بين النُّبل والبساطة ، مثل : "إن إنجلترا تثق فى أن كل رجل منكم سيؤدى واجبه" ، وينسبون هذا القول إلى نلسون قبل معركة الطرف الأغر، أو تلك العبارات الساخرة المتعجرفة مثل: "لن أدفع بنساً واحداً سحتاً لأعرف ماذا حلّ برفات نابليون" وينسبونه لولنجتون، أو "إن أفضل ما علّمتنيه فرنسا هو زيادة تقديرى لإنجلترا" ، وينسبونه لچونسون(٣) .

وتجد هاتان السلعتان سوقا رائجة، وتنافس كلتاهما الأخرى دون خطر. أما الغرض الأساسى من إنتاجهما فهو الاستهلاك المحلى، فلم يحدث قط أن عثرت على النص الفرنسى الخاص بفونتنوا فى كتاب من الكتب المدرسية الإنجليزية، كما لم أعثر قط على كتاب فرنسى فى التاريخ يذكر قول ولنجتون .

***

وإذا كنت قد استهللت حديثى بأسطورة فونتنوا، فذلك لأنها إذا لم تكن تمثّل فى دقة روح البسالة والمجاملة الفرنسية فهى على الأقل تمثّل الروح التى يتمنَّوْن أن يتحلّوْا بها. فنحن جميعًا نعرف حق المعرفة أنه إذا ما نشب القتال لم يكن ثمة وقت للتفوّه بمثل تلك العبارات الرنانة ؛ لأن المدفع يتكلم نيابة عن المحاربين، ثم يأتى المؤرخون فيما بعد ليضعوا الأقوال على ألسنة المحاربين.

وأبادر فأعتذر لمن يرى فيما قدمت من ملاحظات تجنّيًا على المؤرخين فإن لكل إنسان مهنته، وهم يمارسون فنهم فى حذق رائع. وقد كان صديقى وزميلى مترجم هذه المذكرات المسيو دانينوس يعمل ضابط اتصال مع الكتيبة التى كنت على رأسها خلال الحرب الأخيرة، وقد أبدى لى ذات يوم خلال أشقّ عمليات الانسحاب من الفلاندر أسفه لأن حظه فرض عليه أن يكون فى قلب المعمعمة. وقد ظننت على مضض - بادئ ذى بدء - أنه كان يؤثر أن يكون وقتذاك فى بيته. ولكن الأمر لم يكن كذلك، بل إنه بوصفه كاتبا لم يكن ليغفر لنفسه عجزه عن وصف هذه المعركة الرهيبة بنفس الروعة التى يصفها بها زملاؤه الذين لم يصطلوا بنارها. وقد يبدو فى هذا القول شىء من المفارقة، ولكنه يعبر تعبيرًا صادقًا عن الواقع ؛ ذلك لأن المؤرخ هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يستوعب الصورة العامة للموقعة الحربية، غير ملْقٍ بالاً لأولئك الصَّرعى الذين تأتى عليهم الحروب دون طائل، ثم يصبغ عباراته ويطوّعها لتساند ما يَرْويه. فالمؤرخ هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ذلك كلّه لأنه يتحرّر من هذا الأسْر الذى يشلّ حركة المحارب عندما يخالجه الخوف من صف الضابط الذى يعلوه رُتبةً، أو حتى عندما يشعر بالفزع من العدو.

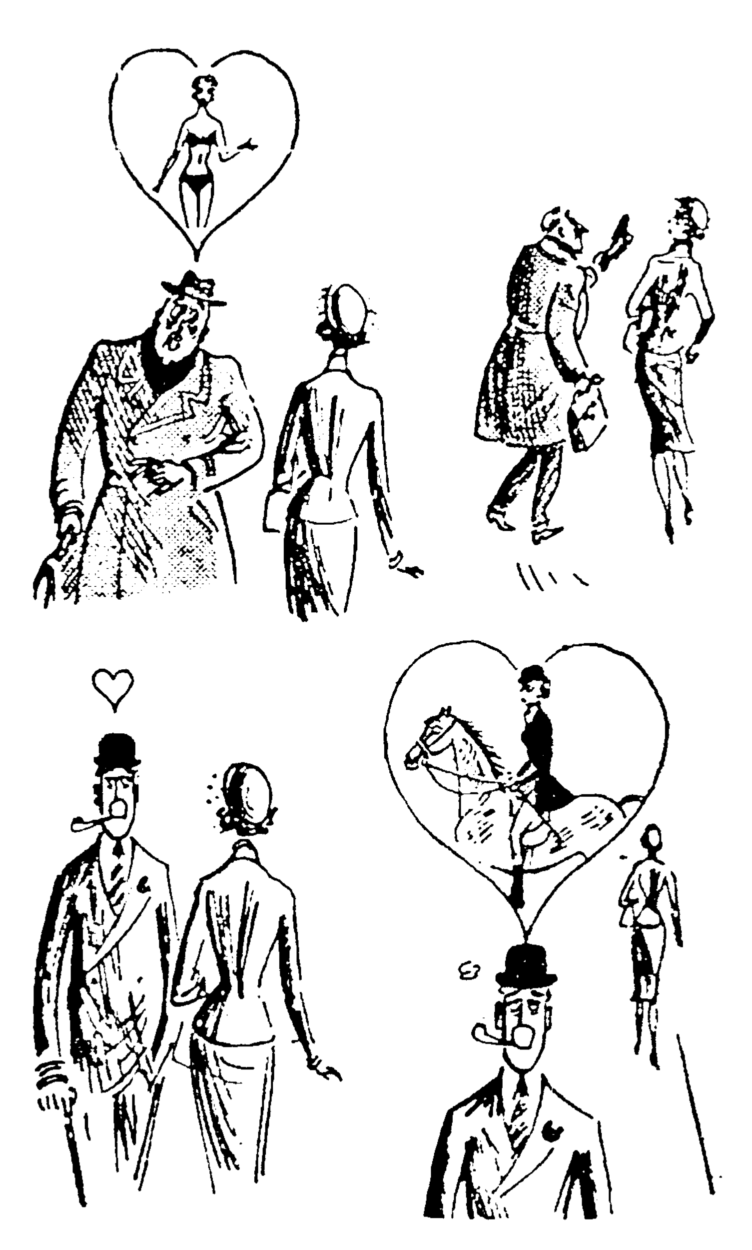
ربّاه، إن الحديث عن أولئك الذين يفصل بينهم وبين هذا الموضوع الذى يتناولونه مسافة طويلة لكى يكونوا أقدر على معالجته قد خرج بى عن موضوعى. فَلأَرجع من جديد إلى موقعة فونْتنْوا. لقد بتّ أميل آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن عبارة : "أيها



إن عبارة : "أيها السادة الإنجليز، فلتكونوا أول من يطلق الرصاص" فى الزمن الذى كانت تراعى فيه آداب القتال هى الصيغة التاريخية للعبارة الفرنسية الأصلية : "تفضل أولاً" .

السّادة الإنجليز، لتكونوا أول من يُطلق الرصاص" هى الصيغة التاريخية للعبارة الفرنسية الأصلية : "تفضّل أوّلاً"(٤) .

إن هؤلاء القوم الذين لا يأكلون وأذرعهم مُثبتة إلى جوانبهم ولا يكفُّون عن الإيماء والتلويح بالأيدى وهم يتحدثون، ويتكلمون وهم يأكلون وغالبًا عمّا يأكلون، ولا ينتظرون إلى أن تغادر السيدات المائدة ، بل يسارعون منذ البداية مع تقديم الحساء إلى رواية القصص الماجنة فى حضورهن، ويعتقدون أنهم مُلْزَمون بمغازلة زوجتك، ويشعرون أنه من غير اللائق أن يصلوا فى الثامنة والنصف ، إذا كانوا مَدْعُوين فى الساعة الثامنة والنصف ، ويتبادلون العناق علنا ويُقبّل رجالهم بعضهم بعضًا، ولا يكفّون أبدا عن أن يستوقفوا صديقًا لهم فى عرض الطريق ليحدّثُوه طولاً . وإذا ما قصدوا الريف دأبوا على مناجاة الأشجار لما فى طَبْعِهم من غريزة الثرثرة، ولا يخطر ببالهم أن يقدّموا إلى المرأة مقعدها عندما تجلس إلى مائدتهم، والذين ما أسرع ما يُبيحون لأنفسهم إلصاق تُهمة القتل بقاتل قيل إنه قتل أربعة أشخاص ، على الرغم من أن الشرطة لم تصل بعد إلى إثبات التهمة عليه! ويتحدثون إلى مَن لا يعرفونهم ، ولاسيما فى القطارات ، دون أن يكون ثمة داع إلى هذا الحديث، والذين لا يعرفون كيف يُعِدُّون الشاى ولا يُلِمّون بشىء عن لعبة الكريكت، ويحاولون دائمًا تخطّى دوْرهم فى صفوف الانتظار، ويعدّون الاندفاع بسياراتهم فى الاتجاه الممنوع من الطريق من بين المغامرات الأثيرة، ويخرجون إلى الطريق دون مظلاتهم بحُجّة أن الجو غير ممطر، ويتهمون صراحة فى صحفهم لوردًا من لُوْرداتنا أنه شاذ جنسيًا ، وكان أوْلى بهم أن يكتبوا عنه ببساطة أنه يتعقب الفتيان، ويحاولون النفاذ من بين أبواب المترو المغلقة آليًا . وهم حين يذكرون رجلاً ما يتحدثون عن عشيقته قبل زوجته، ويسخرون من قدمى رئيس جمهوريتهم إذا كانتا ضخمتين ، ولا يكتفون بذلك ، بل أيضًا من قدمى زوجته! ويستخدمون أعواد تنظيف الأسنان وهم جالسون حول المائدة ، الأمر الذى قد لا يلحظه أحد لو لم يرفع



إنجليزى وفرنسى لقيا حسناء فى الطريق (رسم نفسانى تصوير البروفيسور ولتر جُوتز) .

كل منهم يده اليسرى يستر بها فمه ! وإذا أخطأوا فى طلب رقم بالتليفون يُسارعون فيعيدُون السَماعة إلى موضعها بدلاً من أن يعتذروا . وهم يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب أيام الآحاد، باستثناء نفر من سكان مدينتى ليون وبوردو ، الذين لا يزالون يحتفظون فى قرارة أنفسهم بأثر من آثار احتلال بريطانيا لمقاطعة أكيتانيا .

هل نحن بعد هذا على استعداد لأن نقول إن هؤلاء القوم مُتَحضّرون أو على الأقل مهذّبون، كما تعنى هاتان الكلمتان فى الإنجليزية، وهو المعنى الصحيح المراد ؟

ولعل قولى السابق تُؤيّده مَعْرفتنا بسلوكهم مع النساء. فإن الإنجليزى حين يلقَى فى الطريق سيدة جميلة تُغرى بالنظر إليها، لا ينظر إليها إلاّ نظرة عابرة ولا يدير رأسه قط، فحَسْبُه ما قرّ فى عينىْ مُخيلّته على نحو متحضّر مهذّب. وحين يلْقَى الفرنسى امرأة جميلة يُصوّب نظره أوّل ما يصوب إلى ساقيّها ليتبيّن ما إذا كانت حقًا جميلة كما يدل مظهرها. ثم هو لا يلبث أن يُتابعها متأملا ليُشبع نظره منها ويتملّى بحُسْنها، وقد يتبيّن له - بَعْدُ - أن طريقها الذى تمضي فيه هو طريقه أيضًا(٥) .

تُرى هل الفرنسيون متحضّرون مهذّبون بعدُ ؟

إنهم على الأرجح يجمعون بين الإفراط فى المجاملة والجرأة فى الإقدام. وإن المرء لا يسَعه مع ذلك إلاّ أن يُنْصفَ هؤلاء الفرنسيين فيقول إنهم أصحاب القول المأثور : "تفضّل أنت أولاً، فليس لي أن أتقدّم إلا فى إثرك"(٦)؛ ذلك لأن الفرنسيين الذين يُضيعون جانبًا ملحوظًا من يومهم كما رأينا فى المصافحة، يُضيعون أيضًا قدرًا غير قليل من الوقت فى دعوة بعضهم بعضًا إلى دخول منازلهم، فيلحّ أحدُهم على الآخر أن يدخل أولاً، ويُقْسم الثانى أنه لن يدخل إلاّ بعده، فيقول الأول : "وأنا الآخر لن أتقدّمك" ..

وعلى هذا فقد ضيّع الفرنسيون منذ أيام شارلمان حتى يومنا هذا ما يقرب من قرون ثلاثة واقفين فوق عتبات بيوتهم حتى أصبح من الغرابة بمكان أن تجد أحدًا منهم

فى داره. ولقد تبيّنت فى تلك الجاذبية التى تشدّ الفرنسيين إلى عتبات دورهم شيئًا عجيبًا، فهم لا يكادون يبلغون منازلهم حتى نسمعهم يقولون لأصحابهم بأسلوبهم الفريد : "إلى اللقاء" ، وهم حريصون على ألا يفترقوا ، وهذا ما لا نجد له مثيلاً فى سائر أنحاء الكومونولث ولا فى أى مكان آخر من العالم على ما يبدو. فالفرنسيون فى تلك اللحظة التى يعتزمون فيها الافتراق بعد حديث قد يدوم ساعتين، تعنّ لهم فجأة أمور كثيرة من الأهمية بمكان فلا يرون بُدًا من البقاء لسردها. وهذا شبيهٌ بما تفعله النساء عندما يتحدّثن فى التليفون، فإذا قالت واحدة منهن : "إلى اللقاء" فتلك إشارة إلى امتداد المحادثة إلى ما لا نهاية، وإذا هُن يتبينَّ فجأة أن ثمة أشياء لا تُحْصَى تُغري بمواصلة الحديث . فما زلت أذكر يوم عودتى إلى فرنسا بعد غيْبة طويلة عنها قضيتُها فى مُهمّة ببلاد ما بيْن النهرين، وما زلت أذكر كذلك كيف خُيِّل إلىّ يومها أنى أعانى نوعًا من الهذيان أصابنى فجأة حين وجدت صديقى القديم المسيو توپان على الحال التى تركته عليها منذ شهور ستة ... كان واقفا على عتبة بابه وما زال يقول للمسيو شارنليه "إلى اللقاء" ! ولقد اعتدتُ رؤية السّراب لطول ما خدمْت بالصحراء ؛ ولذا لم أستطع أن أُصدِّق عينى بادئ الأمر، فاسترقتُ الخطى إليهما فرأيت المسيو توپان يتراجع بضع خطوات إلى الوراء ملوِّحًا بذراعيه فى الهواء، ثم يتقدم صوب المسيو شارنليه ويُمْسكُ بياقة معطفه، ويمضى يهزّه إلى الأمام وإلى الخلف ، مما يجعل أى إنجليزى يظن أنهما على وشك أن يتبادلا اللكمات ! وثار الدّمُ فى عروقى العسكرية بوصفي رائدًا وتحفّزت للفصل بينهما، غير أنى سرعان ما سمعتهما ينفجران ضاحكيْن. ولحظتها فطنا إلى وجودى فصاح المسيو توپان : "يا إله السموات ... صديقنا الرائد طومسون يعود إلينا. يالها من مفاجأة!"

هنا فقط أدركت أن عينىّ لم تخدعانى، وسرعان ما طلب منى المسيو توپان أن أدخل، أما المسيو شارنليه فقد انضم إلينا بعد أن قال : "إلى اللقاء"، ثم لحق بنا بعد أن فكَّر مليا كى يشترك معنا فى ثرثرة وديّة قصيرة(٧) .

الهامش

(١) Fontenoy معركة انتصر فيها الجيش الفرنسى بقيادة الماريشال ده ساكس على الإنجليز والهولنديين عام ١٧٤٥ .

(٢) هذه عبارة "كالون" لمارى أنطوانيت (المعرّب) .

(٣) نشبت عند ذكر هذه العبارة مشادة عنيفة بين الرائد والمترجم الفرنسى الذى أضاف فى كياسة : "إن ما أستمتع به من أحاسيس عندما أكون بعيداً عن فرنسا هو ما يراودنى من أنى آخر المطاف سأعود إلى وطنى" (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٤) Aprés vous, je Vous en prie أرجوك بعد حَضْرتِك .

(٥) وهذا من الأمور المقطوع بها لا المُحتملة .

(٦) Aprés vous, je m'en ferai rien.

(٧) Un petit brin de causette.

الفصل السادس

الكونت رينوُ ده لاشاسُلْيير[1]
يتراشقه نفرٌ بألسنتهم

يملك الإنجليز سلعتيْن على حظ كبير من القيمة ، وهما الصوف النقى والصّمت ! فلا شىء يعدل الكثافة الرَّخوة لهذا الصوف عندهم إلاَّ نُبل صَمْتهم المتأصّل. وإنى على استعداد لأن أقدّمَ عشر زجاجات من الويسكى إلى أى مستكشف يقع فى العالم على نوع من الصّمت يشبه هذا الذى يحيك خيوطه فى ناد بشارع سان چيمس بلندن ما يقرب من خمسة عشر رجلاً من صفوة المجتمع وقد جلسوا على مقاعدهم الوثيرة فى استرخاء يطالعون صحيفة التايمز ! إنه صمتٌ يمكنك معه أن تسمع صدى خفّة يَد ملك النّشالين وهو ينشل ضحيّته ؛ ومن ثم كان على الفرنسيين الذين يُقرُّون عن طِيب خاطر بأن السُّكوت من ذهب أن يعترفوا دون حَرج أن إنجلترا وطَنٌ على درجة كبرى من الثراء. وسكوتنا - نحن الإنجليز - لا يتجلّى إلاّ ونحن نتحدّث، وهذا دون شك هو السبب الذى يجعل الوافدين إلينا يلقون عناء كبيرًا فى فهمنا. ياللشيطان ! أَنَّى لنا أن نفهم كيف يجمع هؤلاء الإنجليز بين السُّكوت والحديث معًا !

لعلهم أُوتوا القدرة على هذا بتعثّرهم فى حديثهم الذى يجزءونه تجزيئًا ولا يواصلونه، فتسمع إلى أحدهم يقول : آند (and) ثم يتمهّل قليلاً ويعود فيقول : إيه (eũh)، ثم يتمهّل قليلاً .... وهكذا. وهذه اللازمة فى حديثهم التى تَشيعُ فى حواراتهم الصّامتة ، والتى هى بمثابة اللُّحمة فى نسيج حديثهم تُعدّ من أقدم التقاليد البريطانية وأعرقها .

وقد يتحدّث الإنجليزى بين الحين والحين إلى جَمْعٍ، وقد يكون بين الإنجليز مَنْ هو ثرثار – وهذا محتمل – ولكنه فى هذه الحال يكفّ عن الحديث ؛ لأنه سرعان ما يدرك أنه ليس ثمة من يُجِيبُه بغير الهَمْهَمة، فإذا هو يتولّى الإجابة على نفسه. وقد يخال الأجنبى حين يستمع إلى واحد ممن يجزءون الكلام تجزيئًا أنه يستمع إلى حوار يدور بين اثنين. أما الإنجليزى المهذّب – وأعنى الإنجليز عامة – فإنه فى مثل تلك الحال سرعان ما يتوقف عن الحديث، وتسود فترة صمت، ثم يُطلق من أعماق جوفه صوتًا غليظًا لا يتعدى : "آند ... إيه" .

ومن عادة الشعوب عامة أنهم إذا استمعوا إلى لفظة "إيه" ترقّبوا للحديث بقية، ولكن الأمر عند الإنجليز مختلف، فما من شك فى أن لحديثهم بقية ، ولكنها لا تأتى، فهى فى طىِّ الغيب، ولكن أنّى لهذا الغيب أن يطالعنا بها ! وذلك هو منتهى "التحفّظ" عند الإنجليز، وما هذا المظهر إلاّ صورة مُجسَّمة لما عليه الإنجليز من حرصٍ على التكتّم .

ولكن هل معنى ذلك أن الإنجليز لا يتكلّمون ؟

بلى ... إنهم من المؤكد يتكلّمون، ولكن على نحو غير النحو الذى يتكلم به الفرنسيون. ففى فرنسا حيث يتألق شأن المرء إذا كان مُحدّثا لبقًا، يعدّون الرجل الذى يلزم الصّمت أشبه بمن ينتحر اجتماعياً ! أما فى إنجلترا فإن فن الحديث يتطلّب من الإنسان أن يجيد الصَّمت، وبذلك يُقاس تألق المرء بمقدرته على ألاّ يحاول أن يتألق ! ولنضرب لذلك مثلاً بالحديث عن الطقس .

قد يكون الفرنسيون أساتذة الحديث ، ولكنهم يبدُون أغرارًا إذا ما تحدثوا عن الطقس ، على حين برع الإنجليز فى هذا الميدان وأصبحوا فيه سادة ليس لهم مُنازع. ولكن علينا أن نقرّ للفرنسيين بأنهم لم يحاولوا أبدًا أن ينافسوا جيرانهم فى هذا الميدان . فلو دار الحديث فى فرنسا عن المطر والجو الصّحْو كان معنى هذا الاعتراف بأنه ليس ثمة حديث آخر يمكن أن يأخذُوا فيه. أما فى إنجلترا فإن الحديث عن المطر

والجـو الصّـحـو واجب مـقـدس، ودليلٌ على حُـسْن الخُلق والتـربيـة، ولكى يكون المرء إنجليزيًا حقًا عليه أن يعرف أولاً كيف يتحدّث عن الطقس : عن الطقس اليوم وأمس، وعن الطقس الذى قد يكون غداً. إن ثمة كلمة غالبة تتردّد أكثـر من أية كلمة أخــرى فى الحديث، كلمة أساسية، كلمة لازمة هى كلمة الطقس : الطقس المطير ... الطقس الغـائم ... الطقس الموحش ... الطقس العـاصف ... الطقس غير المتوقّع . ومـا أدرانا فلعل الطقس وُجد منذ بَدء الخليقة ليتيح للإنجليز الفرصة للحديث عنه ؟ أجل ... فليس ثمة بلد غير إنجلترا يكثُر فيه الحديث عن الطقس على هذا النحو. وما أدرانا أيضًا أن رداءة الطقس فى إنجلترا هى التى حفَزتْ أهلها إلى أن يَشغلوا أنفسهم بالحديث عنه ؟ ثم ما أدرانا أن إسرافهم فى استخدام مصطلحات الأرصاد الجوية فى وصف أحوال الطقس هى التى أفْسَدَتْ عليهم طقسهم !

ولكن لنا أن نقـول إن هذا ليس وحـده الفـرق بين الإنجليـز والفـرنسـيين حين يتكلمون. فعلى حين يبالغ الفرنسيون فى وصف ما هو تافه من الأحداث يُهَوّن الإنجليز من أعظم النّكبات شأنًا . فقد يُدعى الفرنسى إلى مـأدبة فلا يوافيها فى موعدها ، بل يتخلّف عن الموعد ساعة فإذا هو يشغل سهرته بالحديث عن تلك المغامرة التافهة. وقد يُدعى الإنجليزى لمثلها، ولأمر ما خارج عن طاقته يصل متـأخراً بضع دقائق لانهيار سقف بيته، وعلى الرغم من هذا يوجز فيقول إنه تأخر لطارئ عارض(٢) .

والناس فى إنجلترا لا يكشفون فى مجتمعاتهم عن الحقيقة فتبدو عارية (وهذا لا شك من مظاهر نفاقنا البيّن)، أما فى فرنسا فكلما كانت الحقيقة أقرب إلى الصراحة الجارحة كانت أقرب إلى التصديق .

وهم فى فـرنسـا على العكس منّا ، يُوغلون بنَهمٍ وشـراهـة فى شـئـون جـيرانهم الخـاصة وينغمسون فيها دون كُلْفة، وكلما كان المرء بذىء اللسان كان قوله مُصَدَّقا ، على حين نتجنّب نحن فى إنجلترا الإشارة أو التلميح علنًا إلى ما يَمَس الحياة الخاصة للمرء .

وإنى لأعلم حقًا أننا لا نتّصف دومًا بالرقّة والحنان، كما أعلم أيضًا أن قسوتنا المأثورة قد جعلتنا – لا سيما عند خط العرض الجنوبى الذى يبعد ١٦ درجة عن خط الاستواء – نرتكب بعض التّصرُّفات البَشِعة(٢)، وأعلم أيضًا أن الناس فى إنجلترا – كما هى الحال فى البلاد الأخرى – يميلون إلى النميمة والإفاضة فى ذكر الفضائح، فقلما تتّفق امرأتان إلا إذا كان ذلك على حساب ثالثة. هذا إذا استثنينا بعض شعوب القارة الأوربية التى ما تزال على همجيّتها الأولى. فما أعلم شيئًا أشدّ قسوة مما يدور فى قاعة استقبال فرنسية، وهاكُم تلك القصة الغريبة عن الكونت رينو ده لاشاسلِيير نموذجًا لهذه القسوة .

فلقد دُعيتُ يومًا لتناول العشاء عند آل "بوشيه"، وكان هناك ما يقرب من عشرة أشخاص يتحدّثون فى بداية الحفل عن أمور مختلفة من هنا ومن هناك. وحين



حفل تشريح الأحياء بقاعة الاستقبال (على نهج لوحة الفنان رمبرانت الشهيرة : درسٌ فى التشريح) .

أخذنا نتناول "الحساء" مَضيْنا نُنَاقِشُ بعضنا بعضًا فى أمور السينما، حتى إذا ما أخذنا نأكل "السّمك" انتقل النقاش إلى مذهب الوجودية. وإذ فرغنا من هذا الموضوع وأخذنا فى أكل "الدجاج" إذا النقاش ينتقل إلى الحديث عن جامعة الدفاع الأوربى. ومع "السَّلَطَة" دار النقاش حول الأقطاب الأربعة. فإذا ما انتهينا إلى الحلوى أخذ النقاش يدور حول الأطباق الطائرة، فما أسرع ما يتنقّل الحديث عند الفرنسيين، فإذا هم ينتقلون بك من الحديث عن القنبلة الهيدروچينية إلى الحديث عن باليه رولان پيتى[٤]، ثم سرعان ما يقفزون بك من الحديث عن الكرملين إلى الحديث عن فضائح ثرى من الوُجهاء. وما أيْسر على رائد فى جيش الهند من أن يطارد نمرًا فى أدغال البنغال عن أن يُتابع هذا التَّنقُّل السريع فى أحاديثهم. ويا لهم من رُماة مهرة بارعى التصويب ! إن صديقى الكولونيل بازيل كرانبورن[٥] ببندقيته الونشستر ٣٧٥ والذى كان يُعدّ من أمهر الرماة فى أسام قد يعجز عن بلوغ تلك النتائج الباهرة التى يُحْرزها الفرنسيون، والويْل لمن يقع تحت وابل نيرانهم ؛ إذ لا فكاك له .

وعلينا إذا تحدّثنا عن الأمور كما هى، أو بعبارة أدق كما وقعتْ، أن نذكر أنه فى الساعة العاشرة والنصف بدأ حصار الكونت رينو ده لاشاسُلِيير فى قاعة الاستقبال. عندها كان الكونت الغائب – حسبما أعلم – لا يزال كامل البنية، وكان الكونت يشغل منصبًا خطيرًا بوزارة الخارجية، كما ترامى إلىّ أنه قد أبلَى بلاء حسنا فى أثناء الحرب .

وفى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين أطلق المسيو بوُشيه طلقة مدفع أطاحتْ بتاج الكونت حين قال : أتعلمون أنه على غرارى – سواء بسواء – لا يحمل لقب كونت كما لا أحمل أنا ؟؟

وما جاوزت الساعة العاشرة بأربعين دقيقة حتى لم يعد يُدعى "ده لاشاسليير" – وهو اسم مكان قريب من مسقط رأسه فى سولونىْ – وإذا الأمر يتضح أنه قد خلع هذا اللقب على نفسه وبقى لاصقًا به[٦]. وإذا هو بعد هذا لم يبق له غير اسمه المجرد

"رينو" ! وهنا انبرى رامٍ من الرُّماة يعقّب قائلاً : بل حتى اسمه المجرد Renaud الذى ينتهى بحرف D هو فى الحق Renault الذى ينتهى بحرفى lt ![٧]

فعقّب ضيفٌ قائلاً : لكأن اسمه يطابق اسم سيارة رينو Renault الرّخيصة قوة أربعة أحصنة !

وأجمع الحاضرون على ما قال، وانبرى البارون الأصيل ده لُوْم يقول فى امتعاض : عجبًا !

وفى العاشرة وخمسين دقيقة كان المدعوون قد اقتطعُوا من الكونت أعضاء كثيرة، وهذا حين أعلن ضيفٌ عليم ببواطن الأمور أن الكونت لم يلتحق بوزارة الخارجية إلاّ بمحض الصدفة ، دون أن يجتاز امتحان المسابقة الذى يُعقد لهذا الغرض .

وفى العاشرة والخامسة والخمسين إذا صوتٌ مُدوٍّ على لسانٍ ماكرٍ لإحدى السيدات أشبه ما يكون بعيار نارى أصاب الهدف. وكان هذا حين تمتَمَتْ قائلة : ثم إن زوجته الكونتيسة تنتمى هى الأخرى إلى طبقة العامة !

وفى إثر هذه الطلّقة الماكرة تدفَقت النيران المساعدة التى أطلقها مدعُو لم يكن قد تفوّه من قبل بكلمة. فإذا هو يُطوّق الكونت بنيرانه من الخلف - لو جاز لى أن أستخدم هذا التعبير - فيقول : ثم إن أطفاله الأربعة الذين يُعزون إليه ليسوا له ! وما أوْلانا بعد هذا أن نكفّ عن الحديث .

وما أدرى ما الذى دفعنى إلى المشاركة فى هذا النقاش، قد يكون مرجع هذا إلى تلك العادة الإنجليزية العريقة التى تجنح دومًا إلى إتاحة فرصة للمغلوب على أمره خلال المعركة. فلقد رأيت أن ألقى بطوق النجاة إلى الكونت، وإذ كنت أعلم بلاءَه الحَسَن خلال الحرب طرحت هذا السؤال :

- ولكن ... ألم يؤد واجبه فى الحرب خير الأداء ؟

فانبرى أحدهم يقول : فى الحرب ! لم يفعل غير ما فعله سواه ... ثم ... إلى أى شىء ترمى ؟

وما أظن إنجليزيًا أيًا كان يغفر لى هذا الشَّطط حين أهجتُ أُوار الحديث ثانية، وما يسعنى إلاّ الأسف لهذه المرة الوحيدة التى استبدّ بى فيها النَّزق فخُنت لُغتى الأم : الصَّمت .

وعندما دقَت الساعة الحادية عشرة كان الكونت رينو ده لاشاسليير قد أُجْهِزَ عليه وسقط مُحطّمًا مُهَشّمًا .

حقًا إنها لقصة تدعو إلى الأسى، ولكن وَقْعها قد يكون أقل أسى إذا ما عرفنا أنه فى هذه الساعة نفسها، وعلى بُعد كيلومتر واحد من هذا المكان، كان الكونت رينو ده لاشاسليير مجتمعًا مع بعض أساطين فن تشريح الأحياء المشهورين فى حفل تشريحى شبيه بالحفل الأول ينزعون فيه عن البارون دِه لومْ وآل پوشيه وغيرهما أعزّ ألقابهم، حتى إذا ما كاد الليل ينتصف لم يبق لواحدٍ منهم لقب .

الهامش

(١) Renaud de la Chasseliére.

(٢) Slight disturbance أو Leger contretemps وهى عبارة من عبارات كثيرة مثلها يتميّز بها أسلوب التهوين الأثير عند البريطانيين. وأذكر أن الرائد طومسون قد قال لى ذات مرة غداة اليوم التالى لأعنف الغارات الليلية خلال الحرب وهو يبتسم : لقد أمضينا بالأمس ليلة حافلة بالترويح (هامش المترجم الفرنسى) .

(٣) ترى هل أراد الرائد أن يشير إلى جزيرة سانت هيلانه أو إلى حرب البُوير أو إلى جزر فيجى، فثلاثتها تقع على خط عرض واحد ؟

وفى الحق كم حاولت جهدى بلا طائل فى إقناعة بأن يكون أقرب إلى الدّقة (هامش المترجم الفرنسى) .

(٤) Roland Petit مصمم فرنسى شهير لرقصات البالية كما يدير فرقة باليه خاصة به (المعرّب) .

(٥) حامل أوسمة C.S.I و B.E و V.C.، وضابط سابق فى كتيبة بنادق بورما السبعين (هامش الرائد) .

(٦) مثلما فعل الرئيس الفرنسى السابق ڤاليرى چيسكار، حين أضاف إلى اسمه اسم مسقط رأسه Estaing فصار D'estaing (المعرّب) .

(٧) كلمة Renaud لا تكون فى العادة اسمًا لشخص من الأشخاص ؛ إذ هو اسم لثعلب أسطورى وَرَدَ فى "قَصص الحيوان الأسطورى" فى العصور الوسطى، وإذا ما أطلق اسم رينو على الأشخاص انتهى بحرفى lt . ولعل ما جاء فى النص مقصود به أن الكونت قد جعل اسمه منتهيًا بحرف d لكى يضفى عليه ما يوحى بعراقة أصله (المعرّب) .

الفصل السابع

قوانين الضّيافة
وفن طهْى الأطعمة الشهية

قد نعدُّ الفرنسيين أكثر الناس إكرامًا للضيف على شريطة ألاّ نسألهم أن يستضيفونا فى دُورهم، ولكن ما أحبَّ إلى أجنبى عابر أن ينزل على أسرة فرنسية. وكم جهدتُ أن أحقّق لنفسى هذه الأمنية حتى اهتديت إلى أن خير وسيلة لبلوغ هذا الهدف هى أن يستقر المرء فى البلد فترة، وأن يوفَّق إلى فرنسية ترتضيه زوجًا ويغدُو ربّ أسرة. وهذا ما فعلته، فإن لم يفعل هذا فعليه أن يمتهن مهنة مُربية أطفال لقاء طعامه وإيوائه. وإنك لمؤمن معى بأن مثل هذه المهنة لا تليق برائد، وأى رائد ؟ رائد بريطانى ! حتى وإن كان ممّن يرتدون الكيلت[1] !

والإنجليزى قد يدعوك إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى منزله الريفى ولمّا تمض ساعة على معرفته بك. على شريطة ألاّ تكون على حظ من الذكاء أو الفضول الكثير ، وسترى بعد مرور سنين خمس أنك لم تعرف عن هذا الرجل الذى استضافك شيئًا، أهو يأنس للإناث أم يأنس للذكور، أم هو شغوف بجمع طوابع البريد ؟ أما الفرنسى فيروحُ يُحدّثك عن شئونه الخاصة ولمّا تمض على صلتك به ساعة أو بضع ساعة، فيروى لك ما كان بينه وبين زوجته من وئام ثم افتراق ، وكيف حدث هذا ولماذا، وإذا هو يُسِرّ إليك خلال حديثه إليك : "كم هى لطيفة ... إنها ملاك ... ولكنك لَتَعْلم كيف تسير الأمور !" (ترى أنَّى لى أن أعلم كيف سارت الأمور بين هذا الفرنسى وزوجته ؟)، وقد تمضى سنوات عشر دون أن يدعوك لتقضى ليلة واحدة تحت سقف داره !

وحين قصدت مدينة ليون للمرة الأولى قال لى المسيو توپان "حذار . إن المجتمع فى ليون مُغلق، ولكن عليك بالصبر. فحينما تصبح معروفًا بعض الشىء ستُفتح لك الأبواب فى كل مكان". وقد ذكَر لى على وجه التحديد أن حديثه مقصور على أهل ليون فحسب، ولكنه ما لبث أن أفْضَى إلىّ بمثل هذه النصيحة عن أهل بوردُو وليلْ ومرسيليا، وكذا أهل مَزامِيه التى يُسبغون عليها أهمية كبرى غير جديرة بها. وكان محدّثى يؤكد لى فى إصـــرار أن لكل بلد طابعـــه، فـــلا يُغنيك أن تعـــرف پاريس وروبيـــه وتولوز وَكرْكَاسُون، فأنت ســتظل على جَهْلٍ بفرنســـا إذا لم تعرف بلدة "برسبان - سور - أرنيت" - أقصد مِزَاميه عاصمـــة الخِراف والجـــوارب الصُّوفيـــة. فـقد قيل لى فى هذه البلدة كـمـا قيل لى فـــى غيرهـــا وأنا أسيـــر أمـــام المنازل الخاصـــة المهيبـــة ذات الواجـهات العـابسة : "لسوف ترى عندما يألفـــونك أنهـــم يســـتقبلونك كواحـد منهم" .

وثمة حلقة مُفرَغة تعُمُّ هذه البلاد جمعاء، فهم لن يستقبلوك قبل أن يعرفوك، ولن يعرفوك قبل أن يستقبلوك[٢]. والأمر الرئيسى فى هذه المجتمعات المغلقة هو أن تحاول النّفاذ إليها ولا "تبقى خارجها حبيسًا[٣]"، وهذه العبارة شائعة على ألسنة أهل إقليم ليموزان حين يصلون بيوتهم وقد أُنسوا مفاتيحها[٤] .

ترى كم ستطول فترة اختبارك وبقائك تحت المراقبة، وما أوْلاها أن تسمى فترة "الحضانة" ؟ وما بقدرتنا أن نحددها تحديداً قاطعًا؛ فيرى البعض أنها قد تطول أشهراً ستة وقد تمتد إلى سنة، وفى هذا القول ما فيه من تهوين بتلك الفترة، فقد تمتد إلى سنوات عشر أو عشرين. وما أجدرنا أن نُمهل تلك الفترة إلى أن نرى الجيل اللاحق على سلّم الحياة داعيًا ومدعوًا، وإذا هو آخر الأمر يصبح منغلقًا على نفسه .

ولكن علىّ أن أُسلّم بأنه ثمة فرق بين أهل الريف الفرنسى وأهل پاريس. فأنت إذا ذهبت إلى الريف سرعان ما يُحذّرونك بأن مجتمعَه مغلقٌ أمامك تمامًا، ويضربون لك أمثلة مختلفة، فيذكرون قصة رجل أعمال وفد من وسط أوربا وإذا هو يُحاصر مدينة

بوردو أعوامًا سبعة ولم يجدْ منفذًا يتطرَّق من خلاله إلى مجتمعها، أو يسردُون عليك قصة الأسرة التى هجرت وهران بالجزائر إلى ريف فرنسا فإذا هى الأخرى تتلبّث نصف قرن قبل أن تُفتح لها أبواب هذا المجتمع الريفى، وإذا هى تصبح آخر الأمر بدوْرها أسرة مغلقة. وما عليك إلاّ أن تلوذ بالصبر، فلسوف تُفتح لك الأبواب فى النهاية .

وأما عن پاريس فإنك لن تلقى مَنْ يدعوك إلى بيته أبدًا، فغاية ما يفعله الپاريسى أن يصحبك إلى مكان خارج داره. وكم يكون موقف الباريسيين غريبًا حين ينتهى إليهم أن آل "نيكلسون" أو أن آل "مارتينيز" الذين يمتّون إليهم بالصداقة قد نزلوا باريس ! ولقد واتتنى الفرصة حين كنت فى ضيافة آل " دانينوس" فإذا التليفون يحمل إليهم نبأ وصول آل "سڤنسون" بين لحظة وأخرى إلى پاريس. وآل "سڤنسون" هؤلاء هم الذين استضافوهم فى ستوكهولم خمسة عشر يومًا ! ولقد هالنى من آل "دانينوس" تشبيههم هذا النزول بـ "الغزو" !

***

فما كان أية كارثة تثير فزعًا بين أفراد أسرة دانينوس كما أثار خبر هذا الغزو. وإذا أنا أسمع واحدًا من الأسرة يقول : مُتأفّفًا "علينا إذن أن نذهب بهم إلى كل مكان؟" وكأنى أحسست على وجوه هذه الأسرة بين يدىْ هذه المحنة أنهم يعتزمون ألاّ يصحبوهم إلى مكان ما. وأخيرًا عقدوا العزم جميعًا على أن يكتفوا بدعوتهم إلى مقهى ما بالشانزليزيه ليتناولوا شرابًا ما، على أن يُرجئوا دعوتهم إلى العشاء بالمنزل إلى حين. وبعد بضعة أيام فى الأخذ والرد اصطحبوهم إلى معبد من معابد الفن الترويحية التى قلّ أن يُقبل عليها الفرنسيون إلا فى صحبة المَشُوقين إلى رؤيتها من الأجانب الذين هم عادة أكثر دراية بما تضم هذه الأماكن من الفرنسيين. ولا يفوتنى

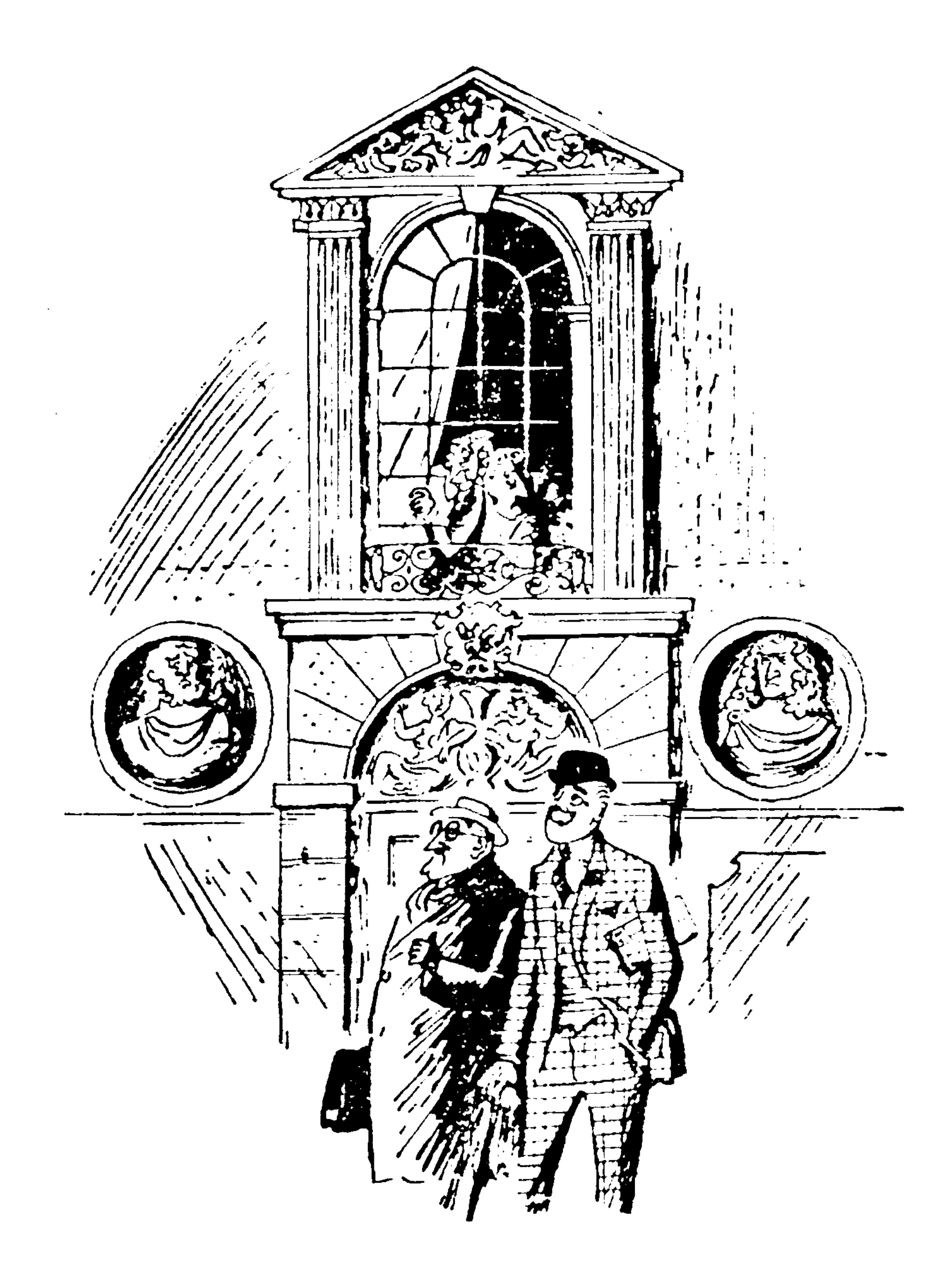
هنا أن أذكر - إنصافًا للفرنسيين عامة ولآل دانينوس خاصة - أن آل "سفنسون" كانوا أكثر ما يكونون نهمًا ... لا للطعام، بل للحجارة ... أعنى الآثار. هذا وإن كان الكثير من الأجانب سرعان ما ينقلبون نهمين للطعام إذا ما حلّوا بفرنسا وإن كانوا فى بلادهم يجتزئون بالقليل، فلقد كان جونار سفنسون يكاد يزدرد تلك الحجارة ازدرادا ! وكنت أحسب أن معدة السويدى على نحو غيرها من المَعدِات ، غير أنى فى هذا كنت واهمًا، فلقد شهدت السويديين وهم يكادون يلتهمون كنيسة الساكْركير التهامًا وكأن بين أيديهم طبقًا من المُشَهّيات، إذ سمعت بعدها السيد جونار يقول : "والآن هيًا بنا لنزور سراديب الموتى !" ولو أن سراديب الموتى هذه كانت فى مدينة فورنسا ما تخلّف المسيو دانينوس عن زيارتها مرات ثلاثًا، ولكنه وهو هذا الذى يسكن باريس منذ أربعين عامًا ما زال لا يدرى عنها شيئًا البتة، وكل ما يذكره عنها أن أباه قال له عنها يومًا حين بلغ السابعة من عمره : إذا ما أحسنت السلوك يا بنىّ فستَصْحبُنى يوم الأحد إلى سراديب الموتى .

وما من شك فى أن الصبى لم يُحسّن سلوكه ؛ ولهذا لم تطأ قدماه أرضها .

وكما حاول آل دانينوس أن يُثْنوا جونار سفنسون عن عزمه هذا فاقترحوا عليه أن يذهبوا به إلى ميدان التَّرْتر لتناول قدح من الشراب، وأنَّى هذا، فللأجانب حينًا "أفكارٌ ثابتة" تهيمنُ عليهم، وجونار مصممٌ على رؤية سراديبه، وعبثا تحاول أن تَصْرِف رجلا سويديًا عن أن يتجه صوب الشمال(٥) .

وانصاع دانينوس لرغبته قائلاً : ما أسهل هذا. إذن هيًا بنا إلى هناك .

وقد يكون مما يُخْجل الپاريسى أنه لم يزر سراديب الموتى هذه، غير أنه من العار عليه ألاّ يعرف الطريق إليها وألا يعرف أين تقع. وإذا صديقى ومساعدى يتنحّى عنا برهة متعللا بشراء بعض التبغ، وإذا هو يتجه نحو شرطى ليسأله عن الطريق إلى السراديب. وإذا الشرطى هو الآخر يفكر مليًا متردّدًا، وبعدها أخرج الدليل من جيبه، وكأنى بهما كانا على وشك أن يشدَّ أحدهما على يد الآخر ، على نحو ما يفعل الفرنسيون(٦) .



"لسوف ترى عندما يألفونك أنهم يستقبلونك كواحد منهم" .

وقد يكون أيسر على الأمريكى أن يدخل قاعات الاستقبال بقصر بكنجهام من أن يتناول الغداء عند آل توپان، فهم حين يلقونه عند وصوله يقولون له : ما أسعدنا أن تلمَّ بنا يومًا لتناول الغداء معًا ... لابد من هذا ... لابد من هذا .

وإذا الأسابيع تمرّ أسبوعًا بعد أسبوع بأحداثها العارضة، فمرة الأطفال مرضَى، ومرة لقد تركت الطاهية الخدمة لديهم. وفى نهاية المطاف إذا المضيف الپاريسى يصحب ضيفه الأجنبى الظمئ إلى الاستمتاع بالطابع الپاريسى إلى مطعم أمريكى صغير ليس عنده ما يقدمه غير اللحم المشوى، وقد بلغ من استهانة صاحب هذا المطعم الصغير أنه لم يكلّف نفسه كتابة قائمة الطعام باللغة الفرنسية ، على نحو ما يفعله الأمريكيون أنفسهم فى بلادهم .

تلك هى الحال فى فرنسا، وقد لا أكون مبالغًا إذا قلت إنك قد تقيم بفرنسا أشهرًا ستة قبل أن تتلقى دعوة من أسرة من الأسرات لتناول الطعام. وعندها تسمع لهم شرطهم عليك أنك لن تحظى بغير "ماهو موجود"(٧). وهذا الذى يسمونه "الموجود" والذى يفهمه الإنجليز على أنه بساطة هو عند الفرنسيين غُلُو فى الكرم. وقد تظن أن الدعوة إلى "الموجود" دعوة تلقائية ، ولكنها على العكس قد أعدّ لها، وإذا محتويات الأطباق الصغيرة تحتويها أطباق كبيرة، فإذا الضيف يخال أنه بين مأدبة كبيرة فيها مالذّ وطاب. وهذا "الموجود" الذى يدّعون أنهم أعدّوه لتوه هم فى الحق قد أخذوا يعدّون له منذ أيام. وما أشبه هذا بعضو مجلس العموم البريطانى الذى يدّعى أنه قد ارتجل خطابه، وفى الحق أنه قد أخذ فى الإعداد له منذ أمد بعيد .

وما من شك فى أن ربّة البيت الإنجليزية لا تستطيع أن تقدم مثل هذه الوجبة إلاّ بعد أن تعدّ لها شهورًا. والسؤال الذى يراودنا الآن هو : هل من الخير أن يستجيب المرء لدعوة فوْريّة من أسرة إنجليزية أم يتلبّث أشهرًا ستة ليحظى بدعوة من أسرة فرنسية ؟ إنى لأوثر الثانية. رباه ما كان أشهى الطعام الذى غيب عنا عناء تلك الشهور الستة التى انتظرناها !



مرحبا بكم فى فرنسا بلد السياحة

وهذا الذى يدَّعون أنه "الموجود" هو فى الحق وليمة حافلة تكفى لإشباع نَهَم بانتجرويل[٨]. فما أحرص المضيف الفرنسى على أن يسيل لعابك بالحديث عن ألوان من الطعام ستقدم لك بعد .

ولعلى فى حلٍّ من أن أتحرر من آداب المائدة البريطانية التى نلتزم بها وتُحرّم علينا أن نتحدث عما نأكل، فأجرؤ وآخذ فى امتداح فخذ الضأن "الچيجُو" - المُهيّأ على الطريقة الإنجليزية طبعًا - فإذا المسيو توپان يتابع حديثه فيقول : ليتك جئتنا منذ أسابيع ثلاثة ... إذن لقدّمنا لك صنفا شهيا من الديوك[٩] لا مثيل له فى غير فرنسا .

وتقاطعه زوجته قائلة : لا تنس أنها فرخة لا ديك يا تونيت[١٠]. لقد كانت فرخة سمينة، مُتَبَّلَة بما يكفى فحسب، يذوب لحمها فى الفم. كما كان طعمها لذيذاً أيها الرائد !

وللفرنسيين أسلوب نهم فى ذكر ما لذّ وطاب من الطعام والتحدث عنه يجعلهم يُقيمون بين الوجبات ولائم من الحديث العذب. وإنها لمتعة لا نظير لها للضيف الأجنبى أن ينزل بالفرنسيين ضيفًا يطعم على مائدتهم تاركًا لتأملاته العنان. فحسبه أن يراهم يتلمّظون بشفاههم وهم يذكرون أسماء نبيذ پومار أو نبيذ شاتو مارجو المعتق الذى تتّفق درجة حرارته وحرارة الغرفة، فإذا هو يُحسّ مذاقَها الرّخىّ السّخىّ ويشعر كأنه بين يدى الكنوز السائلة لإقليم بُورْجونْى (برجنديا) ، وأنه قد وقع على خبايا كروم إقليم بوردو .

وعندها خيّل إلىّ أنه ثمة ديك على المائدة ... معذرة ... أقصد فرخة ... تفوح منها رائحة تذكرنى برائحة مناخ الصّيد، وما كان بين يدى فى الحق غير فخذ من الضأن، وكم كانت شهيّة لذيذة ... ولكن عُذرًا فسرعان ما يختلط علىّ الأمر حين أكون بحضرة هؤلاء القوم. وفى رأيى أنه عندما تتوفّر لبلد ما أنواع عدّة من الطعام الشهىّ فخليقٌ بأهله ألا يَخُصُّوا موسمًا ما بطعامه الخاص به، فليس غير المواطن المحلّى هو وحده

الذى يعرف تمام المعرفة كل موسم وطعامه الخاص به. ولكن أنَّى لى أن أكون مثل هذا المواطن أعى ما يعى وإن طال بى المقام . ولقد أدركت هذه الحقيقة منذ وطئت قدماى أرض هذا الوطن، فحين نزلت على المسيو پيكمُول[11] ضيفًا بقرية كاستيل نودارى إذا هو يقول لى : لقد جئت متأخرًا وفاتك موسم صحن الكبد الطازج أيها الرائد، غير أنى أستطيع أن أقدّم لك طاجنًا صغيرًا من اللوبياء مخلوطًا به لحم الإوز المفروم ... فما من شك فى أنه سيروقك، فهو شهىٌّ حقًا. فأجبته دهشا : طاجن صغير من اللوبياء مخلوط بالإوز المفروم ! ما أشهانى إليه أيها السيد پيكمول .

ثم حين نزلتُ بعد بالمسيو كابريول فى جبال البرانس قال لى : لقد جئت قبل موسم الحمام البرّى أيها الرائد، ولكن ما ترى فى أن أقدّم لك شريحة من فخذ تَيْتَل ؟

فأجبته دهشا : شريحة من فخذ غزال ! ما أشهاها إلىّ أيها السيد كابريول .

وهكذا كان شأنى مع أهل فرنسا فى أى مكان زُرته، يتركوننى فى حسرة على شىء فات وشىء لم يحِنْ أوانه بعد، على الرغم من أنهم كانوا يقدّمون لى دوما ألوانًا شهية من الطعام .

ألا ما أروعك أيتها البلاد الجميلة التى تختلف عن حال بلادى حيث يأكل أهلها من الطعام على مرّ العام ألوانًا لا تتغير طعمًا ولا طهيًا ! فلا نجد أمام هذا سببًا للأسف على ما فاتنا، ولا سببا للأمل فيما نطمع أن نتناوله مستقبلاً .

الهامش

(١) kilt هى التَّنورة التى تستر النصف الأسفل من البدن عند الأسكتلنديين (المعرّب) .

(٢) يعنى أنهم لن يستقبلوك (المعرب) .

(٣) Restez fermé dehors.

(٤) ثمة عبارة أخرى لهم شائعة يقولونها لمن يقف جامداً على الباب لا يحاول الدخول ولا ينصرف : "أما آن لك أن تنتهى من الدخول" Finissez d'entrer (هامش الرائد) .

(٥) مثُله فى هذا مثل إبرة البوصلة لا تنحرف عن القطب الشمالى .

(٦) يعنى المؤلف بهذا الشدّ على اليد ما يُحسّ به المرء حين يجهل امرأ ويجد غيره على مثل هذه الحال من الجهل، أو عندما تتطابق الخيبة أو التوفيق. هنا يتبادلان معًا الشدّ على اليد (المعرب) .

(٧) S'asera ála forune du pot بمعنى الموجود أو "أنت وحظك وما تحويه القدر" أو "على ما قُسِم" (المعرب) .

(٨) Pantagruel هو بطل قصة لرابْليه عن عملاق يُضرب به المثل فى الشَّرَه (المعرب).

(٩) Faisan طائر التُّدْرُج (أو الدَّارج) .

(١٠) تدليل اسم جاستون الذى كثيراً ما تستعمله قرينه المسيو توپان (هامش الرائد) .

(١١) فى اللفظ تورية فهذه الكلمة الفرنسية Piquemolles ذات المقطع الواحد ترمز إلى أخرى ذات مقطعين Pique molles ، وتعنى مُخَلْخَل الأسنان (المعرّب) .

الفصل الثامن

مارتين وأورسولا

أصابتنى فى حياتى هزة كتلك التى هزت الكرة الأرضية ، فكان من نتيجتها ذلك الالتواء الهرسينى[١] أو المماثل لأعمدة معبد هرقل التى هدمها شمشون الجبّار بقوته الجبّارة، وذلك عندما فاجأتنى مارتين قائلة : "كم أنا مولعة بتلك الشُّعيْرات الفضيّة التى تتخلّل شُعيْرات شاربك !"، وذلك فى يوم من أيام شهر مارس المشمسة حين خرجنا نتريّض على شاطئ نهر السين، وكانت سماء "الإيل ده فرانس"[٢] الزرقاء الصافية تنم عن أن الربيع يسترق إلينا الخطى، والشمس تبسط أشعتها أول ما تبسطها على الحجارة الرمادية لمبنى "المجْمع الفرنسى". عندها أحسستُ وكأن العالم يهتز من حولى، أو كأن حزام التقاليد الفكتورية المُتزمّتة قد انزاح عنى وأخذت أنفذ إلى عالم الشعوب اللاتينية المُفعم عاطفة، فلم أعد بعدُ هذا الرائد المحترم و . م . طومسون حامل أوسمة O. B. E و C. S. I و D. S. O ؛ إذ كنت على وشك أن أغدو زوجًا لمارتين نوبليه. كنت - كما تصفنى هى - : "ذلك الإنجليزى العجيب ذو الشارب الأبيض ... الذى يحار الناس فى أمْرِه" !

وفى البلاد التى تقع فيما وراء المانش لا يليق برجل أن يتحدث إلى آخر عن ملامحه الذاتية فى تفصيل، كأن يحدّثه عن شاربه مثلاً أو عن تلك الشّامة التى تُزين وجنته (فثمة فى إنجلترا كثرة كثيرة من الأمور التى يحظر أدب اللياقة الحديث عنها، مما يخال معه الزائر العابر الذى لا علم له ببواطن الأمر أن الإنجليز يعدّون العشق من بين هذه المحظورات) .

وكان لا معدى عن أن تكون لى إقامة فى فرنسا يتسنى لى خلالها أن أتعرف على تفاصيل جسدى الجغرافية، أعنى أطلس جسدى بوهاده وتلاله التى لم تكن زوجتى الأولى أورسولا تلقى بالاً لها، فما عرضت أورسولا مرّة لحديث طوبوغرافى عن ملامح جسدى، بل كان حديثها - حين يتعسَّر الكلام على لسانى فلا أستطيع الإفصاح عن مشاعرى فى مثل تلك الظروف - يقتصر على قولها : "ها نحن الاثنان ... انظر ... ماذا ترى ؟"

إن مثل هذه الأقوال العاطفية المتطرفة (أعنى الفاترة كل الفتور) هى التى سرعان ما يلحقها طلب الإنجليز الزواج من امرأة .

وهكذا تزوجتُ أورسولا .

وفى الحق أن ما ربط بيننا وجمع شملنا لم يكن الحب ، بل هو ولَعُنا المشترك بالخيل. وكانت المرة الأولى التى لمحت فيها أورسولا - وثمة من النساء من حسبك أن تلمحها مرة - حين كانت تمتطى صهوة جوادها "لاسى الكسول" فى حلبة الجياد بدبلن، التى هى من أشق حلبات مباريات الفروسية والقفز فى العالم، بما يقام فيها من حواجز ثابتة شاقّة. وكانت تنفرد بأسلوب نزق فى العدْو السريع، وفى الدوران بجوادها فى رقعة جدّ ضيقة أكاد أُشبِّهها برقعة المنديل، مما يلفت نظر أقل النظارة إلمامًا بقواعد الفروسية. ثم ما كان أروعها فى تخطى الحواجز، وما كان أبْهاها فى زيّها وهى تضع على رأسها قبعة الصيد وقد التصقت سترتها السوداء بجسدها، وحول ساقيْها سراويل من جلد الغزال الأبيض، واحتذت حذاء للرُّكوب يمتد إلى الركبة. وقد انتهزتُ فرصة لتهنئتها حين أحرزت الكأس الذهبى، فإذا هى تحدثنى عن مغامراتها فى الهند وعن صيْدها للخنازير البرّية بالرماح، وما افترقنا إلا وقد جمع بيننا انسجام متبادل. ومرّت بضعة أسابيع وبدأ موسم صيد الثعالب ، فإذا أنا ألقاها فى كورن ميت[٣]، وإذا كلٌّ منا ينجذب إلى الآخر .

وكـان الطقس خـريفًـا يزدهر فـيـه الريف والغـابات التى تحـيط بلِسْـتَرشَـر بألوان أوراق الشـجـر الذهبـيـة والحمراء . ترى هل الطبيـعـة هى التى أضـفت الجمـال على هذا المكان أم ذكرياتنا عن مـباراة الفروسـيـة ؟ لستُ أدرى، غـيـر أنى أذكـر أننا تلبَّـثنا ولم نمض فى رحلة الصـيـد، وما كدنا نعبر قرية راتكليف الصـغيرة حتى عرجنا على حانة "مولبرو" لتناول كأس أو كـأسـين من الويسكى نروِّح بها عن أنفسنا. ثم مـضـينا نعبـر الحقول والتـلال نقفز فى مرح وخفَّة متخطين السياجات ووشـائج الأشـجار والجداول. وكنا على بعـد عـشـرة كيلو مـتـرات من "بروكبـى" حـين ترجّلنا لنأخـذ مكاننـا فى ظل الأشـجـار المتناثرة على ضـفـاف نهـر "ريك" فنُريح الخـيل ونسـتـريح. وعندها قطع علينا سكون الطبيعة وقع حوافر جياد تمرّ مرّ العاصـفة الهوجاء. وعلى بعد مائة متر شاهدنا فـارسا مـتـخلّفا عن رفـاقه، وخُيّل إلينا أنه الكونت أوف هَرْتفُورد الشـاب يعبـر الجسـر القصـير عبـور الريح الخـاطفة. ومـا كـادت تمرّ بضـع ثوان حتى طرق آذاننا صـوت نداء بعيد لرائد من روّاد الصيد، ثم سمعنا نباح الكلاب إذا كانت جماعة الصـائدين تمضى بعيداً عنا. ولم نكن حينذاك توّاقين للرياضة فنمضى مـعـهم، فقد كان أمامنا ثمة حواجز أخرى غـيـر تلك التى بدبلن ولسْـتَرشَـر علينا أن نتـخطّاها مـعًـا ؛ لذا افـتـرشنا شـاطئ الغدير. ومـا فى مقدورى أن أذكر فى تفصـيـل دقيق ما كـان بعد هذا، فلقد جرت الأمور بغـتـة ومن غـيـر إعـداد. وفى ظلال أشـجـار البلوط السـامـقـة الحـانيـة كـان عنـاقنا الذى شاركتْ فيه نشوة الحب ونشوة الويسكى ونشوة الصيد كلٌّ بنصيبه على السواء .

ربّاه كيف لى بـالنساء يتغيّرن منذ أن يصـبـحن زوجات ؟ فما أذكر أن تلك النشوة ذقت طعمها مرة أخـرى بعد أن تزوّجت. فلقد تغير كل شىء بعد أن رأيت أورسـولا فى ثيابها المنزلية. لقد كنت قبلُ مفتونا بها فى مِشْيتها وبِزَّتها ومهارتها وتفوّقها وبكل صـفة من الصـفات المرموقة المتصلة بحلبة الفروسية والتى طغت على ملامحـها المنفِّرة : إذ لها أنف طويل وأذنان ضـخـمتان وفك بارز. هذا إلى مـا انطبعت عليه من شَبَهٍ بالخـيل، ذلك الانطبـا ع الذى نـألفـه فى صـبِيْـة حظائر الخـيل لمعاشـرتهم إياهـا ليل نهـار. فكنت أرى



وفى الحق أن ما ربط بيننا وجمع شملنا لم يكن الحب، بل كان ولعنا المشترك بالخيل ..

وجهها وكأن ملامح الفرس مرتسمة عليه. كان كل قبيح فيها تستره ثياب الركوب فإذا ما خلعتها وخلا أحدنا بالآخر اختلف الأمر تمامًا، وإذا الأمازونة قد اختفت وإذا ما بين يدى هو الفرَس[٤] .

وكم جهدت ما وسعنى الجهد فى أن أُقنع أورسولا بأن ترتدى الثوب الذى كنت أُعجب بها فيه، فما كنت إخالها حين تنام إلى جانبى أن تنام وهى مرتدية قبعة الصيد، وبدا لها أن هذا الإصرار منى أمر غريب ! لقد أقلعت عن ركوب الخيل منذ أوَيْنا إلى بيتنا فى هامپشر، وكان لهذا سببه الذى لم أتبيّنه إلا بأخرة، فإذا هى تعدل عن الاسترسال فى الضحك والمزاح، وكان هذان من لوازمها قبلُ دون قيْد. ولعل شئون المنزل والإشراف على الخدم جعلتها تبدو أشد صرامة وعجرفة عن ذى قبل ، وإذا هى لم تعد تلك الصديقة التى عهدتُها فى النادى أو تلك الزميلة التى عرفتها فى حلبة الفروسية. لقد غدتْ ربة منزل تتجه عنايتها إلى تحسُّس الغبار فى أركان البيت ولا سيما الغبار الذى تُخلّفه أحذية الزائرين أكثر من انصرافها إلى الضَّحك من نكتة تُقال. وما أكثر ما كانت تُحذّرنى لنفض الغبار العالق بحذائى، وما أكثر ما كانت تقول لى : ألق بالا لقدميْك عند دخولك يا عزيزى ... نظّف حذاءك. لقد وطئت هذا المكان مرة أخرى بقدميك يا طومسون !

وما أظن أننى سمعت طوال حياتى حديثًا عن قدمى أكثر مما سمعته منها .

قد يكون ثمة من الناس من يمشى هنا وهناك بلا قدميْن، وما كان هذا فى طاقتى. وهكذا نشأت المأساة بينى وبين زوجتى عن الأقدام والأحذية. وكم نجهد كثيرًا فى البحث عن تلك الدوافع القوية التى تثير المآسى المؤلمة ، وكثيرًا ما تكون تلك الدوافع من التفاهة بمكان ، غير أنها مع ذلك تثير أكبر وأعقد المآسى. لقد كان حديث أورسولا المتصل عن قدمى مما حفزنى أنا الآخر أن أتطلّع إلى قدميْها. والأقدام عامة تبدو رشيقة وهى فى الأحذية المتقنة الصُّنع، ولكن كم كانت قدما أورسولا تبدوان أقبح ما تكونان حين تخلع عنهما حذاءها وتضعهما فى الشبشب. وما التفتُّ إلى هذا بادئ

ذى بدء، فقد كنت مأخوذًا بما أسرف فيه القائلون بأنها على حظ وافر من رجاحة العقل، وكم يكون وراء مثل هذا الإسراف من عيوب علينا أن نَحْذرها. ولا أقدر على وصف حياتى مع أورسولا دون تجاوز حدود اللياقة. فهذه المرأة الرياضية الصُّلبة، المغامرة الجسور، السادرة فى غيّها قد تحولت أنموذجا للياقة والحياء، فلا تفتأ تردد :

"وماذا بعد ... ؟ كفى نزقًا يا عزيزى ... أما آن لك أن تكفَّ عن هذا العبث ؟"

وما أظن الإنجليزيات جميعًا يشبهن أورسولا، ولكننى إذا ما تحدثت عن أورسولا فكأنى أتحدث عن إنجلترا، وما كان أوْلى بفرويد أن يخصّ مملكتنا بالاستقراء، فما من مشكلة فيها إلا ووراءها الكبت. فهذه البلاد التى كانت أيام هنرى الثامن وچورچ الرابع حافلة بالمآدب المسرفة ومسرحًا لأبهج ألوان الحياة عربدة ومجونا، إذا هى فى العهد الڤكتورى تخضع لقيود لا حصر لها من ألوان الكبت، ولا تزال آثار تلك القيود بادية على بعض من نُعاصر. ولم تكن أورسولا إلا واحدة من أولئك اللاتى انحدرن من قلعة من تلك القلاع الڤكتورية الراسخة. فلقد ولدت بقصر ترنتوران حيث كانت جدتها الليدى پالانكت تلتزم بتعاليم وِزْلى فى صرامة ولا تنفك تُحذّرها : إياك أن تجرى على لسانك كلمة "السيقان"، وعليك إذا أردت ذكرها أن تقولى "الأطراف" أو "الأعضاء السفلى" ... ولذلك كانوا يكسون سيقان البيانو بجوارب من الموسلين(٥) .

وكانت أورسولا فى الحادية عشرة عندما التحقتْ بمعهد مِلْتنهام فى وارويكشر، وهو معهد يخضع لقانون مزدوج، فعلى حين يُلزم الفتيات بأن يَسرْن على درب الرَّاهبات وسُنَنِهنَّ يبيح لهن أن يمارسن الألعاب الرياضية. وقد غادرت أورسولا المدرسة بعد أعوام ستة وما أدركت على أى تكوين جسمانى يكون الغلام، وإن كانت هى بعدُ قد غدتْ غلامًا!

وما أحب أن أعمّم فأجرّدها من جميع صفات الأنوثة، فإنى مؤمن بأن الرجال الإنجليز لو استطاعوا أن يُنجِبوا دون أن تكون فى أحضانهم امرأة لكانوا أسعد

الناس حالاً. وإن أول ما يُعنَى به البريطانيون فى تربية النشء أن يفصلوا فى مراحل التعليم الأولى بين الجنسيْن، وكأنهم خالوا أنه لن يكون ثمة التقاء بين الجنسين أبدا (ومن هنا بقيت الصلة بين الجنسيْن فى أضيق نطاق). وعلى حين تتولى تنشئة الفتيات معاهد تُلزمهن بستر سيقانهن بجوارب سوداء طويلة، كما يتملكهُن الخَفَر والحَياء الذى يدفعُ الدمَ إلى خُدُودهن عند ذِكْر خطايا الجسد المرذولة، أو حين تقع أبصارهن على الجسد عارياً (إذ من مبادئ معهد ملتنهام قانون يصمُ العُرْى بالعار، الأمر الذى تضطر معه الطالبات حين يستحممن أن يلبسن قمصانا قطنية) نرى الفتيان بعد أن يتخرجوا فى معاهدهم يدهشون حين يرون أنهم مع انصرافهم إلى لعبة الكريكت وشئون السياسة الاستعمارية، عليهم أيضًا أن ينصرفوا من حين إلى حين إلى التفكير فى النساء .

فهل ترانا بعد هذا نُغالى إذا قلنا إنه ليس ثمة شىء فى إنجلترا من أجل المرأة، بل كل شىء ضدّها ! ثم إذا هى بعدُ أول من تقف ضد نفسها . فإذا كان هدف كل صبىّ فى المملكة المتحدة أن يصبح رجلاً ... فكذلك هدف كل صبيَّة !

إن معلّمات معهد ملتنهام لا يفتأن يُردّدن لتلميذاتهن : "اجرين كما يجرى الصبية أيتها الفتيات"، وكأنهن يُلمِّحن بهذا إلى تجنيبهن التفكير فيهم .

وكانت أورسولا تجرى كما يجرى الصِّبية، وكما طهّرها هذا التدريب من سموم الجسد، طهّرها كذلك مما يراودها من فكر آثم . وعلى حين كانت مارتين ... وصويحباتها حين بلغت مبلغ الفتيات الحالمات يطالعن رواية "لا مزاح مع الحب"(٦)، كانت أورسولا وزميلاتها يبذلن جهداً فائقًا لإتقان لعبة لاكروس(٧) وينشدن أغنية "كم أنا سعيدة ... لأنى غير جميلة" .

ولكن قواعد التربية بملتنهام لا يزلزلها تعاقب السنين أو تغيُّر الحكومات أو اندلاع الحروب، وتبقى آثارها راسخة فى النفوس لا تنمحى. وكانت أورسولا قد تملكتها روح ملتنهام حتى فى طريقة نومها، إذ بعد التحاقها بالمعهد بقليل وجدتها "المراقبة" وهى

تمرّ بحجرات النوم الباردة برودة الثلج في إحدى أمسيات الشتاء وقد تكوّرت بجسدها فى أثناء نومها تحت الغطاء، فما لبثت أن أيقظتها وقالت لها :

"أترين أن هذه وضعة نوم يلقى بها الإنسان ربّه حين يوافيه الأجل يا طفلتى ! هبى أنك أتاك الأجل وأنت نائمة فهل تجدين هذه الوضعة تليق بأن تلقىْ بها خالقك؟"

ومنذ تلك الليلة غدت أورسولا تنام لوفق قاعدة ملتنهام فترقد على ظهرها مادة ساقيها وقدماها معرّيتان للبرد وقد ضمّت يديها على صدرها. وما أنكر أن هذه الوضعة جديرة بالملوك والملكات فى ضجعتهم الأخيرة التى تمثّلها تماثيلهم الرخامية المنحوتة فوق أضرحتهم بكاتدرائية وستمنستر لتشاهدهم الأجيال بعدُ، ولكن ما من شك فى أنه ثمة وضعات أخرى للزوجة حين تكون فى أحضان زوج يتمتع بكل قواه الطبيعية. ومن غير الإنصاف أن أقول إن أورسولا لم تستجب لرغباتى فى أن تكون فى نومها على حال تتفق وواجبات الزوجية وأن تنام بين ذراعى، غير أنه سرعان ما تستحوذ تعاليم ملتنهام فى جوف الليل على عقلها الباطن، فإذا ما تنبّهت من نومى وجدتُنى كأنى أرقد إلى جوار تمثال !

وما بعلْمى أن الإنجليزيات جميعًا ينمن على هذه الصورة، كما بعِلْمى أن فتيات إنجلترا لسن جميعًا بكبيرات الأقدام ولا بضخمات الفكّين، فثمة إنجليزيات فاتنات جميلات إذا ما وقعت أعيننا عليهن كن لنا عوضًا عمن حُرمن من الجمال. إن هناك إنجليزيات يتفجّرن فتنة كالبركان، وحينما يشتعلن يُضئن بريطانيا العظمى بأكملها، بل وجميع ممتلكاتها .

ولا شك أن أورسولا كانت تعانى من حالة مرضية مبعثها اطّراحها شئون الحب جانبا، فلقد خمدت إلى الأبد تلك العاصمة التى هبت يومًا على ضفاف نهر ريك. وكم تنتاب الخجلات من النساء نوبات معها الجرأة المذهلة، ولكن سرعان ما يعدن إلى طبيعتهن الحقة .

إن ممارسة الرياضة عامة والمباريات الرياضية خاصة، لا تستطيع هذه كلها أن تقضى على نزعات الحب، وما غابت هذه الحقيقة عن مدرِّسات ملتنهام. وبالرغم من هذا كن يصررن على التدريب الرياضى الشاق على لعبة لاكروس لعلهن يجدن منه منفذًا إلى إخماد تلك الأفكار المضلَّة. وحين شبَّت أورسولا استبدلت برياضتها الأولى – وهى لعبة لاكروس – رياضة أخرى هى الفروسية. غير أن أورسولا لم تستطع أن تبلغ مبلغ زميلاتها من الفارسات الشهيرات اللاتى كن من الندرة بمكان ، ولم تستطع هوايتهن للفروسية أن تخمد جذوة الحب فى قلوبهن؛ فلقد استطاع ركوب الخيل أن يكبت كل غرائز العشق فى قلب أورسولا. ولقد خيِّل إلى بادئ ذى بدء أنها حين بدأت تهمل رياضتها المفضلة فتترك جانبا ركوب الخيل أن هذا سوف يجلو الصدأ عن غرائزها الكامنة ويوقظها من خمولها، ولكن سرعان ما أدركتُ أنى واهمٌ وأن ملتنهام كان لها أثرها الباقى الذى لا يُقاوم فى هذا المجال. ولقد فهمت بعد السر فى إحجام أورسولا مؤقتًا عن ركوب الخيل، وأدركت أنها تفعل ذلك لا من أجل زوجها، بل من أجل إنجلترا ... ومن أجل نماء الجنس البشرى .

لقد كانت ملتنهام وأم أورسولا شريكتين فى إعدادها للزوج لوفق عقلية العصر الفكتورى، وكذا زوّدتها جدّتها ليدى پلانكت ليلة مغادرتها بيتها إلى بيت الزوجية بنصائحها الأخيرة قائلة : "إنى لأعلم يابنيتى أن ما يقع على فراش الزوجية أمر يثير الاشمئزاز ... ولكن لا عليك، ولتكن ليلتى الأولى مع إدوارد أسوة لك تحتذينها : فلتُغمضى عينيك، ولتتّجهى بفكرك إلى ... إنجلترا" .

ولقد أغمضت أورسولا عينيها مؤتسية بأمّها وبجدّتها، وصوّبت فكرها نحو إنجلترا فيما ستواتيها به الأيام ... حقًا إن مستقبل إنجلترا من القدسية بمكان، وعلى أبنائها الحفاظ عليه. ولكن وا أسفاه، فهذا القدر الضئيل الذى كنت سأُسهم به قدر طاقتى المتواضعة للنهوض بمستقبل إنجلترا لم يتحقق، ولكن هذا المستقبل الذى كنت أرجو أن أكفله لبريطانيا العظمى لم يكن ليتحقّق إلا حين أقمتُ فى فرنسا .

وحين أدركت أورسولا أن السَّماء لن تمنحنا بركاتها عادت إلى رياضتها فاستأنفتها بنشاط أقرب ما يكون إلى الهَوس. فكانت تستيقظ فى السادسة صباحًا لتقضى يومها مع الخيل ومع السيّاس وصبية الحظيرة وفى القفز على الحواجز والسياجات المتخذة من سيقان الشجر، وكنت فى نزوة من نزوات الحمق قد أعددتها هدية منى لها بمناسبة عقد قراننا، حتى إذا ما انتهت من هذا عادت إلى البيت منهكة فارتمت إما على أريكة أو على سريرها بعد أن تخلع حذاءها. وقد تستغرق فى نومها فيغشاها سُبات عميق، وقد تصحو فتستأنف تطريزها لنسجية تحكى مشهدًا من مشاهد صيد الثعالب بالخيل ... وما انتهت منها أبدًا .

وما تأبّت أورسولا قط عن الاستجابة لما كانت تعدّه واجبا من واجبات الزوجية، غير أنها كانت عند اللحظة الحاسمة تلقى فى روْعى الشعور بعقدة الذنب، ذلك الشعور الذى يعترى التلميذ الصغير حين يُضبط وهو يُقلّب صفحات قاموس طبى. وعند هذه اللحظات كانت تصيح بى : "ما أحْراك أن تخجل من نفسك. أطفئ النور أيها الصبى الشَّقى" .

هل كانت ثمة شعلة كامنة تحت هذا الجليد ؟

كم أنا حذر مع النساء عامة ومع الإنجليزيات خاصة، فخلف قناع من البرود قد تضطرم فيهن لواعج كامنة لا يستطعن أن يُفْصِحْن عنها .

ولقد فاجأت أورسولا فى يوم من أيام الآحاد وهى مستغرقة فى قراءة صحيفة "نيوز أوف ذا ورلْد" تطالع تحقيقًا صيغ بعناية حول مأساة من المآسى الزوجية التى تكون قراءتها مُتعة كل بيت يوم الأحد حتى البيوتات العريقة المحافظة. وكان التحقيق يحكى قصة[٨] تاجر له مكانته بليفربول يطالب باستيراد حريته بعد سنين عشر من العبودية : فقد كانت زوجته ترغمه على أن يمثّل حصانًا بعد أن تضع اللجام فى فمه

وتضطره إلى أن يركض فى الغرفة وهى تُلْهب ظهره بضربات خفيفة من سَوْطها. وإذا أورسولا بعد أن قرأت هذا التحقيق ترسلها ضحكة عالية وهى تقول ساخرة : "ما أليق هذا بك حقًا !"(٩)

وما دار بخلدى أن هذا يليق بى، ولكنى كم ذُهلت وأنا أخال رائدًا بجيش الهند قد شُدَّ كما يُشدّ المُهْر وراح يَهُز الأجراس المعلقة فى رقبته. وأخذت أسائل نفسى : هل جاءت قلة مبالاة أورسولا بى عَفْوًا أم أن استمرارها فى تطريزها اللعين استمرارًا متصلاً بلغت معه الذروة هو الذى أنساها نفسها فجعلها تعبّر هذا التعبير الصادق عن شذوذها؟

لكأنه ثمة عشرات السنين الضوئية(١٠) ما تزال تباعد بينى وبين كوكب مارتين وعن عالم الفرنسيين المشحون بالعاطفة. وهل لى بعد هذا أن أنتقل من التخصيص إلى التعميم، فأقول إن نساء إنجلترا لسن جميعا على نمط واحد. ثم هل أستطيع أن أذكر هنا ما بين البلدين من خلافات جوهرية ؟

فعلى حين يُلزم الإنجليز أنفسهم بطقوس معينة عند إعداد الشاى، كما يُلزمون أنفسهم بعادات بعينها فى فراش الزوجية، يحيط الفرنسيون طقوس الفراش بما نحيط به نحن إعداد الشاى من عناية. إن ما يحدث على فراش الزوجية فى بلادنا يمثّل فى الأكثر مسرحية قصيرة خاطفة لا يصحّ الحديث عنها قبل تمثيلها أو بعده. أما عند الفرنسيين فهو مسرحية تُعدّ إعدادًا مُحْكمًا وتُدرسُ مواقفها كلها، لها مقدمة كما لها فترات استراحة، وما أكثر الحديث عنها قبل تمثيلها وفى أثناء عرضها وبعده. إن الفرنسيين ذواقون لفن الفراش الرفيع، أما الإنجليز فهم منفّذون فحسب. وبدلاً من أن تسألنى أورسولا كما اعتادت مارتين : هل أحسستَ المتعة فيما كان ؟ أراضٍ أنت كل الرضى ؟ كانت لا تسألنى شيئًا. ولو عنّ لها أن تفعل لسألتنى : "هل أنت أحسن حالاً ؟" وليس هذا حال أورسولا وحدها. فالإنجليز حتى حين يهيمون حبًا فهم لا

يتكلمون عنه إلاّ لماما. إنهم يتركون الحديث عنه للمؤلفين المسرحيين أو للصحف[١١]. فعلى الرغم من أن أروع نموذج للحوار الغرامي ظهر إلى الآن هو ما كتبه شكسبير، فإن الإنجليز لا يستخدمونه فى حياتهم العامة الواقعية .

وإذا ما حدث لهم أن عرضوا للحديث عن الحب على غرار الفرنسيين الذين لا يقنعون بالحديث عنه ، بل يجاوزون ذلك إلى ممارسته، فإنهم يعدّلون لغتهم القومية فيضيفون إليها بعض المصطلحات المستوردة من فرنسا، مثل : C'est L'amour (إنه الحب) أو Rendez - Vous (الموعد)[١٢] .

أما الصحافة فما أحرصها - كما رأينا - على عرض المآسى الزوجية والإفاضة فى الأسرار الغرامية، على أن تكون تلك الأسرار لأميرة من الأميرات. دع أميرة من الأسرة المالكة تترك صديقًا إلى آخر أو تغيب عنها ابتسامتها المعهودة وهى على وشك أن تقوم برحلة رسمية إلى جنوب إفريقيا، فسرعان ما تتساءل الصحف عن أسباب هذا الاكتئاب وتقول : لم بدَت الأميرة مكتئبة هكذا ؟

عندها يقلق بال بلادى ... إنجلترا ... إنجلترا الصارمة فى جدَها ... إنجلترا ذات القلب الرّقيق، فتتشوّق إنجلترا كلها التى تحسّ كأنها جزء من الأسرة المالكة إلى معرفة هذا الصديق الذى يشغل بال الأميرة وهى تشاهد رقصات المحاربين فى بِتْشوانا لاند وعلى رءوسهم الريش. ويجهد الصحفيون أنفسهم فى أدب جم فى التنقيب عما يُخْفيه وجه الأميرة الحزين فى إلحاح قد يبدو نابيًا فى بلد أقل تمسُّكًا بالأدب منا، إلى أن تنبرى صحيفة التايمز التى هى أشبه بالمربّية الصارمة لتدعو الجميع إلى التزام الصمت، وذلك فيما لا يجاوز خمسة عشر سطرًا .

ولقد حاولت أن أكون دقيقًا كل الدقة فى تعرف تلك الفروق التى تفصل بين الإنجليز والفرنسيين فى سائر الميادين، وكم أتوق إلى التعرف على تلك الفواصل فى الميدان العاطفى، ولكنى أكاد أفقد مقياسى ؛ إذ لا أجدنى هنا أمام خندق مائى، بل أمام هاوية سحيقة .

إن المرأة الجميلة فى فرنسا - وليس فى فرنسا قبيحات، فالدميمة تُحاول جهدها أن تبدو مقبولة - تصدم حين لا تجد من يُطرى جمالها أو فاته الإشادة بثوبها الجديد. وقد يكون مثل هذا التغافل مقبولاً من زوجها، وإن كانت لا تغفره له وتشكو علنا من أنه لم يعدْ ينظر إليها بعين العاشق .

أما فى إنجلترا فقد تُصدم المرأة الجميلة صدمة عنيفة حين يطبع رجل ما قبلة على يدها، كما قد تعدّ اطراءه لجمال وجهها أمراً غير لائق ، إلا إذا كان هذا الرجل هو زوجها، وما أبعد زوجها عن أن يفكر فى مثل هذا . إن ما تتطلّع إليه مارتين فى الثوب أن يكون أولاً وقبل كل شيء أنيقًا. أما عن أورسولا وأترابها فحسبهن عن الثوب أن يكون مريحًا[١٣]. فالپاريسية التى ترتدى للمرة الأولى "تاييراً" أنيقًا يتفق وفصل الربيع تكون جدّ سعيدة فى قرارة نفسها حين ترى نظرات الرجال تكاد تتلظّى لهيبًا وتشع رغبة عند مرورها بهم. وقد يحدث مثل هذا للإنجليزية، ولكن ما أبعد أن تحس هذا فى بلد مثل إنجلترا حيث يكون من العسير أن تتّقد نظرات الرجال إعجابًا، ولعل مرجع ذلك إلى ما يسود جوَهم من رطوبة . والفرق بين الفرنسيين والإنجليز أن الفرنسيين يُنْعِمن النظر إلى النساء على حين أن الإنجليز لا ينظرون إلى النساء إلاّ نظرة عابرة. والمرأة الفرنسية أشغف ما تكون بأن تلفت إليها الأنظار وإن بدَتْ دهشة حين يُفْتَن غريبٌ بمفاتنها فإذا هو يصارحها بما يدور فى نفسه. وعلى الرغم من أن "سيدة المجتمع"[١٤] الفرنسية تبدو ساخطة حين يلاحظها رجل بنظراته وعباراته، فهى فى الوقت نفسه تضيق حين تراه لا يفعل ، وإذا هى تقول : "ما لى لا يتعقبنى أحد"[١٥]، وكأنها بهذا تشير إلى حسرتها لتقدُّمها فى السن. وما أشد اطمئنان الإنجليزية فى هذا المضمار، فما فى خاطر أحد أن يتعقّبها ويغازلها . وإذا ما عنَّ لأجنبى طائش أن يفعل هذا فما أسرع رجل الشرطة إلى رد الأمور فى حزم إلى نصابها. ورجل الشرطة فى إنجلترا غيره فى فرنسا، كما هى الحال فى جميع الأحوال الأخرى. فلقد قصّت مارتين علىَّ يوما أنها وهى فتاة صغيرة لم تشبّ عن الطوْق قد

تعقبها فتى ذات يوم، فهرولت إلى الشرطى تستصرخه شاكية وقالت له : "إن هذا الفتى يتعقبنى"، فما كان من الشرطى إلا أن قال لها وهو يتابع حركة المرور : "ما أشدّ أسفى أيتها الآنسة على أنى غير قادر على أن أنهج نهجَه". وليس هذا المثل الذى ضربته لى مارتين إلا من الخلافات اليسيرة بين البلدين(١٦) .

والتناقض الحق بين البلدين نراه فى ميدان آخر. فإذا دار الحديث بين فرنسيَّين عن فرنسى آخر كان أقل الحديث عن هذا الفرنسى وأكثره عن عشيقته ، ولا يتناول الحديث كلمة واحدة عن زوجته، أما إذا كان الحديث بين إنجليزييْن عن إنجليزى آخر فإن أكثر الحديث يكون عن هذا الشخص وأقله عن زوجته ويخلو من أى كلمة عن عشيقته، وأكاد أقول إن فرنسيًا دون عشيقة أشبه شيء بإنجليزى لانادى له. وما أريد أن أعمّم، فإنى أقصد بعض فئات من سكان المدن فحسب، وإن كانت فتيات الريف كثيراً ما يخفين وراء خَفَرهن الظاهر جرأة تفوق جرأة منافِساتهن فى المدينة .

وثمة أمر واضح جلىّ هو ما طُبع عليه الفرنسيون من ميْل فطرى إلى المغامرات الغرامية وأخذهم أنفسهم فى ذات الوقت بتنشئة أطفالهم على احترام تقاليد الأسرة، مما جعل فرنسا مشهوداً لها بين دول العالم أجمع بأنها البلد الذى يعيش حياته المعقّدة بمنتهى البساطة ، كما يعيش حياته البسيطة بمنتهى التعقيد، على حين تجد التعقيد فى بلادنا أشد ندرة وأقل ظهوراً حيث قلة الأطفال تُهوّن من التردد أمام الإقدام على الطلاق. وعلى العكس فما أطْول تردّدنا عن غيرنا على الإقدام على ارتكاب جريمة عاطفية(١٧). إن قواعد لعبة الكريكت تهيمن على الرجل الإنجليزى حتى فى علاقاته العاطفية، وإن عاد منها بخُفَّى حُنَيْن، أوْبةً أشبه بالمأساة منها بالملهاة. فهو يتلقى خبر فرار زوجته مع عشيقها كما لو كان يتلقّى نبأ إخفاقه فى مباراة رياضية، فإذا ما فقد روحه الرياضية فثار غاضبًا بغريمه وقضى عليه، فسرعان ما ينكر الناس عليه ذلك، وما له أملٌ فى رأفة المحكمة به. ثم هو بعد هذا سوف يتسلم خطابًا رقيقًا

يبدأ بعبارة "سيدى العزيز" وينتهى بكلمة "المخلص" ، ينهون إليه فيه أنهم لسوء الحظ آسفون لاضطرارهم لشَنْقه . أما فى الضفة الأخرى من بحر المانش فما من شك فى أن هيئة المحلفين بها سوف تبعث إليه بتهانيها .

وفى فرنسا وإن كانت المرأة بحُكم القانون ليس لها حقوق، فهى مع ذلك وراء كل شىء ، كما أن كل شىء يكون من أجلها. إن شارع ده لاپيه (السلام) ودار القضاء والسُّخرية والسياسة والمغازلة والجمهورية كلها أسماء مؤنثة[١٨]. أما فى إنجلترا حيث المرأة تنعم بكافة الحقوق كما ينص القانون، فإنها لا تملك بعد هذا الإنصاف شيئًا ... حتى الرجال. السفن[١٩] وحدها هى المؤنثة، أما غير ذلك فالتذكير هو الطاغى. إن أرقّ وصف يمكن أن يطلقه شخص عندنا على امرأة هو أن يقول عنها إنها "رفيقٌ جيّد"[٢٠] .

وهذا ما قيل لى عن أورسولا .

ولقد رأينا كيف أضفت ملتنهام عليها طابع الرجولة وهى تتولّى تنشئتها. إن كل ما فى إنجلترا يتآزر لإنجاح هذه المؤامرة الكبرى ضد المرأة، فإغراقها فى الرياضة خلال فترة المراهقة يُخمد فيها الإحساسات الرقيقة، والنوادى تخطف منها زوجها، والمدارس أولادها، وتسلبها الثياب الجاهزة سحرها وجاذبيتها، فإذا هى بعد هذا قد أتى اليوم الذى ينضوى فيه سحرها وتنطفئ جاذبيتها .

ولكن سن الهزيمة عند المرأة الإنجليزية هو فى الحق سنّ انتصارها .

ففى الوقت الذى تركنُ فيه الفرنسية إلى التحفُّظ بارتداء الأقمشة ذات اللون السُّكَّرىّ أو الرمادىّ، تبدأ الإنجليزية بعد أن تكون قد تحرّرت من كافة القيود فى الأخذ بالثأر من الرجال فى حرية واسعة كاملة. أجل إنها تعيش من جديد ربيعها الذى أخمد الزىّ المدرسى التقليدى أنفاسه. ولكنها فى هذا الوقت المتأخر تعيشه بكل أبَّهته، فتبدأ بزرع حديقة فوق قبعتها، وبارتداء أثواب زرقاء سماوية أو ورديّة زاهية. وعندها وقد

أثبتت حقّها فى المساواة تأخذ فى سلوك مسلك الرجال، فإذا هى تمارس السياسة مثل ما يمارسون وتختلف إلى ناديها كما يختلفون، وبعد أن غدت امرأة بالمعنى الأكمل تصبح نائبة لرئيس جمعية الرفق بالعندليب التائه[٢١]. غير أن هذا الشرف لم تحظ به أورسولا. فلقد دقّت ساعة النهاية وإذا هى تلقى مجداً آخر أعْلَى وأسْمَى حين سقطت فى بومباى صريعةً خلال مباريات الحصول على كأس نائب الملك، بعد أن رفعوا حاجز القفز إلى متر وتسعين سنتيمتراً، وكانت أورسولا قد أصرّت على ركوب جواد أسْترالى معروف بجموحه. وانطلق الجواد "بهادور صاحب" نحو الحاجز وتلقّاه بصدره بعد أن تردّد أمامه بعض الشىء، ولكنه لم يجتزه، وإنما سقط سقطة قاضية .

كانت المأساة شاملة، فقد اضطروا إلى قتل "بهادور صاحب" رميًا بالرصاص، بينما انطلقوا بأورسولا إلى المستشفى البريطانى وهى فاقدة النطق .

وها هما هذان الخادمان الوفيّان للفروسية يرقدان الآن معًا فى هدوء تحت ثرى الهند .

الهامش

(١) حركة التوائية فى قشرة الأرض وقعت فى أواخر الزمن الچيولوچى الأول أسفَرتْ عن مرتفعات وسط أوربا (المعرّب) .

(٢) lie - de - France دويلة جزيرة فرنسا هى المكان الذى نبع منه الطراز القُوطى والذى استغرق تطوّره الفترة ما بين عام ١١٥٠ و ١٣٠٠، ويُطلق هذا الاسم على تلك الرقعة التى كانت تضم الأراضى الخاضعة مباشرة لملك فرنسا حول پاريس فى مقابل الأقاليم الفرنسية الأخرى الخاضعة لسيطرة أمراء الإقطاع المتعدّدين. وشيئًا فشيئًا أخذت هذه المنطقة فى النمو على مرّ السنين ، سواء عن طريق الوراثة أو المصاهرة أو الغزو أو الشراء ، حتى تكوّنت نواة الأمة الفرنسية داخل باريس التى باتت مركز دائرة تنطلق منها الإشعاعات صوب المدن الأخرى (المعرّب) .

(٣) تعد كورن ميت Quorn meet مع پتشلى Pychley من أشهر أماكن لقاء صيادى الثعالب فى إنجلترا .

(٤) الأمازونات أمة أسطورية من النساء كانت تقطن بجوار نهر ثرمودون فى كپادوكيا باليونان، وكانت حياتهن وقفًا على الحروب والبطولة، ولم يكنّ يضاجعن الرجال إلاّ بين الفينة والفينة للإنجاب فقط، فإذا نسلن ذكورًا أهدينهم إلى آبائهم ، على حين يحتفظن بالإناث ويربّونهن تربية عسكرية قاسية ، حتى إذا بلغن سن الرشد استؤصل ثديهن الأيمن بالكىّ حتى يستطعن قذف الرمح بلا عائق وكذا تسديد السهام. وكلمة أمازون مشتقة من كلمتين يونانيتين "أ" وتعنى النفى و"مازا" وتعنى الغلال ؛ لأن الأمازونات اشتهرن بأكل اللحوم فحسب (معجم المصطلحات الثقافية. د. ثروت عكاشة لونجمان ١٩٩٠) .

(٥) أصْبح هذا الآن من النُّدرة، وعلى الرغم من هذا فلا يزال ذكر أى عضو يقع بين الذقن والرُّكبة فى إنجلترا مما يُحتاط فى التصريح به على الألسن (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٦) On ne badine pas avec l'amour ملهاة خفيفة فى فصل واحد لألفرد ده موسيه .

(٧) Lacrosse اسم أطلقه المستعمرون الفرنسيون على لعبة باجاتاواى عند الهنود الحمر فى كندا، ثم شاعت هذه اللعبة فى مدارس البنات الإنجليزية. وهى لعبة للكرة يستخدم فيها لوح من الخشب على شكل مضرب مزوّد بشبكة (ملاحظة الرائد) .

(٨) القصة حقيقية .

(٩) Thet would suit you perfectly .

(١٠) السنة الضوئية هى المدّة التى يقضيها ضوء الشمس فى الوصول إلى الأرض. والسنة الضوئية تُرْبى على السنة الشمسية، والكاتب هنا يريد الإفراط فى الكثرة .

(١١) للصحف أسلوبها فى مجال الحب. وعلى الرغم من أن لها طريقتها الخاصة فى عرض هذا الموضوع، فقد اقتبست مجلة New Statesman فى عددها الصادر بتاريخ ١٧ مارس ١٩٥٤ عبارة جاءت فى مقال نشرته مجلة The News of The World مُجملها : إن الحب كلمة تنطوى على دلالات مختلفة، ومن هنا كان علينا أن نحتاط لها فقد تُخفى فى طيّاتها أحيانًا دلالات جنسية (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(١٢) جدير بالذكر الإشارة إلى أن الفتاة الفرنسية العصرية عندما يُخيّل إليها أن كلمة "أحبك Je vous aime " فى لغتها القومية قد باتت بالية عتيقة تؤثر أن تقولها أو تكتبها بالإنجليزية I love you (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(١٣) لقد خطت الإنجليزيات فى ميدان الأزياء خطوات واسعة خلال بضع السنوات الأخيرة ، غير أنهن مازلن يرضخن لتقاليدهن القديمة (ملاحظة الرائد) .

(١٤) Une femme du monde سيدة المجتمع فى فرنسا تعنى تلك التى لا تأتمر بأمر أحد حتى زوجها ، على العكس من الغانية Demi - mondaine التى هى ملك الجميع (ملاحظة الرائد) .

(١٥) On ne me suit pas .

(١٦) على الرغم من اختلاف أساليب الشرطة فى لندن وباريس، فإن أثرها على الفتيان المتعقّبين واحد ؛ إذ سرعان ما يلوذون بالفرار حين تستصرخ الفتيات رجال الشرطة (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(١٧) Crime passionnel .

(١٨) La rue de la Paix, et la magistrature, l'ironie et la politique, la galanterie et la Re-publique .

(١٩) les paquebots.

(٢٠) A good sport (Un bon sport).

(٢١) قد يبدو غريبًا أن نتطرّق بالحديث إلى الطير والحيوان ونحن نتناول بالحديث الحب والنساء، ولكن إنجلترا هى بلد تلك العبارة : "من يُحبّنى فليُحب كلبى" ، على خلاف غيرها من البلاد التى تردد كلمة "أحبك" ، فالفرنسيون الذين يأكلون لحوم الخيل وغيرها من أنواع الحيوان الأخرى، لا تفوتهم مع ذلك فرصة يداعب فيها بعضهم بعضًا فيناديه بقوله : "قطتى الصغيرة mon petit chat أو "دُجاجتى الحلْوة الصغيرة" ma cocotte en sucre. أما الإنجليز الذين يتحفّظون التحفظ كله إزاء هذا اللون من المداعبة والذين هم أنصار معاقبة أطفالهم عقوبة جسمانية فإنهم يحيطون صغار خيْلهم وكلابهم بحنان ورقة. فإذا انكسرت مرة ساق حارس برج لندن مثلاً بعد أن تتعثر قدمه برُمحِه فمن النادر أن

يلفت هذا انتباه أحد. أما إذا مرضت "جودى" كلبة الصيد الخاصة بأحد كبار ملاك الأراضى – على نحو ما حدث أخيراً بلندن – فإن المدينة بأسْرها تهتز لهذا النبأ، وتقرأ وعيناها مبلّلة بالدموع النشرات الطبية الخاصة بها والتى تتتابع فى الصحف. وما أدرى إذا كان فى إمكان رجل الدين أن يجمع فى بلادنا من التبرعات لمشروع خيرى ، مثلما يجمع مثيله فى فرنسا ؟ ما أظن هذا ممكنًا إلاّ إذا قام بحملة لجمع تبرعات من أجل القطط الشاردة، فحصيلته حينذاك ستكون أوفر. وما من متسوّل واحد فى المملكة المتحدة سيعارضنى إذا ما قلت إن المتسوّل الكفيف المحترف يتضاعف إيراده فى يُسر ، إذا ما اصطحب كلبًا ذا نظرات حزينة، أما إذا اصطحب كلبة عمياء فجدير به أن يفكر فى اعتزال التسوّل لكثرة ما سوف يتدفّق بين يديه (ملاحظة الرائد) .

الفصل التاسع

الصديق اللدود بالوراثة

لقد كانت المأساة الوحيدة التى جدّت علىّ بعد وفاة أورسولا حين رُزقتُ بأخرة ولداً من مارتين زوجتى الفرنسية ، وبدأت هذه المأساة حين أخذنا نفكر فى اختيار اسم لهذا الوافد الجديد الذى كنت أميل إلى أن أدعوه باسم مارماديوك. فمنذ سنة ١٠٦٦ وآل طومسون بفضل جدّهم الثالث أرشيبلد - وهو ثالث حكام مقاطعة ستروفورنس - قد نجحوا فى أن يلحقوا أنفسهم بسُلالة وليام الفاتح وإن كانوا قد دلّسوا بعض التدليس فى العقب الأخير لهذه السلالة ، وجروا على أن يلقّبوا ابنهم الأكبر دومًا باسم مارماديوك. ولو أن الأمر كان لأورسولا ما اعترضت ، فكم أثارت هذه التسمية ضحكات مارتين مسترسلةً فيها وأخذت تقول : «كم يذكّرنى هذا الاسم بمربّى المارمالاد!" (مربّى البرتقال) المصنوعة فى داندى![1] ثم تردف فتقول لى: لست أدرى! أجادٌّ أنت فى هذه التسمية أم هازلٌ؟

وفى رأيى كرائد سابق فى جيش الهند أن مالم يكن من الجدَ حقا هو تسميتها له باسم «دوكى»[2]، الذى اقتبسته من المقطع الثانى لاسم مارماديوك، شأنها فى ذلك شأن أية فرنسية ماهرة، تستطيع أن تعدّ ثوبا من لا شىء ، وأن تستخرج اسمًا مدلّلا من أى شىء .

وانتهينا أخيراً إلى حل وسط، وهو أن ندعو الطفل بالحروف الثلاثة الأولى التى يبدأ بها اسمانا ، وأن نضيف إليها حرف « كاف » ، على أن يكون له بعد أن يشبّ حق تغييره أو قبوله كما يشاء ، وهكذا أصبح اسمه «مارك».

وما كانت ثمة قوة فى الوجود تحول بينى وبين أن أدعوه بينى وبين نفسى مارماديوك .

ولم يكن هذا النقاش الذى دار بينى وبين مارتين حول هذه التسمية إلاّ مقدمة لمأساة بلغت ذروتها حينما بدأنا نأخذ فى تعليمه .

ربّاه ! هل لمثل هذين الشعبين المتجاورين وبينهما هذا القُرب القريب أن يعيشا على مثل هذا التضاد فى كل مايفعلان ؟ ترى هذا واضحا فى تربية الأطفال وفى قيادة السيارات وفى نظام القضاء . فبعد أميال عشرين تجد الأمر هنا على خلاف ما تراه هناك ، فالفرنسيون يلدون أطفالهم لكى يأنسوا بهم ويستمتعوا بتربيتهم ، أما الإنجليز فما يكادون يلدون أطفالهم حتى يطوّحوا بهم بعيداً عنهم ، فمن بولونْى[٣] شمالا إلى شاطئ الريڤييرا جنوباً يعيش الأطفال مدلّلين بين أهليهم ، ومن فوكستون[٤] جنوبا إلى شمال إنجلترا يعامل الأطفال معاملة الكبار .

الأطفال فى فرنسا يثيرون حنان الآباء ورقتهم ، وفى إنجلترا يُنشِّئ الآباء الأبناء على الخشونة . الآباء الفرنسيون يسوءهم ألا تبدو على أطفالهم مخايل الذكاء المبكرة ، ويفزع الآباء الإنجليز إذا ما لاح على الطفل شىء من ذلك[٥] .

حدّثنى بربّك ، هل ثمة مايتيح تبادل التفاهم بين مثل هذين الشعبين ؟

لقد خيّل إلىَّ هنيهة أن هذا قد يكون إذا ربّينا الطفل أولاً فى فرنسا على يد مربية إنجليزية هى الآنسة « فيفذ » . غير أن مارتين سرعان ما أحست بخطورة الغزو البريطانى ، وإذا هى ترفع راية الإنذار البريتانى التى يتوارثها أهل إقليم بريتانىْ جيلا بعد جيل[٦] .

وكم أخذت مارتين وأعطت فى أن ترى ثمة « ضُرَّة » غير شرعية معها ، وإن كانت على شاكلتى إنجليزية ، غير أنى وجدت بين صديقاتها من ينصفنى فيقنعها بأنه ليس ثمة بعد المربّية الإنجليزية من يضاهيها فى تربية الأطفال، غير أن بعضهن عقّبن

فقلن : « أجل ... لاضير من أن تكون المربية إنجليزية ، ولكن لن تقع عيناك على ابنك بعد الآن » .

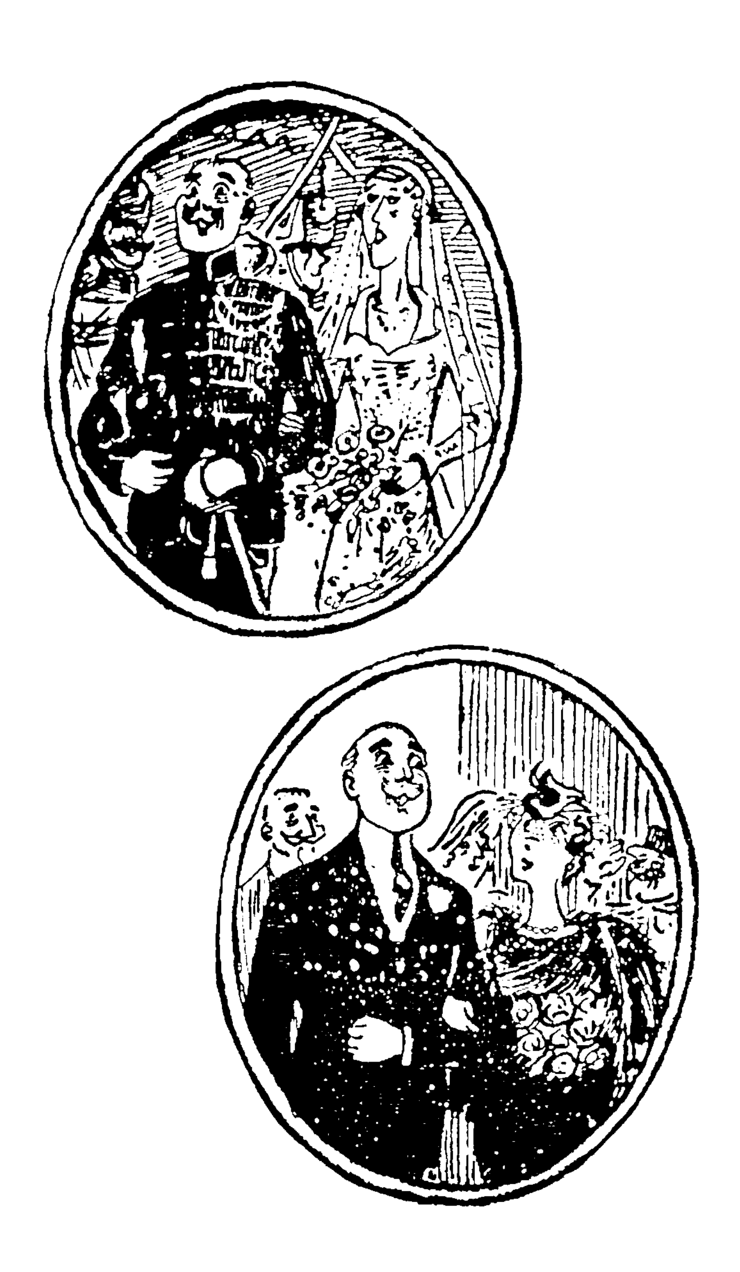
وانتهى الأمر بمارتين إلى أن ارتضت تلك المربية ، ولقد كان دخول الآنسة «فيفذ» إلينا أشبه ما يكون بدخول نفثة ريح ثلجية من بحر الشمال اقتحمت علينا مسكننا ، فلقد كانت بوجهها القرمزى غير المستوى الاستدارة وبأسنانها البارزة وبذراعيها المْعنتيْن فى الطُّول ، وبيديها الشاخصتى العظام بجلدهما الحرشفى الخشن ، كانت بهذا كله صورة للصرامة تجسّد ذلك / العدو الإنجليزى الوراثى للفرنسيين . وكانت فى حالتها تلك تذكَرنا بالملكة إليزابيث الأولى ، وهى تقضى بإعدام الملكة مارى ستيوارت ، أو بالملكة ڤيكتوريا التى كانت أشد ما تكون تزمّتا وحرصا على الفضيلة وهى تأمر باستئصال بؤر الرذيلة ، أو بتمثال « بريطانيا » بخوذتها الذهبية وفى قبضتها أعنّة حشد من العبيد ، فإذا هذه النزيلة التى انحدرت إلينا من أول دولة إلى الشمال من فرنسا قد اغتصبت منا بيتنا . ولم نفسرٍّ ذلك على أنه إعلان حالة الحرب ، بل كان إعلان حالة طوارئ ، فسرعان ما تحرّج الموقف فى لمح البصر ، وإذا الطاهية فلورين ترفض أن تعدّ « البوريدج » لها وهى تقول : « محالٌ أن أعدّ لها طعاما ! » ، وإذا الخادمة كلاريسا تقول وهى تواجهها : « مُوتِى جوعا ، فلن أحمل إلى غرفتك طعاما أبدًا » ، وكنت قد عرفت الآنسة " فيفذ" أول ما عرفتها فى الهند ، ثم انتقلت إلى إنجلترا لتعمل فى بيوت الحضانة المشهورة . وبعد هذا استدعاها مهراجا كشمير المتيَّم بالإنجليز وعهد إليها بأن تتولى أمر ابنه الخامل المحدودب الظهر وترعاه . فإذا هى تضع قصبة فى ظهر الصبىّ الشرقى لتنتصب قامته، وإذا هى أيضًا تدرّبه على الرياضة الطويلة سيراً على الأقدام صائحة به : "خذ نفسًا عميقا .. ارفع رأسك .. واحد اثنين .. واحد اثنين .." على نحو ما يُؤخَذ به جنود حرس صاحبة الجلالة وهم يطوِّحون أذرعتهم بقوة خلفا وأماما ، وإذا هى فى نهاية المطاف تخلق منه صبيًا سويًا .. وعلى الرغم من هذا فعندما غادرت هذه الإنجليزية سريناجار كان الصبىّ لا يزال هنديا كما تسلّمته ، لم

تفعل غير أنها سوت قامته وقد اطَرح عن عاتقيه الخمول والتراخى ، وأنسته عبارات الغزل الشرقية التى يشبّه فيها عيون الفتيات بزهرات النرجس ، كما جعلته يؤمن معها بأن الإله شيفا[٧] حين أرسل رياح المونسون الموسمية الممطرة أرسلها لاختبار مدى صلاحية المعاطف البريطانية للوقاية من المطر ! (وما أثبتت هذه المعاطف صلاحيتها فى الوقاية من هذه الأمطار) .

وفى بداية الأمر كانت ثمة معارك رهيبة حول نُطق الكلمات : إذ كان من الصعب على طفل لا يجرى فى عروقه دم بريطانى فحسب ، بل دمُ آخر فرنسى ، أن يقتنع بأن كلمة بوشام Beauchamp تُنطق بيتْشام Beecham ، وأن كلمة لا يسستر Leicester تُنطق ليستر Lest'r ، غير أن لا الطفل ولا واحد آخر فى البيت كان فى قدرته أن ينطق اسم الآنسة "فيفذ" ffyfth على وجهه الصحيح ، حتى إن الفأفأة به كانت من الصعوبة بمكان على ألسنة البريطانيين أنفسهم ، والطريف أن الآنسة "فيفذ" كانت تزهو بأن اسمها العريق المتوارث كان وحده يكفى لأن يكون مجالا لسلسلة من الدروس الخصوصية .

وما أقل تلك الأسر الإنجليزية التى احتفظت منذ العصور الوسطى باستهلال أسمائها بحرف الفاء مكرراً[٨]، ثم ما كان أقل تلك الأسر التى أضافت إلى هذا الترف ترفًا آخر، فزادت الحرفين th . وما أحوجنا إلى مالا يقل عن ألف سنة لكى نستطيع أن ننطق مثل هذه التركيبات المنطوية على إلغاز محيّر دون تلعثم ، وما أشقّ نطقها على ألسنة الفرنسيين ، وهو ما يحنقهم . ألَا ما أشد قناعة طاهيتى فلورين العجوز باسمها الذى لا يشمل غير فاء واحدة ، وليس فيه مثل هذا التعقيد ، فكانت لا تفتأ تقول : " ما أسعدنا حين ترحل عنا هذه الإنجليزية . وحسبنا أنها ستمتطى عند رحيلها فاءات ثلاث سوف تطوى بها الأرض طيّا ، فتفارقنا فى غمضة عين " .

أما مارتين التى أفلتت منها أعصابها ، فقد حاولت أن تثأر لنفسها فأخذت تحمل الآنسة " فيفذ " على أن تنطق بعض الأسماء الفرنسية المعقّدة مثل برُوى[٩] ومُويْوى[١٠] بل ولاتريمْوَاى[١١]، غير أن فكّى تلك الإنجليزية الغازية ما لبثا أن التهما جميع هذه الأسماء الفرنسية الأرستقراطية فى يسر ، فِعْل أسلافها الذين غزوا فرنسا قبلُ.



الزواج الأول : كنيسة سان مارك بشارع أودلى (لندن ١٩٢٩) .

الزواج الثانى . عمدية الحىّ السادس عشر (باريس ١٩٣٢) .

وزاد التوتر حدّة حين بدأت مارتين تحسّ صدق ما قالته لها صديقتها ، فما إن تدقّ الساعة السابعة حتى يحال بينها وبين أن ترى وليدها . فالقواعد التى رسمتها الآنسة "فيفذ" يجب أن تُحترم وهى تبغى أن يكون استحمام الطفل ونومه لوفق ما رسمت ، وإلا فهى فى حلٍّ من أية مسئولية . وهذا ما يحكم به الأسلوب الإنجليزى فى التربية .... واحكمى يابريطانيا !

وما وجدت مارتين بدّا من أن تصبر قليلا على تلك الحال ، غير أن مزاجها أصبح حادا ، وأخذت تميل بذاكرتها إلى استعادة الماضى . وما كان بعلمها قبل الآن أيهما سبق مجيئه : النورمانديون أم الساكسون ؟ وإذا هى بغتة تعود بخطاها إلى المجاهل الغامضة لتاريخ الأسر الحاكمة الإنجليزية ، وأخذت تندّد بما كان من ريتشارد قلب الأسد حين سلخ جلد جوردون حيّا ، وكانت وكأن علمها بأسرة پلانتاچنيه[١٢] لا يزال متمثلا فى ذاكرتها ، أو كأنها فرغت لتوها من إعداد رسالة عن تلك الأسرة . وكأنّى بها تنطوى على كراهية لى وهى تحدّثنى هذا الحديث وغيره ، غير أنها كانت تعقّب وتقول : " مابوسعك أن تفهم مغزى ما أقول ، فأنت إنجليزى .. ثم إنك إنجليزى قبل كل شىء".

* * *

وما أنا ممن يثورون غضبًا لمثل هذه الأمور ، فأنا أعلم حق العلم أن أى فرنسى حين يصارحك بأنه يكره الفرنسيين ، فما أسرعه أن يرتدّ ويقول : "ولكنا فى الحق بكم جدّ مولعين ! " وما أوثقنى بما أقول ، وأراهن على ثقتى هذه بزجاجة من الويسكى .

فالفرنسى يرى الإنجليزى دوما رجلين : رجلا دمثا هو الذى يبدو له فى المباراة بين جامعتى أكسفورد وكامبردج[١٣]، وآخر شكسا يتمثل له فى حادث فاشوده[١٤] . والحكم فى هذا دوما هو مزاجه الشخصى . فلا يغيب على أحد منا أن العدو الحق

العتيد للفرنسيين هم الألمان . ومع ذلك فإن كثرة من الفرنسيين الذين يستجيبون لمن يُذْكون فيهم جفاءهم للإنجليز (ذلك العدو التقليدى الذى تثير ذكراه فيهم جفاء متوارثا ، لولاه لأصبح المروّجون له دون وظيفة فى المجتمع) يلقّنون ذراريهم دوما جيلا بعد جيل أن ثمة عدوًا متوارثًا هو بريطانيا ، وبالرغم من هذا فهو أوْفَى الخصوم ودًا لفرنسا خلال سنِى السِّلم .

ومالى لا أنصفُ فأقول إن للآنسة "فيفذ" أسلوبها الخاص فى تلقين التاريخ للأطفال ، فما أكثر ما يبلغ صوتها مسمعى وأنا فى الدور العلوى وهى تذكر حرب الأعوام المائة فتقول : « وعندها عبر الملك إدوارد الثالث نهر السوم وبين يديه فلاح من مواطنيك الفرنسيين يدعى جوبان آجاش(١٥)، حتى إذا ما بلغ به قرية كريسى(١٦) تلبّث الملك ليرى رأيه . وبقى ملك إنجلترا فى مكانه ، إلى أن وقع نظره على الفرسان الفرنسيين قادمين ، فكانت تلك الحرب التى امتدت أعوامًا مائة ، حتى الرماة الإنجليز أقواسهم من أغصان شجر الدردار اللدنة وجعباتهم مدلاّة على جنوبهم ، يغدون ويروحون فى نشاط فائق وخفة بالغة ، وحيث الفرسان الفرنسيون تعوق الدروع الثقيلة حركاتهم وقد تقدموا تحت وابل من السهام ، وإذا الحظ يتعثر بهم ؛ إذ انهمرت السماء بماء متدفق ، فلقى الفرنسيون أسوأ هزيمة " . وتردف الآنسة " فيفذ " فتقول : " ما أسوأ ما كانت قيادتهم ، فلقد كانت أساليبهم الحربية - كما هى الآن - عتيقة بالية . هذا إلى أن خوذاتهم الحديدية كانت تكاد تحبس أنفاسهم .

وكم كان يراودنى خلال أمسيات الشتاء التفكير فى حرب الأعوام المائة وفى تلك الأسماء التى شاركت فيها ، والتى يدوّى صداها فى مدرسة بدورستتشر دوىّ الاعتزاز والفخر ، ومنها كريسى وپواتييه(١٧) وأزينكور(١٨) . وتعجب حين ترى أن تلك الأسماء نفسها فى إحدى مدارس الليسيه بنورماندیا وعلى بعد عشرين ميلا من مدرسة دورستتشر - تعدّ وصمة عار فى جبين الفروسية الفرنسية . وهكذا فعلى حين يُمْسى المساء يشعر خمسون تلميذا من تلاميذ المدارس الإنجليزية الذين تجرى فى عروقهم دماء الأمير الأسود(١٩) الحارة بالزهو والفخار - يشعر فى الوقت نفسه خمسون

تلميذا من الفرنسيين الذين تغمرهم الأنَفة والكبرياء بالحزن والاكتئاب يملأ عليهم قلوبهم وهم يذكرون كيف سيق چان الطيب (وإن لم يكن فطنًا)[٢٠] إلى إنجلترا أسيرًا مكبَلاً بالأغلال. ألا ما أسوأها من ذكرى لهم !

ومضت الآنسة فيفذ تجوس بخطوات واسعة فى ثنايا التاريخ ، فإذا هى تُبدى أسفها على مصرع چان دارك التى أحرقت لمزاولتها السحر ، وهى لم تنس أن تشير إلى أن المحكمة التى قضت بإحراقها كانت مشكّلة من قضاة فرنسيين ! وأن ملك فرنسا شارل السابع حينذاك لم يمدَ يد العون لإنقاذها. ألا كَمْ يثير هذا العجب !

ثم إذا هى سرعان ما تصل إلى الحديث عن ناپليون . ومع أنها لم تعرّج على ذكرى معركتى الطرف الأغر ووُتَرلو فقد ذكرت كيف هزم ولنجتون ناپليون قبلُ فى معركة "ڤيمييرو" ، ثم تلتفت إلى الصبى بين يديها وتقول وهى تمطّ الحروف مطًا : " ڤى ... مييه ... رو ... إياك أن تنسى اسم هذه المعركة أبدا " . وينتهى المطاف بهذا الرجل القصير ذى القبعة السوداء التى تثير العجب وما حقق حلمه ، وما وطئت قدماه أرض إنجلترا .. فدونه البحر .. ثم دونه هذا الأسطول البريطانى الرابض ياعزيزى .. فما رأى ناپليون إنجلترا إلا عن بُعد وهو على السفينة " بليروفون "[٢١]، وما أتيح له أن ينزل بها . وهكذا ترى أن النزول بأرض إنجلترا ليس مطلقا ، فلم يكن أمام ناپليون مهما كانت شخصيته إلا أن يخضع للنفوذ البريطانى ويرضخ .

وأغلب الظن أن مارك كان على غير رأى مربّيته فلقد فوجئت الآنسة " فيفذ " بما رأته من عبوس على وجهه ، فهى لم تع تلك الحرب المستعرَة فى ذهنه بين كريّات دمه " المشتركة " ، وهى لم تدرك أن هذا الطفل يجمع بين بعض من ولنجتون وبين بعض من ناپليون ، مع ميل أكمثر قليلا إلى ذلك القائد ذى القبعة التى تثير العجب ، والذى يستحوذ على الألباب بالرغم من كل شىء ، وكذا قد غاب عنها أن الطفل بنصفه الفرنسى كان يعلم حق العلم أن المارشال جروشى[٢٢] قد أدرك ميدان المعركة فى

ووترلو فى اللحظة المتفق عليها ، وإذا هى لم تستكمل الأحداث ، وانتقلت إلى الحديث عن تشييع نابليون إلى منفاه بسانت هيلانه .

وبقى عهد الآنسة " فيفذ " اثنين وعشرين شهراً تامة كاملة ، استطاعت فيه أن تُبعد ثلاثا من الطاهيات وخمساً من الخادمات ، أما عن السادسة فقد أصيبت بالخبل من جرّاء شطط الآنسة " فيفذ " فى طلباتها غير المعقولة وإصرارها على عادة تناولها شاى الصباح فى ساعة جدّ مبكرة .

وتبيَنت الآنسة " فيفذ " ذات يوم أنه ثمة شىء فى الخلق الفرنسى من غير المستطاع استئصاله أو تهذيبه ، هو الضيق بالعوانس .

من أجل هذا رحلت . رحلت فى جلال مهيب ، بعد أن جهدت جهدها فى أن تجعل من مارك رجلا حقا . غير أن النظرة الشذْراء المتقدة التى رمتنى بها الآنسة " فيفذ " حين اضطررت إلى التسليم والرضوخ لإبعادها عنا كان لها أثرها فى نفسى ، ولكن كان علىّ أن أختار بينها وبين سائر الخدم .

ربَاه .. أيتها الآنسة فيفذ .. لسوف تبقى هذه النظرة اللعينة تلاحقنى إلى مثواى ! وجاءت حرب عام ١٩٣٩ لتؤيد ما استحوذت به الآنسة فيفذ على قلب مارك الغض . فقد كان ابننا عندها يقضى إجازته بإنجلترا حين بدأت الحرب ، فرأينا أن يبقى هناك ليتابع دراسته فى شروْپْشَر ، حتى إذا ما عاد مارك بعدها إلى فرنسا كان إنساناً آخر ، وبدا وهو فى قبعته المدرسية الإنجليزية (الكاسكيت) وسراويله الرمادية ومعطفه الأزرق الداكن الواقى من المطر وكأنه بريطانى قح . وكان مما درسه هناك أن الأرض كوكب تحتله إنجلترا وليس حواليها غير صحراوات نزلت عنها إنجلترا للفرنسيين كى يلهوا فيها ، بإنشاء خط حديدى بقوا حياتهم كلها يَعِدُون بتشييده ولم يُنْجِزُوه(٢٣). كما درس أنه ليس ثمة وضع على وجه ذلك الكوكب يثير الحسد غير وضع بريطانيا العظمى الجغرافى ، الذى جعلها فى أمن من العوز وجنّبها دخول غازٍ يُهجِّن جنسها ، ويُفسد عليها عاداتها وطباعها .

وتعلّم أيضا أن الفرنسى مُزارع متقلّب يحكمه هواه ، فَكِهُ كثيرُ الدُّعابة ، كما لُقّن أن الفرنسى أعجز ما يكون عن أن يشيِّد سفينة تقوى على أمواج البحر ، وأن غاية ما يشتهى أن يبدو أنيقا ملحوظا كالچنتلمان الإنجليزى ، فيشترى ولو مرّة قبعة من محل لوك بلندن .

وقـد ألِفَ الصـبىّ عن أسـاتذته الذين تولَّوْا تنشئـتـه فى ظل قـانونـهم الصـارم الـذى هـو أسـرع مـا يكون إلى اللـجوء إلى العصـا اللدنة واستـخدام الكفّ المتـحفِّز أن خيـر وسيلة لينشـأ « چينتلمـانا » مـهذَّبًا هى أن يتـقبل تلك الصـفعـات دون أن ينبس ببنت شفة .

وكم أدهش أمـه مـارتين نفـوره من تقـبـيل أيدى السـيـدات ، وإذا هى تفـزع حين وجدته يحيِّيها بقوله : " مساء الخير يا أماه " ، دون أن يقبِّلها .

وقد أخذ مارك بعد ثمانية أيام من عودته يختلف إلى مدرسة فرنسية ، حيث تعلم أن مـا كـانت چان دارك تسـمـعـه من أصـوات حق لا وهـم ، وأن واحـدا من شـجـعـان البحـارة الفرنسيين يدعى سوفران أخذ يتعقب السفن الإنجليزية، إلى أن بلغت خليج البنغـال ، وهناك ألقى عليـها درسـا قـاسـيـا ، وأن إنجلترا لم تعـوِّض فرنسـا عن كندا والهند اللتين انفلتتا من قبضـة فرنسـا إلا بثمن زهيد، هو بعض جزر الأنتيل الصغيرة وكذا خـمسـة مراكز تجارية ، هى بونـدتشرى وتشـاندر ناجور وثلاثة أخر تغيب عن الذاكرة .. ومـا أشبه هذا بما انفلت من يد فرنسا من أموال باذخة على يدى مدام ده پومپادور عشيقة الملك لويس الخامس عشر ، التى كانت تنفقها عابثة لاهية .

كذلك لقن أن الإنجليز – أَكَلة الصلصـة بالنعناع – على الرغم من مـهارتـهم فى لعب الكريكت والجولف لم يبلغوا المستوى الفكرى الذى بلغه من أثاروا معـركة القدامى والمُحدثين(٢٤)، كما لقن أن الفرنسيين هـم أول من يُقذف بهم فى أتون الحرب ، على حين يتلبث الإنجليز طويلا إلى أن يرتدوا شكّة الحرب ، وبعد شـهور تسـعة كان الصبى قد استنفد جـهده كله فى ترجمة مقتطفات من كتاب لاتينى لمؤلف رومانى عن " الشيـخوخة " ، وفى محـاولته عبثـا أن يفـهم النظرية القائلة بأن المربع المنشـأ على وتر الزاوية القـائمة مسـاحتـه تسـاوى ضـعف مسـاحة المثلث .. وإذا هذا الطفل بعـد هذا كله يتـأرجح بين



الآنسة فيفذ تودع الرائد ، بنظرة شذراء .

ميدان الطرف الأغر " بلندن وبين ميدان " بينَا " بباريس ، ثم بين محطة " ووُتَرلُو " بلندن وبين محطة " أوسْتِرلِتّز " بباريس .. وإذا هو يكتشف أخيرا أن الشعوب لا يحارب بعضها بعضا إلا للفوز بأسماء تسمَّى بها بعدُ محطات السكك الحديدية والميادين العامة ، وأن اللاتينيّين خاصة لا يعلمون عن شوارع يجوبون فيها ليل نهار تسمّى ٢٩ يوليو أو ٤ سبتمبر غير أسمائها ، ولا يعرفون لِم سُمِّيت بهذه الأسماء . وإذا الصّبى مُشتّت الفكر موزّع اللُّب ، من هنا كان لزامًا علىّ أنا وأمه أن نجد حلا لإنقاذه ولعودة عقله المكدود إلى طبيعته .

وكانت مارتين لا تفتأ تردّدُ : مُحَالٌ تحت ضغط أية ظروف أن نرسله مرة أخرى إلى إحدى مدارسكم الإنجليزية اللعينة !

وكنت لا أدعها تتم كلامها حتى أقول لها : أما عنّى فلن أتركه ينشأ فى مدارس الليسيه الفرنسية اللعينة كى يشبّ مُحْدَوْدَب الظهر ! وانتهى الأمر بإرساله إلى سويسرا ، ذلك البلد الصغير العجيب الذى يعرف كيف يفيد من كل حرب ويفوز بنصيب الأسد .

الهوامش

(١) ميناء اسكتلندى يشتهر بصناعة الجوت والمواد الغذائية . والمؤلف يستخدم التشابه بين الاسمين : مارماديوك ومارماليد ، ومعناه طريقة معينة لصنع المربى المدهوكة .

(٢) Doukie . ما إن تكون مارتين فى أحسن حالاتها حتى يتحول اسم دوكى على لسانها إلى دوكى دوكى .

(٣) أول ميناء فى شمال فرنسا يصل إليه المسافر الإنجليزى .

(٤) أول ميناء فى جنوب إنجلترا يصل إليه المسافر الفرنسى .

(٥) لا أقصد أن لمواطنى المبجلين ولعًا بالأطفال المتخلفين، ولكنى أقصد أنهم يؤثرون أن يظل الأطفال أطفالا. فبينما يزهو الفرنسى بما يبدو على وليده من مخايل الرجولة المبكرة ، يغرم الإنجليزى بأن يحدثك عما جرى على لسان ابنه من مرح الطفولة ، فهو على العكس من الفرنسى لايسعد بأن يرى وليده يفوه بما لا يتفق وسنّه (ملاحظة الرائد) .

(٦) كانت مارتين من مقاطعة بريتانى فى شمال فرنسا التى كانت بينها وبين إنجلترا حروب متصلة .

(٧) Siva هو الإله الثانى فى الثالوث الهندوكى بعد براهما وفشنو ، وعقيدة فشنو أشد عقائد الهندوكية الحديثة شيوعًا ، ويعنى اسمه بالسنسكريتية الميمون أو البشير ، ويجسّد خصائص الإفناء وإعادة الخلق ، وإن كان الشائع أن ينظر إليه بوصفه الإله المدمّر (معجم المصطلحات الثقافية . د. ثروت عكاشة) .

(٨) لم يكن عزوف الآنسة فيفذ ffyffth عن الزواج إلا عن حرص منها فى أن يبقى اسمها كما هو لايشوبه شىء وإن ضحت فى سبيل ذلك بالزواج . فحين بلغت العشرين من عمرها وقعت فى غرام من يدعى ميرثيليد لينفارثا Merthylyd llynfartha ، وإذ كان لقب هذا الفتى يبدأ بلام ثم لام ، وهو مايتعارض مع لقبها الذى يبدأ بفاء ثم فاء كما ينتهى بفاء ثم ذال ، أشار عليها أبوها بأن تعود إلى رشدها وتخلع عن وجدانها حماقة الحب . وهذا ما يفسر لنا بقاء الآنسة « فيفذ » عذراء حياتها (ملاحظة الرائد) .

(٩) Broglie .

(١٠) Maupéou .

(١١) La Trémouille .

(١٢) Plantagenets هو لقب الكونت دانچوچوفروا الخامس ، وكان يستخدم للدلالة على انحداره من سلالة الأسرة الحاكمة فى إنجلترا من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١٤٨٥ ، وكان من بين ملوك هذه الأسرة المشهورين ريتشارد الأول (قلب الأسد) (المعرب) .

(١٣) لهاتين الجامعتين من كل عام سباق للزوارق تبدو فيه الروح الرياضية بأجلى معانيها (المعرب) .

(١٤) احتلت حملة فرنسية بقيادة الجينرال مارشان مدينة فاشوده بالسودان قرب بحر الغزال عام ١٨٩٨ ، غير أن الجنرال كتشنر أزاحهم عنها على رأس حملة إنجليزية مصرية، واحتل المنطقة بأكملها (المعرب) .

(١٥) جوبان آجاش فرنسى خائن لبلاده أرشد الملك إدوارد الثالث ملك إنجلترا إلى مخاضة عبر منها هو وجيشه نهر السوم دون عناء ، وأفلت بذلك من حصار الجيش الفرنسى (المعرب) .

(١٦) كريسى معركة شهيرة وقعت فى ٢٦ يوليه ١٣٤٦ هزم فيها إدوارد ملك إنجلترا فيليب الرابع ملك فرنسا هزيمة منكرة ، وذلك لحماقة الفرنسيين ؛ إذ شنوا هجومهم على المواقع البريطانية الحصينة على الرغم من أن الوقت كان متأخراً ، وعلى الرغم من أن جيادهم كانت منهكة من طول ماقطعت لتبلغ ميدان القتال (المعرب) .

(١٧) موقعة بواتييه التى هزم فيها الأمير الأسود الإنجليزى چان الطيب وأسره (المعرب) .

(١٨) موقعة أزينكور انتصر فيها الجيش الإنجليزى فى ٢٥ أكتوبر بقيادة هنرى الخامس على جيش فرنسى ضخم بقيادة شارل دالبرت خلال حروب المائة عام (المعرب) .

(١٩) لقب كنى به ابن إدوارد ملك إنجلترا لأنه كان يحمل درعا أسود ، وقد عرف بعدائه للفرنسيين وكتب له النصر عليهم فى معارك عدة (المعرب) .

(٢٠) چان الطيب أحد ملوك فرنسا ، هزمه الإنجليز فى موقعة بواتييه فى ١٩ سبتمبر ١٣٥٦ (المعرب) .

(٢١) السفينة التى نقلت نابليون إلى منفاه بجزيرة سانت هيلانه .

(٢٢) هو المركيز المارشال إيمانويل جروشى أحد قادة نابليون ، وعلى الرغم من وصوله فى الوقت المناسب إلى ميدان المعركة فى وترلو فإنه عجز عن الحيلولة دون اتصال الجيش البروسى بقيادة لوخر والجيش الإنجليزى بقيادة ولنجتون (المعرب) .

(٢٣) يشير الكاتب إلى الخط الحديدى عابر الصحراء الذى ظل الفرنسيون أمداً طويلاً يعدون به، ولم يتم منه غير الجزء الممتد من چيبوتى إلى أديس أبابا (المعرب) .

(٢٤) Querelle des anciens et des modernes النزاع بين القدامى والمحدثين هو نزاع أدبى فى فرنسا وإنجلترا، استغرق المدة ما بين ١٦٨٧ و ١٧١٦، وأساسه اتجاه الشعراء الفرنسيين فى القرن ١٦ إلى نشر وعى جديد بضرورة نهضة الآداب المحلية، أى الإيطالية والفرنسية بدلا من الاستمرار فى الالتزام بتقليد الأدبين اليونانى والرومانى. وفى منتصف القرن ١٧ ظهر نوع من رد الفعل ضد هذه النزعة الوطنية فى الأدب ، ومن المميزات الحضارية لهذا النزاع تصادم الآراء فى الموازنة بين حضارة قديمة عظيمة لم تنعم بنور الإيمان بإله واحد ولا بالتقدم العلمى ، وبين حضارة حديثة تتمتع بهما وإن لم تنجح فى إنجاز ما أنجزته الحضارة القديمة من أعمال أدبية خالدة (معجم المصطلحات الأدبية د. مجدى وهبة) .

الفصل العاشر

اللغة الفرنسية كما
يتحدّث بها أهلها

كم حاولت جهدى أن أعرف السبيل إلى إجادة اللغة الفرنسية ولكن عبثا ، فثمة معاجم جيب تمهّد السبيل إلى التحدث بالفرنسية ، وتنتظم عبارات تُكتب بالهجاء الإنجليزى لتيسير النطق بها على البريطانيين ، مثل : معذرة Excusez-moi وتكتب Ekskyze-mwa ، أو: هل ثمة من يتحدث الإنجليزية هنا ؟ Y-a-t-il quelq'un ici qui Parle anglais ? ، أو: إنى أجنبى Je Suis étranger، وتكتب Ze suis etranger .

وكم أفدتُ من معاجم الجيب هذه التى زوّدتنى بقدر كبير من العبارات التى تعيننى على الحديث ، مثل : " إلىّ برقعة الشطرنج ياجرسون " أو : " هل علينا أن ندفع أجرًا لعبور هذا الجسر ؟ " وعلى الرغم من أنى أفدت من هذه المعاجم عند الضرورة إلا أنى على استعداد لأن أنزل عنها لمن هو راغب حقا فى تعلم الفرنسية ، ولن أثقل عليه فيما سأطلبه نظيرها من ثمن .

وإذ كنت قد وجدت شيئًا من العُسر فى استخدام بعض ما احْتَشَدَتْ به هذه الكُتيبات من عبارات صَعبة غريبة لا تسعف عند الحاجة ؛ من هنا آليتُ على نفسى أن أفعل فعل غيرى من الإنجليز الأجلاّء الذين لا يُعنّون أنفسهم فيتحدثون الفرنسية ، وإن تحدّثوا بها فما أكثر ما يُخطئون . إذ سَرْعان ما ينبرى لهم فرنسى يزهو بتكلّمه

الإنجليزية (Spiking English) فيُسْعفهم متمشدقًا بعبارات إنجليزية لقنها فى مدارس الليسيه ولكن بلهجة فرنسية ، فيقول ؟Ji y a t- il qui panle L' anglais

ومن الإنجليز من يلزمون أنفسهم بعدم التحدث بالفرنسية مع فرنسى فى بلده ، فإذا ما نزل بلدًا آخر غير فرنسا يتكلم أهله الفرنسية بلهجة مغايرة ، مثل كندا أو بلجيكا – وهذا حين تواتيه الفرصة ، فيكون مبعوثا إليه أو مشاركا فى حرب على أرضه – يجد من هذا المناخ فرصة مواتية لكى يدرّب لسانه على الحديث بالفرنسية . ولكن قد يفوته أن هذه الوسيلة قد تحمل وراءها أخطارا جمة .

فكم كنت أثق بما يؤكده الكنديّون من أنهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يتكلم الفرنسية السليمة التى كان يستخدمها مونتنى ، فإذا ثمة مسمّيات فى كندا لها أسماء فرنسية ذات دلالات لا تتفق وتلك المسمّيات . فهم يسمّون مثلا حذائى الجليد بعبارة فرنسية تعنى " صفّاقتين " Une Paire de Claques (والطريف أن الفرنسيين أنفسهم يطلقون على حذائى الجليد اسما إنجليزيا Snow- boots) ، كما يسمون التاكسى بلفظة فرنسية تعنى المركبة الحربية un char . من أجل هذا أنصح مواطنى المبجّلين وهم فى فرنسا ألا يجاروا الكنديين فى تسميتهم هذين المسميين بالأسماء الكندية .

أما إذا ما ذهبت إلى بلجيكا كما ذهبت أنا قبل أن أذهب إلى فرنسا فما الخطبُ بأيسر . فحين نزلت باريس قادما من لييج كانت لا تزال تعلق بذهنى تلك الكلمة التى يستخدمها البلجيكيون فى تسميتهم الغرفة Place بالمكان Pièce . فما إن لقيت سمسار العقارات بباريس وسألته : هل ثمة مسكن لى مكون من أماكن أربعة ؟ فإذا السمسار يسخر منى ويقول : أتريدها أماكن فى اتجاه سير القاطرة ؟

هنا أدركت أنى قد وصلت إلى البلد ذى البديهة الحاضرة ، ورأيت أنى لو بقيت أحتفظ بتلك العبارات البلچيكية لأرسل بى إلى مستشفى المجاذيب المستعصى علاجهم .

وما من شك فى أن خير طريقة لتعلّم الفرنسية هى أن تعيش بين الفرنسيين تلقن عنهم وتحدّثهم . إذن ألم يكن من الخير حين تزوجت فرنسية لكى أبادلها الحديث ؟

وما إن استقر بى المقام فى فرنسا حتى أحسست أن الأمر أعقد مما كنت أظن ، ففرنسا تعيش على لهجات مختلفة ، فثمة لهجة لشمال الآردِن تختلف عن زميلتها فى جنوبه ، وثمة لهجة لشمال نهر السوم تختلف عن لهجة جنوب اللوار ، وثمة لهجة ثالثة لشرق الماسيف سنترال ، هذا إلى خمس وخمسين لهجة أخرى : ومن هنا كان من الصعب علينا أن نتعرّف مَنْ فى الفرنسيين يتكلم الفرنسية السليمة . فأهل ليون يسخرون من لهجة أهل مرسيليا ، وأهل بوردو يستخفَون بلهجة أهل ليل ، وقد يهزأ سكان نيس من أهل تولوز ، كما قد يتندَر أهل باريس بأهل فرنسا جميعا ، كما يسخر أهل فرنسا بأسْرهم من أهل باريس .

وإذا كان فى نيِّتى أن أتقن الفرنسية السليمة فلقد طوَّفت فى ربوع فرنسا المختلفة . وحين أكد لى الخبراء باللغة الفرنسية أن إقليم تورين هو معقل الفرنسية الجميلة فلقد قصدتُ قصده لأقوِّم فرنسيَتى . وحين عدت من تور إلى باريس وجدت أن بشرتى البريطانية القحة ذات اللون الأحمر الموشّاة بعروق زرقاء قد استحالت إلى بشرة قرمزية بفعل نبيذ ڤوڤريه Vouvray الذى عَبَبْت منه عبًا ، وعندما ضمّنى حفل للعشاء أخذت أصف لمن حولى على المائدة أثر نبيذ بُوْرجِىْ Bourgueil المستطاب الذى ينحدر فى الحلق فيغشَيه لذة[1] كما يقول أهل تور ، إذا القوم يرمقوننى فى دهشة ، كما لو كنت جلفا حلّ بينهم . وعندما انتهت السهرة وكنت قد غدوت ثملا من كثرة إفراطى فى تجرّع هذا النبيذ جرؤت وهمست فى أذن مارتين : " كم أنت مشتهاة !"[2]

وقد يكون قولى هذا فيه شىء من الجرأة من رائد سابق فى جيش الهند ، ولكن كان كل ما تلقيته من تعقيب منها على هذا القول أن تساءلت : هل أنت بخير ؟

وإتماما لما اعتزمت عليه من المضى فى تجربتى لتقويم لغتى أخذت أتابع رحلاتى إلى أنحاء مختلفة من فرنسا ، وبدأت بزيارة أصدقائى آل تيبرجن بمدينة روبيه الذين عرَفتهم خلال الحرب فرحَّب بى رب الأسرة ، غير أنه لم يقل لى تفضّل بالجلوس Asseyez-vous كما هى العادة ، بل قال لى : " ضع نفسك Mettez-vous " . وسرعان ما تبادر إلى ذهنى أى المَعْنَيَيْن يقصد ؟ أقَوله هذا طلبٌ إلىّ بالجلوس أم طلبٌ إلىّ عمّا إذا كنت أرتدى سروالا من الصوف؟[٣] وسرعان ما فهمت منه أنه قصد المعنى الأول حين أشار إلى المقعد وهو يكرّر عبارة : " ضع نفسك " .

فوضعت نفسى على المقعد .

وحين ذهبت بعدُ إلى مرسيليا سمعت المسيو باپالاردو يصيح بى عندما رآنى : يا عزيزى الرائد طومپيسنون عُدْ إلى رُشدك Re- Mettez-vous ، فحسبت أنه بهذه العبارة سوف يسعفنى بشراب منعش ، ولكنى سرعان ما أدركت بعدُ أن هذا تعبير آخر لدعوتى لأن أجلس .

فجلست لتوى .

من هنا أدركت أن اللغة الفرنسية تختلف باختلاف خطوط الطول . وعلى الرغم من هذا فالفرنسيون جميعا يفهم بعضهم بعضا على نحو ما ، ولكن من الطريف أن مواطنى إقليم الباسك يحلو لهم أن يتكلموا لغتهم الإقليمية فى حضرة الباريسيين والأجانب ، فهم يحسّون معها متعة فريدة . وعندها تجد نفسك حقا حائرا وسط ضباب لا تهتدى فيه إلى سبيل .

وأخيرا بعد أن قضيت فترة قصيرة فى بوردو تعلّمت فيها أن علىّ حين أبعث بثيابى للكىّ أن أقول أرسلوها إلى صاقلة القماش[٤] ، عدتُ إلى باريس تغمرنى السعادة ويملأ الفرح قلبى ؛ إذ سأحظى بجوار مارتين .

وبعد هذا كله ، تُرى هل يتكلم الباريسيون اللغة الفرنسية أم لا ؟ فلقد سمعت وأنا في زيارة لأسرة دانينوس ولدا لهم صغيرا لا يتمّ كلماته ، بل يقتضب أواخرها اقتضابًا[٥] ، ثم رأيته وهو يهمس في أذن أخته ملتفتا إليَّ حاسبًا إياي ثقيل السّمع فيقول في كلمات مقتضبة أواخرها : أرأيت إلى شاربه ! ما أعجب شعيراته ! ثم أرأيت إلى معطفه الواقي من المطر ! ما أعجبه[٦] .

عندها ما صدّقت أن هذه الكلمات المقتضبة هي لغة مونتسك (معذرة أردتُ أن أقول مونتسكيو) . تُرى هل لوْ دام الفرنسيون على اقتضاب كلماتهم على هذا النحو ، أتبقى كلماتهم بتمامها أم سوف تفقد نصفها بعد مرور خمسين عاما؟

ألا ما أروع هذا إن صحّ ، وما أقدرهم عليه .

وإذا ماتحدّثنا عن الباريسيين الواعين فما أيسر على أي إنجليزي أن يفهم عنهم ، إلا إذا ماخال بعضهم أنهم مضطرون إلى تنميق عباراتهم بكلمات أنجلوسكسونية ، ما أيسر فهمها على هؤلاء الفرنسيين ، ولكن ما أصعب فهمها على البريطانيين . فذات مساء ضمّتني أنا وسيدة مبجّلة حجرة استقبال فاستمعت إليها وهي تتحدث إلى رجل بكلمات تتصاعد مع دخان مبسم سيجارتها الذي غشّى رأسه ، وكان مما قالت : لقد كنت مدعوّة إلى حفل الافتتاح بمسرح هاي ماركت[٧] ، وكانت المسرحية أوكيه[٨] ، غير أنها حين عُرضت هنا في باريس مساء الجمعة كان الجمهور دون المستوى .. لم يكن غير جمهور من البلوك[٩]!

ولقد رجعتُ إلى معجم لاروس أبحث عن كلمة « بلُوكْ » هذه فلم أجد لها أثرا ، فخطر لي أنها ربما قصدت بها طبقة الدّهماء ، على أية حال فلقد أرادت مَنْ لا وزن لهم من الناس .



أما الطفل ، فناوله بعد نبيذ مونراشيه شيئا من نبيذ سانت إيميليون ، فذلك أخف عليه .

وصــاح هذا الرجل الذى غشّاه دخان سيجارتها عجبا بأسلوب كان هو الآخر غريبا : وچانو[١٠] .. ألم يكن هناك ؟

فردّت عليه : لا چانو ولا مارسيل ولاچان ولا غيرهم . فلقد كان حفلا يفتقد الحياة .

تُرى من يكون هؤلاء .. چانو ومارسيل وچان الذين ما أكثر ماسمعت أسماءهم تجرى على ألسنة الباريسيين ؟

هم ممثل شهير ، ثم مؤلف مسرحى مرموق ، ثم شاعر لا يقل عن زميليه شهرة !

لقد خيل إلىّ أن هذه الأسماء كانت لشخصيات مقرّبة إلى هذه السيدة وذاك الرجل وإلى مليونين أو ثلاثة من الباريسيين حتى نادوهم بأسمائهم الأولى مجرّدة ، إلى أن فطنت إلى أن هذه عادة أهل باريس عند التحدث عن شخص له شهرته ، فيكتفون بإطلاق اسمه الأول عند ذكره .

وثمة شىء آخر يخالف فيه الإنجليز الفرنسيين ، فقد تصحب الفرنسى سنين تُرْبى على العشر ، ولكنه يبقى ملتزما بأن يناديك بالمسيو طومسون مثلا ، ومع ذلك فلا حرج عند الفرنسى أن يذكر باسمه الأول من لم يعرفه ومن لن يعرفه .. أما عنا نحن الإنجليز الذين من دأبنا ألا نتردد فى أن ننادى شخصا باسمه الأول ولمّا تمض غير بضع ساعات على معرفتنا به ، دون أن يتبع هذا رفع الكلفة بيننا وبينه ، فما أكثر ما نتردد قبل أن ندعو سير لورنس أوليڤييه باسم « لارى » حين نتحدث عنه ، إلا إذا كان بطبيعة الحال من أصدقائنا .

وثمة مجال تتفق فيه الطبقتان المتحذلقتان فى بلدينا حين تخوضانه ، وإن اختلفتا شيًا . إنه مجال حرف « الهاء » H ؛ ذلك لأن أمل الصفوة الإنجليزية أن تصل إلى نطق حرف « الهاء » فى بداية الكلمات على وجهه الصحيح ، ولقد يقضى الإنجليزى عشرين عاما من حياته فى التدرب على نطق عبارة **Her Highness the Duchess of Hamilton** نطقا سليما ، كما عرفت نفرا قضوا نحبهم دون أن يحققوا هذه الأمنية . أما عامة الشعب فلكى يثأروا من طبقة الصفوة فإنهم يغضون عن حرف « الهاء » أنَّى

وُجد ، فيقولون a good otel بدلا من a good hotel ، بينما يدسّون حرف « الهاء » حيث لا يوجد ما يدعو إليه ، فيقولون an hangel بدلا من an angel .

أما فى فرنسا فإن هذه الحرب أقل ضراوة ، ولكن يصحبها تبديل فى الحروف – كما هى الحال عندنا – فالحرف E إ يصبح A أ . وقد أتيحت لى الفرصة خلال الأيام الأخيرة فى باريس كى أتحقق من هذا ؛ إذ سمعت سيدة متحذلقة تتحدث بلهجة كانت تأمل أن تحــاكى بها لكنة بريطانية فتقول : J'ai pris le tha chez la pocha, c'eta parfa! « لقد تناولت الشا .. عند آل پوشا .. وكان را .. » . وتطوعت مارتين ففسّرت لى أن تلك السيدة المتحذلقة إنما تعنى أنها تناولت الشاى سعيدة به عند آل پوشيه ، وأن استخدام كلمة رائع Parfait ليست مع ذلك إلا صيغة من مئات صيغ التفضيل الشائعة على ألسنة هذه القلة السعيدة عندما تريد أن تعبّر عن مشاعرها بعد أن تشاهد حفلة أو فيلما سينمائيا أو مسرحية . وأكثر هذه الصيغ استخداماً لدى تلك الطبقة هى : مدهش Mharvhailleux وإلهى dhivin وسام Sêublime[١١] .

أما ذروة الرقىّ التى لاتسمو إليها ذروة ، فهى أن تُتْبِعَ تلك الصفات بكلمة quoi بمعنى ماذا المعبّرة عن الدهشة . فيرفع أحد المولعين بالباليه مثلا عقيرته قائلا : لعمرى إن هذه الرقصة إلهية ! ثم سرعان ما يعقّب عليها بكلمة « ماذا ؟ » . ويقصد بكلمة ماذا ؟ أن يقول لك : « إنك لن تعارضنى الرأى . أليس ذلك كذلك ؟» . وبهذه الطريقة يستدرجك دون أن يُمهلك لأن تعقّب بشىء .

بحق السماء كيف يستطيع رائد سابق فى جيش الهند أن يلمّ بكل تلك الفروق الدقيقة اللعينة ؟ أضف إلى ذلك أن الفرنسيين فى هذا الميدان أو فى غيره من الميادين مولعون بترديد المفارقات اللغوية . فإذا هم شاعوا الحديث عن ذبابة ضئيلة رسمها پيكاسو فوق لوحة بيضاء لا شىء فيها وصَفُوها بأنها «ضخمة » énorme . ومع ذلك سمعت يوما سيدة تصف برج إيفل فى معرض حديثها بقولها : ترى ماذا أنا قائلة ؟ إنى لأراه دقيقا ممشوقا ![١٢]

قصدت ذات مساء مسرحًا من المسارح الصغيرة لمشاهدة تمثيلية من ذلك النوع الذى يطلقون عليه اسم « تمثيليات الطليعة » ؛ لأنك لا تفهمها إلا بعد تفكير طويل أو بعد فوات الأوان .

وكان الحوار محشوا بلآلئ الكلمات الجوفاء العابثة مثل :

- أهو من المشاة ؟

- لا ، بل هو سداسى الأضلاع !

ومع كل أعجوبة من هذه الأعاجيب التى تدور على ألسنة الممثلين كانت جارتى التى هى بلا شك خبيرة بهذا الأسلوب المسرحى تنقّ نقيقا .. وشاهدتها فى أثناء الاستراحة وقد أحاط بها جمع من الخبراء الذوّاقة جعلوا يردّدون فيما بينهم كلمات « عجيب » extrhaordinaire .. « مُدهش » quhable .. ماذا quoi ؟

ولا عجب أن تجد فى تلك البلاد التى أنجبت ديكارتْ طليعة من المثقفين الذين لا يجدون النُّور إلا فى الظلام . ولقد مرّ بهم حينذاك رجل مغمور من « العامة plouk » فإذا هو يقول إنه لم يفهم شيئا مما شاهده ، فانبرت له مَنْ كانت جارتى لتقول : بحق الشيطان ما الذى يجعلك تصرّ على أن تفهم شيئا ما ؟ ألا ما أشدّ بورجوازيّتك !

ما أعجب هذه البلاد ! يَسُبّ العمال فيها البورجوازيين ، ويسخرُ المُثقّفون من هؤلاء البورجوازيّين ، بينا تزدريهم طبقة الأرستقراطية . أما الذين هم أكثر نيْلاً من البورچوازية والذين يُعاير بعضهم بعضا بكلمة بورچوازى فهم البورچوازيُّون أنفسهم ، وأغرب من هذا أن الشعب كله ، من دهمائه إلى أعيانه ، وما يضمّ من صحفيين ومكتشفين ومُمثلين ، هذا الشعب بأجمعه تُظلّه مظلّة التأمينات الاجتماعية ، ويتحول أفراده يوما فيومًا ، أكثر فأكثر ، إلى البورجوازية .

إذن ما هى فرنسا ؟

إنها أمة من البورجوازيين تحاول أن تتنصّل من طبقتها بمحاولتها جاهدة أن تنال من البورجوازية .

الهوامش

(١) Gouleyant .

(٢) Ameugnounante شكل أهل إقليم أنجو بفرنسا من كلمة Mignon هذه الكلمة بمعنى لطيفة شهية .

(٣) لعبارة Mettez - Vous بالفرنسية معنيان ، أولهما ضع نفسك بمعنى اجلس ، والآخر ارتد . وبهذين المعنيين تلاعب المؤلف بالعبارة .

(٤) la lisseuse عاملة تبسط القماش بواسطة أسطوانة خشبية تسمى الكندرة (المعرب) .

(٥) كقوله T'es pas cap. (capable) de faire ca

(٦) T'as vu sa moustache ? Drolment au poil ! ... et son imper (impermiable) ? .. Im-pecc ! (impeccable) ..

(٧) Heimarquet Ciateur تقصد Hay Market theatre .

(٨) O . K .

(٩) Plouks

(١٠) تصغير چان .

(١١) Merveilleux ... Divin ... Sublime .

(١٢) Je la trouve mignon! .

الفصل الحادى عشر

الفَرنسى فى أسفاره

سوف أذكر على الدوام زيارتى لساحة معبد دلفى[١] الأثرية ، لا لجلال ذلك الموقع وسحره وما يفيض عليه من غيبيات الكاهنة بيثيا[٢] ، بل لتلك العبارة الغريبة التى جاءت على لسان واحد من أولئك الفرنسيين الذين اعتادوا الخروج فى رحلات على متن البحر ، بعد أن ألقى على المكان نظرة أراد بها متعته أولا ، ثم أن يزوّد آلة تصويره بمشهد ، وأخيراً لما لهذا المكان من صلة بوطنه فرنسا ، ثم التفت إلى زوجته يقول : ألا ترين ياعزيزتى أن هذا المكان يذكّرنا بملعب بلدية مدينتنا؟[٣]

لقد أحيا فى نفسى ماجاء على لسان هذا الفرنسى من ذكر لهذا المكان ذكريات عن مئات من التعليقات الشبيهة التى تجىء على ألسنة الفرنسيين وهم يطوفون بأنحاء العالم . هؤلاء الفرنسيون الذين لا تغيب عنهم صورة الهاقر وهم فى ميلانو ، ولا تغيب عنهم صورة الكوت دازور وهم فى فلوريدا ، ولاتغيب عنهم صورة ڤيزلاى وهم فى سان چاك ديكومبوستلا ، وعلى حين نرى الإنجليزى ، وهو يتطلع إلى خليج ريوده چانيرو أو كنيسة القديس بطرس فى روما لايخرج به التفكير إلى غيرهما نرى الفرنسى - وهو دون الإنجليزى تبسيطا للأمور - يغتنم الفرصة كى يسرح بخياله إلى خليج نابلى أو كاتدرائية شارتر .

وإنك لترى الإنجليزى وهو يعدّ حقيبة سفره يضع فيها كيس أدوات الحلاقة والمظلّة ، ثم لاينسى كذلك إذا كان قاصدا فرنسا أن يزوّد نفسه بموقد صغير لإعداد الشاى ، فلا يجد مأمور الجمارك وهو ينقّب فى حقيبته أنه ثمة شىء يُخفى . أما

المسْيُو توپان فقد ينسى حينًا فرجون أسنانه ولكنه لاينسى قط أن يحشو رأسه دائمًا بمجموعة هائلة من المقارنات التى تقف أمامها جميع الجمارك حائرة حتى اليوم(٤).

ومنذ فترة غير بعيدة صحبت آل توپان إلى بلدة بروچ(٥)، وإذا المسيو توپان يقول : « ياللغرابة .. كم تذكّرنى هذه المدينة بڤينيسيا !» .

ومضت على تلك الرحلة شهور ستة ، وبينما كان الجندول يتجاوز بنا « جسر التنهّدات » متجها إلى دار أوبرا لافينتشه إذا مدام توپان تصيح بزوجها قائلة : « عجبًا ياتونيه(٦) .. أترى إلى ذلك الرُّكن ؟ ألا يخيّل إليك أننا فى بروچ ! » .

وكان من البديهى فى ظروف آل توپان هذه - وقد كانوا فى الماضى يلزمون دارهم حتى استبد بهم مؤخرًا حنين جارف إلى التجوال والأسفار - أن يحتدم بينهم الحديث عن ذكرياتهم السياحية ، فأصبحوا لكثرة حديثهم عن بروچ وهم فى ڤينيسيا ، وعن أمستردام وهم فى كوبنهاجن ، لايستطيعون أن يذكروا على وجه الدقة أكانت رحلتهم عام ١٩٤٩ إلى ضفاف القناة الكبرى فى ڤينيسيا أم كانت عبر شاطئ زايْدرزى .

وفى مملكة المقارنات هذه تحتل المائدة المكان الرئيسى على الدوام ، خاصة وأن المقارنة ترجّح كفة المطبخ الفرنسى الفريد فى نوعه ؛ إذ يثق الفرنسى بالتفوق فى هذا الميدان فيرفض الأخذ والعطاء فى كل مايدور حول الطعام . ولقد تنبرى مدام توپان متطوّعة فتشرح لأهل هذا البلد أو ذاك كيف يعدون أطعمتهم القومية . فإذا جلست لتأكل العجائن المطهيّة بالطريقة الرومانية مثلا gnocchi alla romana شرعت تصف لهم كيف تعدّها هى بالطريقة الباريسية à la Parisienne ، حتى إن المرء ليخامره الشك فيما إذا كان يتناول طعامه فى مطعم بميدان آلما بباريس ! أما المسيو توپان الذى يعانى الكثير من كبده فإنه يحرص جاهدًا على أن يتناول شريحة « الكستليته » :



عجبًا ياتونيه .. أترى إلى ذلك الرُكن .. ألا يخيَل إليك أننا فى برُوجْ ؟!

(مُلتقى العديد من القنوات ببلچيكا شأنها شأن البندقية)

إذ يرى أنه من الصعوبة بمكان أن يحصل المرء على طعام غيرها مطهىّ على نحو موائم لصحته . وقد تسمعه يقول فى أسى وكأنه يذكر صديقًا عزيزًا غائبًا : واحسرتاه .. ما أشهى طبق اللحم المسلوق Ce brave pot au feu . لقد أذهلنى دائمًا حنين الفرنسى المغترب إلى طعام بلاده ! هل يكون انعدام هذا اللون من الحنين عند الإنجليزى هو الذى رزقه القدرة على استعمار العالم كله ، وعلى الاستقرار فى أى مكان دون أن يستشعر حسرة أو ندمًا ؟

ربما ..

إن هذا الفرنسى الذى يتطلع الى الآثار وألوان الطعام وكأنه آلة مقارنة بالغة الدقة يتحول إلى آلة حاسبة شديدة الدقة ، إذا نزل فندقا أو قصد محلا تجاريا .. ولمدام توپان أسلوبها الخاص الذى يعقد لسانى حين تتخذ من زوجها جهازا لتحويل العملة .. وإنى لأذكر تلك الأمسية التى قضيناها فى شراء أحذية من شارع فى سان سباستيان ، أذكر أن مدام توپان قالت لزوجها : كم تعادل مائتان وخمس وتسعون پيزيتا أيها العزيز ؟

وعندها شرح لها الزوج العزيز أن عليها أن تضرب هذا الرقم فى تسعة أو عشرة حسب سعر استبدال العملة ، وكانت النتيجة مايقرب من ثلاثين فرنكا ، فتصيح مدام توپان : يالجَسَامة الفرق ! إن هذه السلعة نفسها تُباع فى پاريس بضعف سعرها هذا على الأقل ..

وعندها يدخلان الحانوت ويشتريان ، ثم يلتقيان بعد برهة بنفر من الفرنسيين الذين اشتروا هذه السلعة نفسها بنصف القيمة من جنوب إسبانيا .. والأمر الغريب أنه كلما راقت مدام توپان سلعة برّرت شراءها بحجة أن السعر أصبح مناسبا بعد تحويل العملة . ومن العجيب أيضًا أن سعر البيزيتا هبط فجأة إلى سبع سنتيمات ونصف حين رغبت فى شراء شبشب ، وهو سعر قلّ أن يخطر على بال إنسان فى ذلك الصيف .

ولم يلق المسيو توپان مثل حظ زوجته فى الانتفاع بسعر الپيزيتا حين رغب فى شراء معطف مناسب له فى مدينة بلباو ، فإذا هى ترفع سعر الپيزيتا فجأة فيصبح

اثنى عشر سنتيما ، وتعقّب قائلة : أنا لا أبغى أن أحرمك شيئا تريده ياتونيه ، فستجد خيرًا من هذا المعطف فى باريس وأرخص منه ثمنا .

وما أيسر أن يقع الفرنسى على أسباب متجدّدة للمقارنة بين بلده وبين البلد الذى يزوره ، فإذا هو يقاربُ بين البازيليكا والكاتدرائية وبين البراكين وقمم أوفرنى وبين المصارف والقنوات وبين البيزيتا والفرنك ، ولاسيما إذا كان سعر العملة فى البلاد التى يحل بها أقل قيمة من سعر عملته .. وفى الحق أنه على الرغم مما يتّصف به من تسامح ونظرة راضية فإنه لايفتأ ينتقد كل مايراه . فهو يرى الناس هنا وهناك غير جادين : الأمريكيون عنده أطفال كبار ، والإنجليز عنده لاعبو جولف ، والإيطاليون عنده آكلو مكرونة ، والإسبان عنده مصارعو ثيران ، وأهل أمريكا الجنوبية عنده لاينقطع اصطيافهم . ثم هو فى قرارة نفسه لاينفك يردد : « إنه لامناص للمرء إلا أن يكون فَرنسيا » .

أما الإنجليزى فإنه لايسأل نفسه هذا السؤال أو على الأقل ليس على هذا النحو ، فقد تعلم بصفة قاطعة أن هذا العالم يحتوى على جنسين : الإنجليز ثم قبائل أخرى متنوعة . وفى عالمنا الحالى الذى يزداد فيه الاختلاط يوما بعد يوم ، حيث نجد فرنسيين فى جزر الكوكو كما نجد سكان جزر كاناك فى ستوكهلم ، نجد الإنجليزى لايزال إنجليزيا غير مختلط بغيره. إن ثلاثين كيلو مترا من مياه البحر وسورا تاريخيا من العادات والثياب يضعان جزيرته بمعزل عن التلوث بأية عدوى . وكما أن الإنجليزى عصىّ على أن يصاب بنزلة برد فى رأسه إلا نادرا كذلك هو لاينفعل سريعًا ، فهو مثل بضاعته لايتغير . إنه يطوف بكوكبنا الأرضى وكأنه بريطانيا العظمى متنقّلة فى صورة مصغّرة ، وهو أيضًا مثل جزيرته قريب وعصىّ المنال فى آن واحد . ومع ذلك فهو شديد الاهتمام بعادات الشعوب جميعها وطباعها ، وإن وجدها غريبة مضحكة ، ناظرا إليها بعين ذلك المكتشف الموفد فى مهمة إلى بلاد الزولو[٧] ، حتى إنه لايمسّ أفرادها

إن عنّ له ذلك إلا بطرف عصاه أو مظلته ، وتستبد به الدهشة حين يرى بين هذه الأقوام رجلا تبدو عليه سيما الچنتلمان « المهذّب » ، وبدلا من أن يتساءل كما يتساءل الفرنسي : « كيف يمكن للمرء ألا يكون فرنسيا ؟ » يتساءل : « إنه لما يدعو للأسف الشديد ألا يكون بريطانيا ! »(٨) .

وثمة شاشة سحرية بينه وبين العالم الخارجي تحجبه عنه ، يبدو من خلالها لهذا العالم الخارجي وكأنه مُصَفًّى من كل شائبة ، فثمة معطف واق خفيّ يحميه من كل تلوث خارجي ، فهو ينفذ من بين جموع الناس دون أن يمسّه أذى ، فيجوب في أزقة نابلي وبين الجماهير المتدفقة حول نهر البراهما پوترا(٩) سليما لم يُمسّ .

أما الفَرنسي فإنه يحرص عند عبوره حدود بلاده على أن يثبت ويبرهن على أنه صاحب السمعة الدون چوانية الوافد من باريس عاصمة الإغراء منذ ألفي عام ، فيسعى إلى أن يُحِبَّ ويُحَبَّ . وهذا الفرنسي الذي يعدّ نفسه حامل شعلة فرنسا الحضارية ومبادئ ثورة عام ١٧٨٩ لايتورع عن أن ينزلق إلى مغامرة غرامية ، حتى في مواخير الملايو أو بين الملوّنين .

أما الإنجليزي وهو بطبعه أشد تحفظا ، فما أسرعه إلى مشرب الشاي أو إلى النادي الإنجليزي . وسواء أكان في بومباي أم في كاراكاس أم في هاڤانا أم في لوسرن فإنه لاينسى دعائمه الأربع : ناديه والشاي والويسكي ولحم الخنزير المدخَن . وما يكاد يحلّ المساء حتى ينام في رعاية الله مطمئنا على أية أرض كان ، واثقا أنه حين يدهمه خطر ما سوف يلوذ برعويّته التي تحميه مردّدا بينه وبين نفسه : « إني مواطن بريطاني Civis Britannicus sum » ، متذكّرا القول القديم المأثور : « إني مواطن روماني » الذي فيه الاعتزاز بالنفس والزهو لمن يتمتع بهذه الجنسية أنّى حَلّ في جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية. وكذا يرى في العبارات التي يحتوي عليها دليل السفر الذي يحمله في جيبه تحت مادة « الشرطة والشكاوى » مايزكّي هذا الاطمئنان

فى نفسه ، حيث يجد عبارات مثل : لقد سلبونى كيس نقودى .. حقيبة سفرى .. معطفى ! قفوا اللص .. حريق ... النجدة .. أيها السائق قُدنى إلى قنصلية بريطانيا العظمى ! وسرعان ماتهبّ لنجدته وزارة الخارجية وسكوتلانديارد وجهاز المخابرات ، وإذا تطور الأمر إلى ماهو أكثر هولاً ، إذا بارجة صاحبة الجلالة المسماة « الانتقال » تبحر على الفور إلى عدن لحماية مستر سميث !

ويرجح فى ظنى أن مسيو توپان لايحسّ مثل هذه الثقة فى قناصل دولته أو فى أن لهم سلطانا ما .. فعلى حين لا أحب أن أتخم محفظتى بالأوراق أجد مسيو توپان يزحم محفظته بخطابات حصل عليها بعد جهد جهيد توصى به ، فتكون له هذه الخطابات أشبه ماتكون بامتداد تلك الوساطة الشائعة فى بلاده إلى ماوراء حدوده ، فتلفت نظر الدوق دى رودريجو أو قاضى غرناطة أو القومندان روسپولدى روسپولى إلى أن المسيو توپان يقوم برحلة ترفيهية .

وعلى الرغم من أن خطابات التوصية المُسْترذلة هذه قد لاتصل الى أيدى من أُرسلت لهم ، وهم إن تلقّوها لاتحرّك فيهم ساكنا ، فإن مسيو توپان يحسّ وهو يحملها الاطمئنان كله ، فما أدرانا ماسوف تواتينا به الأقدار ! On ne sait jamais[١٠] .

وهكذا يجول مسيو توپان البلدان ، ولو التزمنا الدقة شيئا لقلنا إن فرنسا هى التى تجوب ، إذ إنه حين يخرج من فرنسا فكأن فرنسا كلها فى حاشيته . أما الإنجليزى فلثقته فى مكانة بريطانيا العظمى مكانة لاينازعها فيها منازع ، حسبه أن يحس الناس الغطرسة البريطانية ، حتى وإن كانت هذه الغطرسة تنفّر الناس منه .

والفرنسى وإن شارك الإنجليزى فى الشعور بعظمة بلاده ، إلا أنه سرعان مايجعل الناس يألفونه بتلك الروح المرحة التى عُرف بها الفرنسيون وبما فى طابعهم من مجاملة معبّرا بهذا عن فرنسا رسول الحرية . فهو صورة من ڤرسنجتوركس[١١] وكريستيان ديور معا ، وهو پسكال[١٢] وشارع دلاپيه[١٣] معا . وهو صورة من هذا الفرنسى الذى ينبرى فى وطنه ساخرا من مؤسساته الدستورية مع أتفه سبب ، وهو

هذا الفرنسى الذى إذا ظهرت رواية بوليسية فى باريس من تأليف و . أ . ثورنديك الأمريكى كان من أكثر المروّجين لها ، مما لو كانت بقلم ج . ديپون الفرنسى . وهو فى الخارج يقيم من نفسه مدافعًا عن فرنسا وفنانيها ومخترعيها بإيمان جندى من الصليبيين . فمَنْ ذا الذى يزعزع فى نفسه هذا الإيمان الراسخ فى نفسه بعظمة فرنسا ؟

وما أخفَّ مديرى الفنادق التى ينزل بها وأصحاب المطاعم التى يطعم فيها إلى لقائه ليتنسَّموا شيئًا من نسمة باريس(١٤). وما على مسيو توپان عندها إلا أن يرحِّب بهم وهو يخال أنه على ثرى فرنسا لم يغادرها ، فيلقاهم برحابة صدر واغتباط . وتسمع إلى صاحب المطعم وهو يقول له : فرنسا ! يالها من بلد ! .. وباريس يالها من مدينة !

فيجيبه مسيو توپان مزهوا : آه ..

وهكذا يتساجلان الحوار والإعجاب ويذوب العالم فلا تبقى إلا باريس .

فيقول مسيو توپان : مامن شىء يعادلها فى العالم !

ويقول الإيطالى بلهجةٍ إيطالية : حينما كنت فى باريس أقمت فى شارع دى سيزو !

فيتنهَّد مسيو توپان ويقول : ألا ما أروع شارع دى سيزو هذا(١٥) (ينطقه بالسين كما ينطقه الإيطالى) .

وتسمع أيضًا صاحب المطعم يقول : وبرج إيفل !

ويجيبه مسيو توپان : آه .. وبرج إيفل !

- والفولى برچير !

- آه .. والفولى برچير !

وتلك لحظة مثيرة يتبادلان فيها حديثًا مفعمًا بالآهات الخبيثة وغمزات العين التى وراءها ما وراءها .

وهنا يختتم مسيو توپان الحديث فى زهو وخيَلاء فيقول : إن لكل رجل وطنين : وطنه الأصلى ، ثم فرنسا !

وليحذر الأجنبى رغم هذا أن ينخدع بحرفية هذا القول ، إذا ما خطر له يومًا أن يتجنّس بالجنسية الفرنسية ؛ إذ سرعان مايخرق أذنه أن هذا الوطن المكتسب ليس هو وطنه الحقيقى ، وإن ساءه ذلك فعليه أن يرحل .... فغاية القول أن فرنسا للفرنسيين وحدهم .

الهوامش

(١) Delphi تقع دلفى على السفح من جبل پارناسوس ، وتطل على الضفة الشمالية لخليج كورنثة . وتعد ساحة معبد أبوللو بدلفى من أجمل ساحات المعابد باليونان (المعرب) .

(٢) Pythie كاهنة معبد الإله أپوللو بدلفى . وكانت تغيب عن الوعى بفعل أبخرة تنطلق من صدوع أرضية المعبد ، وبفعل ماكانت تلوكه فى فمها من ورق أشجار الغار ، فإذا هى تصدر عنها كلمات فى غاية من الغموض والاضطراب . ويتلقى عنها كهنة المعبد ماتفوه به فى غيبوبتها هذه فيؤولونه نبوءات على ما يطيب لهم ويتراءى (المعرب) .

(٣) ملعب چان بوان Jean - Bouin .

(٤) يرى الرائد أن المستقبل القريب سوف يكشف عن جهاز يستطيع به موظفو الجمارك قراءة الأفكار (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٥) Bruges مدينة فى شمال بلجيكا منخفضة عن مستوى سطح البحر ، تغمر المياه طرقاتها ومسالكها ، فتستخدم القوارب وسيلة للانتقال (المعرب) .

(٦) اسم التدليل لجاستون ، وهو الاسم الأول للمسيو توپان (ملاحظة الرائد).

(٧) الزولولاند وتقع فى الشمال الشرقى من الناتال المطلة على المحيط الهندى ، ومعظم سكانها من قبائل الزولو الذين ينتمون إلى الشعبة الجنوبية للعشائر المتكلمة بلغات الپانتو ، ولايعيشون عادة فى قرى، بل فى معسكرات مسوَّرة ، وقد حاربوا ببسالة البوير الذين غزوا أراضيهم فى العقد الرابع من القرن ١٩ ، ولم تتمكن بريطانيا من إخضاعهم نهائيًا إلا عام ١٨٧٩ .

(٨) فى الأصل : « كيف يمكن للمرء أن يكون فارسيا ؟» Comment peut - on être Persan ? وهى عبارة مشهورة لمونتسكيو فى كتابه « الرسائل الفارسية » التى تصف المجتمع الفرنسى الشمولى عام ١٧٢١ فى ظل وصفه لفارس . والمؤلف يرمى إلى أن لامحالة للمرء من أن يكون فرنسيا ، لا أن يكون واحدا من أبناء تلك الشعوب (المعرب) .

(٩) نهر براهماپوترا بالهند طوله ٢٠٠٠ كيلو متر ، وينبع فى جبال الهملايا جنوب غربى التبت ، تمتزج مياهه مع مياه نهر الجانج ، فتتكون منهما دلتا واسعة ، وتصب مياهه فى خليج البنغال .

(١٠) من الحق أن نقول إن مثل هذه التوصيات التى قد تُرسل بالبريد حين تصل إلى صاحبها قد يأخذه شيء من العطف على الموصى عليه ، فلايدعه يغادر بيته حتى يشاركه الغداء والعشاء ومابين الغداء

والعشاء ، وإذا هذه الحفاوة المفرطة تفوّت على مسيو توپان - تلك التى لم يعهد مثلها فى باريس - فرصة الاستمتاع بمشاهدة مايجب أن يراه فى هذا البلد الذى نزل به .. إنه لأمر يدعو إلى الأسف (ملاحظة الرائد) .

(١١) Vercingetorix قائد الغاليين عند ثورتهم على روما . وقد حاصره يوليوس قيصر فى مدينة إليزيا ، حتى استسلم فأرسله إلى روما حيث أعدم (المعرب) .

(١٢) مثال المفكر الفرنسى .

(١٣) الشارع المشهور بمحلات الحلى والمصوغات .

(١٤) يغدو الفرنسيون جميعًا عندما يغادرون بلادهم باريسيين .

(١٥) Rue des Chiseaux صحّة الاسم أنه يُنطق بالشين وماجرى على لسان الإيطالى من نُطْقه بالسين هو لهجة الإيطاليين فى نطق حَرْفَىْ Ci ، ويتوهّم مسيو توپان أنها بالسين كما نطق الإيطالى ، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى سمع فيها هذا الاسم (المعرب) .

الفصل الثانى عشر

أربعون مليونا من الرياضيين

ثمة فترات كثيرة تُستحبّ فيها زيارة فرنسا ، غير أن هناك فترة منها قد تحملك على أن تغيّر حكمك عليها . تلك هى فترة ما بين أول يوليه والخامس والعشرين منه على وجه التقريب . ولقد كانت إحدى رحلاتى الأولى لفرنسا خلال هذه الفترة ، وكنت قادمًا من جبل طارق ، مجتازًا جبال البرانس ، فى طريقى إلى باريس ، فاستوقفنى شرطيان عند مفترق الطرق ، وحالا بينى وبين المرور .

ولما كنت حينذاك ما أزال ملتزما بتقاليدى الإنجليزية فلا أطرح سؤالا ، انصعتُ للأمر دون سؤال عن السبب . وحملنى ما رأيت من تلك الكثرة من رجال الشرطة على الظن بأنهم يتتبعون أحد قطّاع الطرق . وحين رأيت هذا الجَمَّ الغفير من الناس فوق الطريق الرئيسى المزدوج يبادلون رجال الشرطة الممتطين صهوات جيادهم عبارات مرحة رقيقة أيقنتُ أن الأمر أقل خطورة مما ظننت . غير أن صفّ المدرّعات التى كانت رابضة على الجانب الآخر من الطريق فى شارع جانبى جعلنى أعتقد لتوى أن ثمة استعراضًا عسكريا على وشك البدء . ولكن سرعان ما اتضح لى أن الأمر على غير هذا أيضا ، فلقد سمعت قائد الجندرمة يقول للضابط قائد المدرعات الذى كان يُعلن عن نفاد صبره بضربات خفيفة من عصاه الرفيعة على رقبة حذائه الطويل (وإن لم يبد على جنوده ضجر بما يحدث) ، سمعته يقول له : سواء أكانت مناورات أو غير مناورات ، فلن تمرّوا .

ودل هذا فى وضوح على أنه لن يستطيع أحد أن يمرّ : لا الفرنسيون بمدرّعاتهم ولا الرائد طومسون بسيارته الصغيرة المكشوفة ، بل ولا ذلك الرجل الذى أضفت عليه سيارته الفارهة شيئا من الأهمية وهو يلوّح بيده بذلك الترخيص الخاص التقليدى الذى يتيح له المرور فى أية جهة . فلم يتلق هو الآخر غير تلك الإجابة : " اصنع كما يصنع سواك وانتظر " ، تلك العبارة التى كثيرا ما سمعتها بعدُ .

وقد استنتجت من هذا كله أن المرور معطَل لتظل الطرق مفتوحة لمرور رَكْب رئيس الجمهورية وحاشيته ، فإذا هذا الجمع الغفير من الناس يصيحون صيحات مدوّية : ها هُم .. ها هُم .

وكان التعبير بضمير الجَمْع هذا ، مما جعلنى أظن أن رئيس الدولة على وشك الظهور وبصحبته صاحبة الجلالة وزوجها اللذان كان يزوران فرنسا فى ذلك الوقت . وإذا أنا أدهش كل الدهشة حين رأيت بدلا من صاحبى الجلالة شخصين يترنّحان فى تمايل على درّاجتيهما وقد تمنطقا بإطارات المطّاط ، وكانا يرتديان قميصين زاهيين وسروالين جدّ قصيرين ، وكأنهما عاريان وقد كساهما الوحل ، فإذا هما يبدوان فى صورة بشعة . وقد أسرَ إلىَ جارٌ لى - دون أن أسأله - أن هذين الشخصين يتنافسان فى سباق الدراجات حول فرنسا قاصدين باريس بأسرع ما يمكنهما فوق طرق وعرة ، لاتتيح لهما إلا الحد الأدنى من السرعة ! وكان هذا القول مما عجبت له .

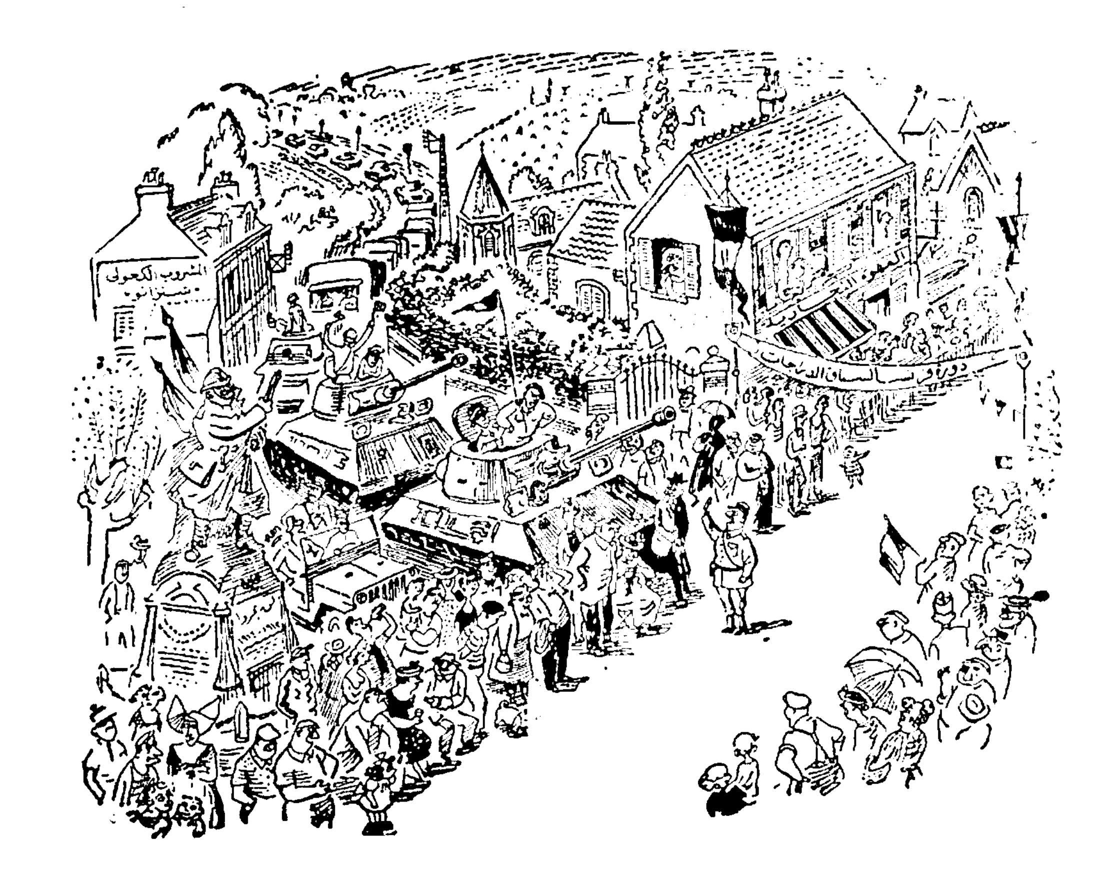
وعلى أية حال فما هى إلا أمور لايحق لإنجليزى أن يدهش لها وإلا كان هذا منه مما لايليق . فقد يقع فى الفينة بعد الفينة أن يمرَ إنجليزى ممن يحبّون أن يُشْبعوا نزواتهم أو هوسهم بالرياضة فى ميدان بيكاديللى ، مرتديا جاكتة حمراء فاقعة وبنطلونا أبيض قصيرا ، وعلى الرغم من هذا فلا يبيح إنجليزى لنفسه أن يلتفت إلى هذا المشهد ، وإن فعل كان ذلك منه عن قلة ذوق . فلكل إنسان فى إنجلترا حريته الكاملة يلبس ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وما يخشى أن يلتفت إليه أحد ، فهو يعيش فى بلد

يُمْلى حسن الذوق على أهله أن يجتزءوا بنظرة عابرة للناس من حولهم دون أن يُنْعموا النظر فيهم .

وكان ما أثاره فىّ هذا الزىّ غير المهندم لهذين المتسابقين من دهشة أقل بكثير مما أثاره فىّ تعطيل رجال الشرطة لحركة المرور من أجلهما ولرتل من سيارات النقل لشركة من شركات الفطائر والمشهّيات كانت تتبع هذين الشابين ، وإن كانت مقطوعة الصلة بهما كما بدا لى أولاً ، ثم ما لبثت أن عرفت بعدُ أنها كانت وثيقة الصلة بهما .

وأعرف أن فى إنجلترا سباقًا للدراجات شبيهًا بهذا السباق ، ولكن ثمة فرق بين هذا وذاك . فالمتسابقون فى إنجلترا لاتقف من أجلهم حركة المرور ، بل هم يمرّون خاضعين لإشارات المرور ، هم والمارّون سواء . وهم إلى هذا من الهواة ، لاتتوق أنفسهم إلى ألوان الدعاية والتفاخر ، فإذا سبق أحدهم الآخر لايزهو عليه بسبقه إياه ، بل يقدّم له اعتذاره . وإذا حان موعد تناول الشاى وهم فى طريقهم قطعوا سباقهم وجلسوا ناحية يحتسون الشاى . ثم هم فوق هذا كله لا يتبذّلون فى لباسهم ، بل يلتزمون بما توجبه عليهم حدود اللياقة .

وما استطعت أن أدرك باريس إلا فى وقت متأخر من الليل ، وكنت مشغول الذهن بالموقف فى البنغال ، حيث كنت قد تركت زوجتى أورسولا لأسباب يطول شرحها ، وما من حق أحد أن يعرفها . فلقد ساد كلكتا جو من التمرد ، مما حمل الشرطة على إطلاق النار على الجماهير ، فأسفر ذلك عن مقتل مائتى شخص . وقد انتهى إلىّ خبر هذا وأنا فى جبل طارق ، لكنى كنت ظمئا إلى تعرّف المزيد ، فدفعنى هذا إلى شراء الطبعة الأخيرة من الملحق الخاص لإحدى الصحف الفرنسية المسائية ، فإذا بى أطالع عنوانًا بالخط العريض يستوعب أعمدة ثمانية للصحيفة . وكان فحوى هذا العنوان :



سواء أكانت مناورات أو غير مناورات .. فلن تمروا !

« جارالدى وبيكيه يَمْثُلان أمام قضاة الصُّلح » .

وخلتُ أول الأمر أنها قضية هامة اقتربت من نهايتها فهيأتُ نفسى لقراءة المرافعات التى جاءت تحت عنوان فرعى مثير وهو : " الشيطان الفرنسى يخذله أتباعه" . عندها لفتت نظرى خريطة لجبال البرانس فى أسفل الصفحة ، وفطنتُ فيما بعد إلى أن جارالدى وبيكيه هما بطلا السباق الدورى حول فرنسا ، وأن القاضى - لوفق أسلوب الاستعارة الذى ولع به محرّرو الأبواب الرياضية فى الصحف الفرنسية - ليس إلا الحَكَم ، أما الشيطان فهو المتسابق الفائز ذو القميص الأصفر ، وأما الأتباع فهم رفقاء فريقه فى السباق . أما عن قتلى كلكتا الذين بلغوا المائتين فقد وارتهم سطور أربعة فحسب ، جاءت فى أسفل الخريطة تحت سفح جبل بيردو[١] .

ولذا فإنى أنصح مواطنىّ الموقّرين إذا كانت لهم رغبة فى الإلمام بالأحداث العالمية عامة وأخبار الكومونولث خاصة ألا يذهبوا إلى فرنسا فى شهر يوليه ، وإلا وجدوا أخبار الكومونولث قد طغى عليها الكلام عن سباق الدراجات ، وهو ما نتأذّى به نحن معشر الإنجليز[٢] .

وانقضت بضعة أيام ، وكنت أتحدث عن سباق الدرّاجات الدورى بفرنسا مع صديقى الكولونيل تورلو ، واعترفت له بأنى لا أفهم شيئًا عن مجريات ذلك السباق ، فإذا هو يحتد ويُفصح لى أنه بعد محاولة منه دامت مرات ثلاثا لفهم لعبة الكريكت إذا هو بعدها يلجأ إلى طبيب نفسى بلندن لعلاجه .

ثم عقّب الكولونيل تورلو : ألا تعلم ياعزيزى طومسون أن الملايين من الرياضيين يتابعون سباق الدراجات بحماس شديد ؟

- هل تعنى ياعزيزى تيورلوت[٣] أنهم يتبعون المتسابقين بدراجاتهم ؟

فإذا هو يحدجنى بنظرة باسمة يحسبنى أنى أداعبه وقال : كلا ، وإنما أردت بهؤلاء الرياضيين الذين يتابعون السباق من يُعنُّون أنفسهم يوميا بشراء نسخة من الطبعة الأخيرة من الملحق الرياضى الخاص ، أو الذين يُعنُّون أنفسهم كذلك باحتجاز مكان لهم يستطيعون منه مشاهدة وصول المتسابقين إلى نهاية المطاف .

وهنا تبين لى أنه ثمة فرق بين بلدينا ، فعلى حين يعدّ الإنجليز أنفسهم رياضيين حين يمارسون لعبة من الألعاب ، يعدّ الفرنسيون أنفسهم رياضيين حين يشاهدون الألعاب الرياضية فحسب . وعلى هذا يكون عدد الرياضيين فى فرنسا يَرْبُو على عدد الرياضيّين فى إنجلترا ، على الرغم مما قد يبدو فى قولى هذا من الحطّ من قدْر قومى الإنجليز .

وما نستطيع أن نقول جازمين بأن الفرنسيين لا يمارسون الرياضة وهم يشاهدون مبارياتها . وحسبنا أن نسوق مثالا فيما يكون من أمرهم وهم فى دور السينما حين يكون ثمة عرض فى نشرة الأخبار المصورة عن سباق الدراجات الدورى حول فرنسا . فما إن يشاهد المسيو شارنليه هذا العرض وقد دخل السينما ترويحا عن نفسه حتى يخيل إليه أنه قد اعتلى هو الآخر دراجته ليقطع بها طريقا طوله سبعمائة كيلو متر ، وكأنه كما يُملى عليه خياله قد طوى خمس مراحل أو ستا من السباق مرة واحدة . وما هذا فى الحق بمستطاع للمتسابقين ، فالمراحل تُقطع مرحلة مرحلة ، ولايمكن أن تُطْوَى فى سباق واحد . وعلى المشاهد أيضا - إن رضى أو لم يرض - أن يصعد بدراجته جبل جاليبييه[٤] ، وينحدر منه إلى ممر آلوس[٥] . وقد يضطر المسيو شارنليه أن ينطلق بدراجته فى طرق نورمانديا الوَعِرَة التى لاعلم له بها من قبل والتى رُصِفت بالحجارة. ثم هو إذا ما قارب أن يبلغ لونقى[٦] انفجر إطار دراجته وهو معها فى حفرة ثم نهض يُصلح دراجته واستأنف سيره من جديد لكى يحظى فى نهاية المطاف بقبلة من فتاة ألزاسية ، ثم يتسلق بدراجته المنحنيات الخطرة الغادرة فوق جبل فَنتو[٧] . وأخيرا يذوق العذاب الأكبر حين يعبر منطقة كرو[٨]

القاحلة الفسيحة ، على الرغم مما عمّ قدميه من بثور . وليس ثمة ما يعكّر مزاج المرء مثل اضطراره إلى عبور هذه المنطقة وهو فى إحدى دور السينما بشارع الشانزليزيه حوالى الساعة العاشرة والنصف مساء . كل هذا قد رسمه له خياله وهو لايزال قابعا فى مكانه يشهد جموع المتسابقين وهم بين تشتّت واجتماع وبين تراخ ومعاناة من التعب ، ثم إذا هم آخر الأمر قد تلاحموا . ويكاد يكون عدد الفرنسيين الذين يشتركون بخيالهم فى مثل هذا السباق خمسة عشر مليونا . وقد يجرّ عليهم هذا الخيال الإحساس بأن لهم سيقانًا - عفوًا - أعنى تروسًا ذهبية مثل تلك التى مُنِحَها جارالدى فلقّبوه بإله القمم ، كما قد يجرّ عليهم الإحساس بأنهم يمتلكون أفخاذًا لا تكلّ مثل تلك التى يمتلكها بيكيه ، ذلك الفرنسى الذى هو مع ضآلة جسمه المقرونة بجرأة لاُتضارَع كثيرًا ما يعثر به الحظ ، غير أنه على الرغم من هذا يأتى بالمعجزات فى اللحظة الحاسمة .

وترى الفرنسيين فى حلبات الرياضة حول حلقات الملاكمة أو حول ملاعب التنس لهم طريقتهم الخاصة فى الهتاف والتهليل والتلويح بالأيدى والصخب والحركة الدائبة . وهم فى هذا يختلفون عن الإنجليزى عامة . ولو أتيح لنا أن نشاهد مباراة للملاكمة فى فرنسا ثم فى إنجلترا لخِلْنا أولا أننا نشاهد لعبة واحدة ، والحقيقة أنهما لعبتان مختلفتان تماما . لقد كانت إنجلترا مهدًا لرياضة الملاكمة وغيرها من الألعاب . فالملاكمة والتنس وكرة القدم والجولف فى إنجلترا وُلدت ثم شاعت فى بلاد العالم ، فإذا هى يدخل عليها ما يشوبها ولا يتفق وجوهرها الأصلى .

فثمة بون شاسع بين هؤلاء العوانس الطاعنات فى السنّ اللاتى يقضين ليلتهن فوق كراس تُطوى من أجل مشاهدة المباراة النهائية للتنس بملعب ومبلدون ليُعقّبن على الضربات الخاطفة لدوربنى أو الضربات الخلفية لرُوزوُل فى دقة شبيهة بتلك الدقة



لشدّ ما تتغير طريقة الفرنسى فى صيْد السمك ، إذا ما أقام فى إنجلترا بضعة أيام !

التى يطرزن بها غرزات التريكو ، وبين أولئك الشبان هواة الرياضة المحتشدين فى ملاعب رولان جارو وهم يسمّون ضربات الكرة الخادعة بالجزرات Carottes والضربات الفوقية بالشمعات Chandelles ، لاسيما إذا كان المتباريان أجنبيين .

وأيّا كان قول الكولونيل تورلو فلا جدال أن الأب الأول للرياضة هم الإنجليز[٩] . فلقد كان هذا الفن الرفيع ، فن تسديد الضربات وتوقّى الضربات المعادية أمرًا معروفًا منذ عهد وليام الفاتح ، وكان الفَرنسيون عندها لايزالون يتراكلون بالأرجل عند بوابات باريس . ثم ماذا نرى اليوم ؟ نرى المباراة فى لندن داخل الحلبة ، ونرى الفرنسيين فى باريس يتصارعون وهم فى مقاعدهم يشاهدون المباراة . فى بلادنا نسمع طنين الذُّبابة خلال المباراة ، وفى فرنسا محالٌ أن تسمع أزيز الطائرة . وفى إنجلترا يناقش علِية القوم فى سهراتهم وهم بملابس السهرة فى وقار وهدوء كيف تُتَفَادى ضربات الخصم ، ثم إن الإنجليز يصدعون لحُكم الحَكم وكأنه إله . أما فى فرنسا فهم دوما مع الفريق المهاجِم يجلُّونه ويحترمونه ، ولا عبرة لهم بحُكم الحَكم ، وما أكثر مايثورون ضد حُكمه ، وقد يخرجون عن حدّ اللياقة فيُشبعون الحَكم سبّا وتقريعا ، فهو خصم لهم وعدو . ولايفوتنا أخيرا أن نشير إلى أنه على حين يهزأ الفرنسيون من اللاعب الضعيف ينال من الإنجليز تشجيعهم . وهذا الذى يفعله الإنجليز من احترام اللاعب الضعيف مستمد من رغبة أصيلة تكاد تكون طبعا لهم لإعطائه الفرصة كى يخوض جولة جديدة قد يفوز فيها ، وهى رغبة أشبه ما تكون بقانون غير مدوّن فى أنحاء المملكة المتحدة ، يخضعون له جميعا ، الصياد فى البحار والقناص فى الغاب . وإذا ما أراد الإنجليزى أن يحطّ من قدْر إنسان ، فحسبه أن يتهمه بأنه لايتصيّد غير طائر جاثمٍ على الأرض لامحلّق فى أجواز الفضاء .

وما أكثر ما دهشت حين انتهى إلى سمعى أن الفرنسيين لايحترمون دوما العُرف الذى يقضى بألاّ يُصاد طير داجن . وما إخالنى أصدّق هذا القول[١٠] .

إن هوى الإنجليز بركوب المخاطر هو الذى يدفعهم إلى صيد السمك . فهم يعدّون من الإجرام أن يذهب المرء ليصطاد على أحد ضفاف تِسْت - أحد أنهار هامپشر الجميلة - مع غروب الشمس حين يخبو الضوء فيطفو السمك على وجه الماء ، فيكون صيده من اليُسر بمكان . وليس هذا من خُلُق الإنجليزى المهذَّب ، فما أسرعه إلى طىّ شباكه عائدا إلى لندن حين تغيب الشمس بعد أن قضى يومه فى عناء لصيد السمك فى وهج الشمس . وقد يتساءل البعض هل يعدّ استخدام الدود طُعمًا لصيد السمك جُرمًا ؟ أجل هو جرم فى عرفنا ، كما أننا ننكر على أدعياء الرياضة أن يستخدموا الذبابة المبتلة(١١)،(١٢).

ولا أشك فى أن الرياضيين الفرنسيين يلتزمون هم الآخرون بالرغبة فى سلوك هذا المسلك القويم ، غير أن الهوّة بيننا واسعة . فالإنجليزى إذا ما وقع على سمكة سلْمون فاصطادها حنّطها لتكون تذكارا ، على حين أن الفرنسى إذا ما وقع على مثل هذه السمكة التهمها أكلا بعد أن ينعم بصورة تؤخذ له مع فريسته . والإنجليزى إذا ما اصطاد سمكة ترويت(١٣) صغيرة ألقاها فى اليم ثانية ، وأما الفرنسى إذا ما اصطاد مثلها أخذ يراود نفسه فى أكلها . فالفرنسى لايُقبل على الأكل بدافع الجوع ، وإنما يعزّ عليه أن يعود أدراجه من هذه الرياضة ولم يحصل على ما يقتاته . وهذا الشعور الذى يتملّك الفرنسى كل التملّك لايتملّكنا نحن الإنجليز على هذا النحو من الشَّره ، فالفرنسى يعدّ من العبث أن يعود أدراجه من مثل هذا اللهو ولم يجن غُنما .

فنحن - معشر الإنجليز - لانلقى بالا لما وراء الرياضة أو غيرها من نفع ، على حين يقرن الفرنسى كل شىء بما يعود عليه من نفع . ولقد انزلق لسانى مرة وأنا أتفكه بالحديث عن سعيهم الحثيث وراء المنفعة ، فعرّجت على إنجابهم من الأطفال ثلاثة دون أن يقتصروا على اثنين ، وأن هذا لم يكن عن صدفة بل عن عمْد : للحصول على العلاوة الاجتماعية المفروضة . وكذلك الفرنسى لايدفع ابنه لتعلّم اللغة الإنجليزية إعجابًا بها - وهم فى إعجابهم بهذه اللغة متفاوتون - بل لما سوف تدرّ عليه - بعدُ - بالرزق . ومن هذا

الحرص على النفع ما تلتزم به أسرة تورلو بأن يكون واحد من أبنائها متقنًا للغة الألمانية ، لا إعجاباً بتلك اللغة ، بل ليكون بعدُ مترجمًا فى أثناء الحرب .

والإنجليز على خلاف الفرنسيين فى هذا ، فهم لاينظرون إلى الأمور نظرة يشوبها الغرض بل نظرة خالصة ، وهم حتى فى شؤون الهوى لا يحبّون أن ينزلقوا إلى مداعبات وملاطفات وغزل قد تجرّ إلى غرض ، وما أبغض هذا إليهم ! أما ما هو من عمل جاد مثل صيد السمك وقنص الطير والحيوان فالإنجليزى على أهبة أن يبذل كل ما فى يده – وإن كان معسرًا – ليشبع روحه الرياضية وإن لم يغنَ بطائل .

وغير هذا كثير من شئون الرياضة التى يُحسن الإنجليز ممارستها، على حين يسىء الفرنسيون ممارستهم إياها .

وإذا كنت قد تكلمت كثيرا عن ألوان الرياضة إلا أنى لم أذكر تلك الرياضة التى تمارسها كثرة كثيرة من الفرنسيين ، وهى رياضة قيادة السيارات التى هى جديرة بأن أفرد لها فصلا خاصًا . والذين يمارسون هذه الرياضة من الفرنسيين مليونان ، على حين أن الذين يمارسون اللعب بالكرات الحديدية[١٤] مائتا ألف . وما أوْلانا ونحن نتحدث عن رياضة قيادة السيارات عند الفرنسيين إلى شىء من الهدوء يتيح لنا أن نفكر فى أمورها ، دون أن نخشى أن تدهمنا سياراتهم . وقد تسعد أيها القارئ بتلك الهدأة ، إلا إذا انهمكت فى قراءة صحيفة وأنت تمرّ بين العلامات المخصّصة لعبور المشاة[١٥] .

الهوامش

(١) Le mont Perdu جبل وسط سلسلة جبال البرانس .

(٢) سرعان ما نشب خلاف حاد بين الرائد طومسون ومعاونه الفرنسى حين ذكر هذا الأخير ما رآه فى أثناء تجواله فى لندن ، وكان عندها قلقا أشد القلق لأحداث الموقف الدولى ، فإذا هو يُروَّع بعنوان فى إحدى الصحف يُجمل الحديث عن الموقف فيما يلى : "إنجلترا فى موقف يائس" .

وكان ثمة عنوان فرعى فى تلك الصحيفة يكشف الغموض عن هذا العنوان السابق ، وهو « لنا أن نزهو بإنجلترا العريقة على الرغم من ٦-٣ » .

ولقد ظن معاون الرائد أن قرارا خطيرا قد اتخذ ، إلا أن عينيه وقعتا على المربع الخاص بأنباء آخر لحظة وقد جاء فيه : « نتيجة المباريات : إنجلترا - الجولات الأولى ٤٣٥ . هتُون ١٦٩ . كومبتون ٦٤ . رامادين - ١٦ - ١١٣ . أتكنسون ٣-٧٨ . سقوط النصائب ١-١ ، ٢-١٢ ، ٣-١٦ ، إلخ" . عندها عرف معنى ٦-٣ ، ثم تيقن بعدُ أن ذلك الموقف اليائس لإنجلترا ليس إلا عن مباراة لكرة القدم . فقد انهزمت إنجلترا للمرة الأولى منذ تسعين عامًا أمام المجر ٦ : ٣ .

أما أخبار آخر لحظة فكانت عن مباراة الكريكت .

وصاح الرائد قائلا : كيف تجرؤ فتقْرِن هذه المباراة التاريخية التى تعدّ وصمة وطنية بسباق دراجاتكم اللعين ؟

وامتقع وجه الرائد بالحُمرة التقليدية ، وبانت على صدغيه خطوط زرقاء ، فإذا هذا وذاك يمثّلان العلم البريطانى أيام مجده السالف ، وبدا لمعاونه أنه من المستحسن أن يغلق باب المناقشة خشية انفجار الموقف (ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(٣) يسخر المؤلف من نطق الإنجليزى لاسم Turlot فينطقه Tiourlott .

(٤) Le Galibier .

(٥) Col d'Allos .

(٦) Longwy .

(٧) Ventoux .

(٨) Crau .

(٩) هنا انبرى الكولونيل تورلو – وكان حاضراً – يدحض حجة الرائد معتمدا على قاموس لاروس الفرنسى فأفحمه بمدلولات هذه الكلمات فى الفرنسية ، وأخذ يقرأ عليه فى حماس ماورد فى ذلك القاموس : " إن لعبة الكركيت التى هى لون من ألوان التدريب الرياضى الأثير عند الإنجليز هى فى الحق تطوير للعبة لاكروس La crosse الفرنسية القديمة ، وقد تكتب بالفرنسية كريكيه Criquet» .

فهتف به الرائد ساخرا .

واستمر الكولونيل يقرأ فى هدوء تام : « أما لعبة الجولف فمن المرجح أنها أصلا كانت لعبة المطرقة Le mail المعروفة عن الفرنسيين » .

فانبرى له الرائد هازئًا وهو يقول : محال .

غير أن الكولونيل استطرد يقرأ وهو رابط الجأش : « أما عن لعبة التنس فهى تطوير للعبة الفرنسية المعروفة " راحة اليد الطويلة La longue paume " .

فانفجر الرائد غاضبًا وقد احمرّ وجهه وأخذ يقول : العالم كله يعلم أن لعبة التنس قد ابتكرها واحد من أسلافى هو الرائد ونجفيلد عام ١٨٧٤ .

ولكى يجعل للحديث نهاية حتى لايتطور الموقف إلى ماهو أسوأ غادر مكانه ليتناول كوبًا من الشاى بعد أن أغلق الباب وراءه بعنف (ملاحظة شاهد عيان) .

(١٠) يبدو أن قول الرائد هذا من النفاق ، فهو يؤمن فى قرارة نفسه أن الفرنسيين يفعلون هذا .

(ملاحظة المترجم الفرنسى) .

(١١) يبيح الإنجليز صيد السمك بالذبابة الجافة لا المبتلة .

(ملاحظة الرائد) .

(١٢) تتكون الذبابة عادة من بقايا الصوف وريش الطيور والدواجن ، وتُستخدم لجذب السمك فى أثناء الصيد . والذبابة الجافة توضع فى مكان معين من خيط الصيد لتكون فوق سطح الماء . أما الذبابة المبتلة فهى التى تغوص مع السنارة .

ولعل العلة فى إباحة الأولى وتحريم الثانية أن الأولى ليس معها خداع والثانية معها خداع .

(المعرب)

(١٣) La truite سمك نهرى بأوربا .

(١٤) Les Boulistes .

(١٥) Les clous .

الفصل الثالث عشر

فرنسا مُمْسِكة بعجلة القيادة

خذ حذرك مع الفرنسيين عامة ، لاسيما وأنت تسير فى الطريق ، فما أحرى بالإنجليزى حين تطأ قدماه أرض فرنسا أن يعرف أن الفرنسيين صنفان : صنف يسير على الأقدام ، وصنف يقود السيارات . وهؤلاء المشاة ينظرون شذراً إلى راكبى السيارات ، وراكبو السيارات يلقون الرعب فى قلوب المشاة ، وقد أُنسى راكبو السيارات أن أولئك المشاة قد يرقون بعد قليل إلى مصافهم وتصبح عجلات القيادة بين أيديهم . وكذلك الحال إذا ماضمك مسرح ترى النظارة يبرمون بمن يصل متأخراً غير خَجِل فيزعجهم فى مقاعدهم ، حتى إذا ما استقر فى مقعده يبدو أول البَرِمين بمن دخلوا بعده متأخرين .

والإنجليزى وإن لم يتقن قيادة السيارات غير أنه حذر حين يقود ، والفرنسى وإن كان يجيد القيادة غير أنه يقود فى طيش ورعونة . وعلى الرغم من أن نسبة الحوادث فى إنجلترا تعديل نسبتها فى فرنسا فإننى أكون أكثر اطمئنانا حين أكون بين يدى قوم تحكمهم الرصانة والهدوء فيما هُم فيه أقل مهارة على أن أكون بين يدى قوم يحكمهم الطيش والنزق فيما هُم فيه أحسن مهارة .

ومنذ أمد بعيد والإنجليز والأمريكان متفقون على أن السيارة أقل سرعة من الطائرة ، أما الفرنسيون وكثرة من اللاتينيين فيبدو أنهم يحاولون إثبات عكس هذا .

ويكمن فى نفوس الكثير من الفرنسيين هاجس خامد يهيج عندما تلمس أقدامهم دوّاسة زيادة السرعة فى السيارة ؛ إذ سرعان ما يستحيل ذلك المواطن الوديع الذى دعاك متلطّفا لركوب سيارته إلى سائق نزق متهور . وقد تعجب لذلك الرجل الوديع ربّ الأسرة الحنون المسيو چيروم شارنليه الذى لايجسر على قتل ذبابة تقع على زجاج نافذته من أنه لايتورع عن أن يَدْهم شخصا مع كل كيلو متر من الطريق الذى يعبره مادام يظن أن القانون فى جانبه . فإذا ما تحولت إشارة المرور إلى اللون الأخضر بدا كل شىء فى عينيه أحمر[١] يهيجه فينطلق بلا مبالاة لايستوقفه حتى النور الأصفر . وفى الطريق يصبح هذا الرجل الذى تخاله متزنًا فيما يفعل بعيداً كل البعد عن الاتزان ، لايقبل التنحّى عن وسط الطريق ، إلا بعد أن يستنفد كل حيلة وبعد أن تصم أذنيه أصوات الأبواق من خلفه . وإذا كان الإنجليز يسيرون دائما إلى اليسار ، والكثرة من الشعوب تسير إلى اليمين ، فإن الفرنسيين يصرّون على أن يكونوا فى الوسط ، والوسط فى مثل هذه الحالة ليس خير الأمور[٢].

إن شعور المسيو شارنليه بأن سيارة ما قد تقدمته مما يجعل صدره يضيق ، ولايرتد إليه هدوؤه إلا إذا تخطّى هو الآخر منافسا جديدا . وما على أسرته جمعاء خلال هذه المغامرات إلا أن تلزم الهدوء التام . والويل لمدام شارنليه إذا لم تعثر للحظتها فى السيارة على خريطة النصف الجنوبى من فرنسا عندما يطلبها منها زوجها ، تلك الخريطة التى قد يكون زوجها نسيها مع حافظة الخرائط فوق مدفأة حجرة الاستقبال . والويل لها إذا لم تسارع إلى الإجابة حين يسألها زوجها : " ما المسافة بين مدينة أڤالون وبين مدينة شالون ؟" والويل لها كذلك حتى لو أجابته ؛ ذلك أن المسيو شارنليه وهو فى تركيزه جُلّ ساديّته فى قدمه الضاغطة على دوّاسة السرعة يستمرئ اللذة سلفًا فى أن يُثبت لها أن تقديرها خاطئ . أما أطفاله فقد نُشّئوا على المثل الفرنسى القائل : "لن تشربوا حتى يظمأ أبوكم" ، كما ليس لأحد منهم أن يطلب التوقف لقضاء حاجته وإلا قال له أبوه : "كان عليك أن تفعل هذا من قبل" . ويعانى

الجميع فى صمت من تقديسهم لتلك الإلهة الجبارة التى يُجلُّها كل فرنسى وهى " معدّل السرعة" .

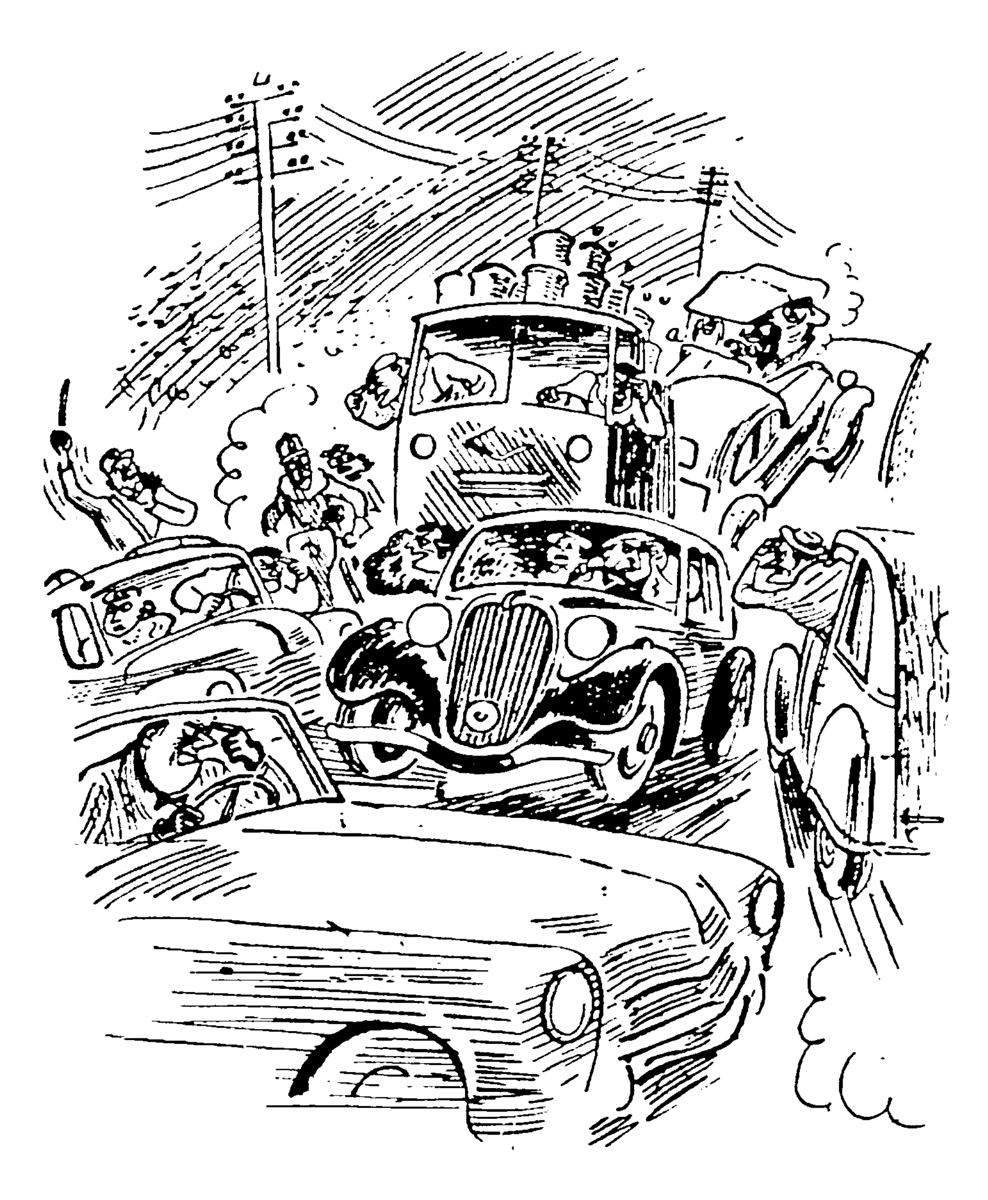
ذلك أنه إذا ما تهيّأ سائق السيارة الإنجليزى لقطع ثلاثمائة ميل فإنه لايفكر إلا فى قطع هذه الثلاثمائة ميل. أما الفرنسى فإنه عندما يدلف إلى سيارته ليقطع بها ستمائة كيلو متر ينفق الثلثين من تفكيره فى "معدّل السرعة" والثلث الأخير فى العلامات الرامزة التى يجدها فى دليل ميشلان[٣]. إن أمنيته بعد أن يسير ثلاث ساعات بمتوسط سرعة تسعين كيلو مترا أن يجد مطعما***[٤] مناسبا ، ويكون هذا المطعم مطلا إذا ما أمكن على منظر ***[٥] بالقرب من [٦] "ماهر" ، كى يطمئن على سلامة شموع الاشتعال فى السيارة ويكشف عن صلاحية زيوتها .

أما الإنجليزى فإنه وهو يقود سيارته لايبيح لنفسه أن يفكّر إذا ما فكّر إلا فى أن يأخذ حمّامًا [٧] "مُنعشا" بعد أن يشرب "ش"[٨] جيدا . هذا إذا ما كان فى إنجلترا ، أما إذا ذهب إلى فرنسا فإن عليه قبل كل شىء أن يلزم نفسه بالسير إلى الجانب الأيمن من الطريق على الرغم من أنه يراه الجانب الخاطئ .

أما المشكلة الشائكة فهى أن الفرنسيين لهم أسلوبهم فى مراعاة السير إلى اليمين بينما ينزلقون دوما إلى اليسار ، وهو مايذكّر المرء بميولهم فى مجال السياسة ، حيث نجد غلاة المحافظين يستنكرون دوما أن يُعدّوا من "أهل اليمين". وهكذا يجد الإنجليزى حين ينزل بفرنسا أنه من العُسر بمكان أن يعرف فى أى جانب يسير. وقد يمضى به المطاف إلى أن يبلغ كينيا دون أن يلقى شعبا سويّا يلتزم فيه قائد السيارة بالجهة اليسرى ، ويحسب أفراده حساباتهم بالأميال لا بالكيلومترات ، ولا يستخدمون الموازين الإنجليزية ، ويقيس درجة الحرارة بمقياس فهرنهيت لا بالمقياس المئوى . غير أن عليه أن يألف وهو فى طريقه إلى كينيا ذلك النظام الرتيب الذى يستخدم النظام المترى والذى لاتشوبه عدم الدقة المعروفة عن موازيننا التى تستخدم الأوقية والبوشل[٩] والپك[١٠]؛ إذ إن الكيلو متر الذى يساوى ألف متر مقياس ثابت لايتغير، على حين أن الميل يتجزأ إلى ثمانية فورلونج[١١]، والفورلنج يساوى عشرين

ومائتى ياردة ، والياردة تساوى ثلاثة أقدام ، والقدم تساوى اثنتى عشرة بوصة ، وفى هذا من البلبلة مافيه ، وكتاب الجيب الذى يحمله المسافر الواعى فيه مايحدّد له المراد ، فيرى أنه لتحويل المقياس المئوى إلى مقياس فهرنهيتى عليه أن يضرب فى ٩ ويقسم على ٥ ثم يضيف ٣٢ دوجة . على حين أن تحويل الكيلو مترات إلى أميال أكثر يسرا ، فعليه أن يضرب فى ٥ ثم يقسم على ٨ .

وكنت أقاسى خلال رحلتى الأولى إلى فرنسا من آثار محنتين معا : من إنفلونزا حادة كانت قد أصابتنى ، ثم من معاناتى فى عبور المانش ؛ لذا رأيت أن أنزل حينا بأحد فنادق مدينة كاليه لتعرّف درجة حرارتى . وحين اطمأننت إلى أنها لاتزيد عن ٤٠,٣ درجة مضيت أصل سفرى مطمئنا بعد أن أزحت سقف السيارة وأنزلت الزجاج الأمامى . ومضيت قرير العين إلى أن أدركت أنى قد نزلت بسكان القارة الأوربية الأبالسة غير الملتزمين بنظامنا السوىّ فلا يفعلون كما يفعل سائر الخلق . وسرعان ما انهمكت فى تحويل درجة حرارتى المئوية إلى المقياس الفهرنهيتى بضربها فى ٩ وقسمتها على ٥ ثم إضافة ٣٢ درجة ، كما حوّلت الكيلومترات إلى أميال بضرب المائتين وأربعة وسبعين كيلو مترا الفاصلة بين كاليه وباريس فى ٥ ثم قسمتها على ٨ وإذا سيارة تفاجئنى آتية من الاتجاه المضاد على جانب الطريق نفسه الذى كنت أقود فيه سيارتى . عندها أدركت بغتة أنى لم ألتزم جانبى الأيمن لانشغالى فى عمليات الضرب والقسمة . فملتُ بسيارتى إلى يمين الطريق ، وتوقفت فى الوقت المناسب حين بدا أن المُقبل بسيارته فى مواجهتى قد توقّف فى محاذاتى وصرخ فى وجهى قائلا :
" إنك لجد أحمق .. أو لست كذلك أيها الغبى ؟ أتخال أنك مازلت بين أكلة الروزبيف ؟ "
وقد تيقّن الرجل أن سكوتى عن الرد عليه كان لأنى لم أفهم قوله ، فانطلق بسيارته وهو يصوب إلىّ نظراته شذرًا ضاربًا جبهته بسبابته ضربات سريعة متلاحقة ليؤكد ما أنا عليه من غباء فادح . وقد عرفت بعدُ أن ضربه جبهته بسبابته من الطقوس الشائعة فى فرنسا .



إن الفرنسيين وهم ممسكون بعجلة القيادة يبادل بعضهم بعضا السؤال : أين عقلك أيها الأحمق ؟ ثم لايلبثون طويلا حتى يُفاجِئَهم واحد فيصمِهم معًا بالحُمق وغيْبة العقل .

ولقد وقع لى غير مرة حين ركوبى مع المسيو توپان أو المسيو شارتليه أن أراهما إذا ما تخطّيا سيارة أخرى حدّقا فى سائقها (لأمر كان من قبل غامضا علىّ) وهما يحكّان جبهتيهما بسبابتيهما . أما السائق الذى سبقاه فإنه كان (لعلّة لاتقل غموضا عن سابقتها) يلحق بالمسيو توپان ليتمتم بكلمات غير مبينة ، غير أنه كان يحكّ سبابته هذه المرة على نحو آخر ، فكان يلوى بها كالملف فوق صدغه ! وقد رأيت من هذا كله أن الفرنسيين وهم ممسكون بعجلة القيادة يبادل بعضهم بعضا السؤال : أين عقلك أيها الأحمق ؟ ثم لايلبثون طويلا حتى يفاجئهم واحدٌ فيصمهم معا بالحمق وغيبة العقل .

ومن الغرابة بمكان أن نرى جمّا غفيرا من الفرنسيين الذين هم دوما على أهبة الجدال والعراك لتخيّر لفظة من الألفاظ من معجم "لِتْريه" ، والذين " معدّل سرعة" خطاهم فى الحياة أشبه بمعدّل سرعة الخطوات الأكاديمية للمجمع اللُّغوى الذى يقضى أسبوعا فى وضع سبعة ألفاظ فحسب ، وكذا غيره من المجامع التى على امتداد نهر السين[١٢]، هؤلاء القوم إذا ما خلوا إلى سياراتهم فقدوا تلك الرصانة والاتزان وخلعوا عن أنفسهم كل تحفظ فى استخدام الألفاظ وكل إحساس باللياقة والاحتشام . فالفرنسى الذى يولد " نحويا " بالفطرة ، على نحو ما ينشأ آخرون بحارة أو موسيقيون بالسليقة ، ما يكاد يجلس إلى عجلة القيادة حتى يضرب عُرض الحائط بقواعد النحو . فالمسيو توپان الذى يُقبل فى شغف على تلك الأعمدة المخصّصة للذود عن لغته الفرنسية فى صحيفته ، والذى لايتردد فى أن يرسل خطابا الى أحد المحررين يؤنبه فيه على أن كتب "ذهب نحو" بدلا من " ذهب إلى "[١٣] هو نفسه الذى يضمّن حديثه اليومى كثيرا من السباب المعيب ويحشوه بما هو بذىء[١٤].

ومن العجيب أن نرى الناس فى تلك البلاد ذات المزاج المعتدل يفقدون أعصابهم . أما أن يفقد الناس أعصابهم وبين أيديهم عجلة القيادة فتلك مسألة قد تتمخض عنها أوخم العواقب . غير أنه من الواجب علينا أن ننصفهم فنقول إنهم لايفوتهم فى كثير من الأحيان أن يعلنوا عن قدومهم من بعيد . فعلى حين أن القاعدة الذهبية عند قائد

السيارة الإنجليزى هى أن يمرّ دون أن يشعر به أحد ، فإن هدف السائق الفرنسى أن يثير فزع كل من فى الطريق. إلى أن يصبح الطريق خاليا تماما . وهو لكى يحقق ذلك يثير أقصى ما يستطيع من صخب . فعلى حين تسير معظم سيارات العالم بالبنزين ، تسير السيارات الفرنسية بآلات التنبيه(١٥)، لاسيما عندما تصدر إليه إشارة بالوقوف(١٦) ، فيستعجلونها بمزيد من التبويق .

وقد يتبادر إلى الذهن أنه ثمة تواءم بين نهم الفرنسى إلى السرعة وبين طاقة سيارته ، وهذا وهمٌ ؛ ذلك لأن نهمه إلى السرعة قد يدفعه إلى الإسراع وهو يركب سيارة ذات طاقة صغيرة . والطريف أن أقل السيارات خطورة هى ذات الطاقة العالية ، وهذا لأن سائقيها قد أشبعوا نهمهم إلى السرعة منذ أمدٍ بعيد ، ومن هنا كانوا أول من يحسنون قيادة السيارات وأول من يسبقون غيرهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الإسراع .

أما عن الفرنسيات فهن لايُسرعن بسياراتهن نفس سرعة الرجال ؛ ولهذا كان الإنجليزى أكثر اطمئنانا حين يركب معهن . غير أن هذا له هو الآخر خطره ؛ لأن الإبطاء فى بلد يسيطر عليه هوَس السرعة ينجم عنه أشد الأخطار ، لاسيما إذا أضفنا ماعُرف عن الفرنسيات من تردّد فى أثناء السير . وقد يكون لهذا التردّد اللطيف حسناته ؛ إذ به نستطيع أن نعرف أن إشارة الاتجاه اليسرى تعنى أن السائقة ستنحرف إلى اليمين (وإن لم يكن هذا على عمومه) ، ولكن هذا كله يحملنا على أن نقول إنه ليس ثمة شىء أشد خطرا من أن تتولى فرنسية قيادة سيارة . ثم لاننسى أنه ثمة خطر أدْهَى فى هذه البلاد التى فيها كما فى غيرها كثرة من النساء لايُحسنّ القيادة ولا التدخين ، وهن اللاتى يَقُدن وهُن يُدَخّنّ . فإذا ما أوقعك سوء الحظ على مثل هذا فى الطريق فـآمن لك أن تقف بالسيارة عند أول مدينة تصادفك .... وأن تستقل قطارا !

الهوامش

(١) IL voit rouge عبارة فرنسية دارجة تشير إلى انفلات العيار .

(المعرب)

(٢) يشير إلى المثل القائل : خير الأمور الوسط .

(المعرب)

(٣) Guide Michelin دليل لاغنى عنه لسائقى السيارات فى فرنسا ، يشمل بيانا وافيا عن الطرق والمدن والبيانات المختلفة والفنادق والمطاعم ، إلى غير ذلك فى أنحاء فرنسا .

(المعرب)

(٤) علامة المطعم الممتاز فى "دليل مِيشْلان" .

(٥) علامة المنظر الطبيعى الخلاب فى دليل ميشلان .

(٦) علامة ميكانيكى إصلاح السيارات ومستودع قطع الغيار فى دليل ميشلان .

(٧) علامة الحمام .

(٨) علامة مشرب الشاى .

(٩) Bushel البوشل مكيال إنجليزى سعته حوالى ٣٥ لترا .

(١٠) Peck البِك مكيال حجم إنجليزى سعته حوالى ٩ لترات .

(١١) Furlong الفرلونج مقياس طولى إنجليزى يساوى ٢٢٠ ياردة أو ثُمن ميل .

(١٢) المجامع الفرنسية كلها على اختلاف اختصاصاتها مُقامة على شاطئ السين الأيسر .

(١٣) Partir à بدلا من الكلمة الصحيحة Partir pour

(١٤) مثل عبارة Tête de lard (يا مَنْ رأسه رأس خنزير) أو عبارة Peau de fesse (يا مَنْ جلده جلد عَجْزه) .

(١٥) كان استخدام آلات التنبيه كالبوق والكلاكسون فى السيارات متّبعا فى باريس إلى أن حرّمه القانون بعد عام ١٩٥٤ .

(المعرب) .

(١٦) فى هذا مايشير إشارة غير خفية إلى زحمة الطرق فى باريس . وعلى حين يرى الإنجليز أن استخدم البوق ضرب من الإزعاج مستهجن ، يُستخدم البوق فى فرنسا اضطرارا أو للعبث تزجيةً لوقت الفراغ بينما لايستخدم فى إنجلترا إلاّ فى حالات الضرورة القصوى فقط . وكنت ذات يوم فى سيارة الرائد الأوستن الإنجليزية بلندن عندما شعرت برغبة فى التدخين . وقد ضغطت غير قاصد على كلاكسون السيارة بدلا من أن أضغط على رأس الولاعة ، وسرعان ما حملقت فىَّ عشرات من العيون - دون أن أضم إليها عينىْ الرائد - فتمنّيت عندها أن لو ابتلعتنى الأرض . وعادة يقود الإنجليزى سيارته وهو ناظر فى المرآة الخلفية دائما ، مُضحيًا بسلامته فى سبيل المجاملة والأدب . فإذا شاهد سيارة أخرى قادمة من خلفه تريد أن تتخطّاه أشار إليها أن تمرَّ عند خُلو الطريق دون استخدام للبوق . وهناك بطبيعة الحال السيارات الآتية من الجهة المقابلة فى المنحنيات ، غير أن السائق الإنجليزى يؤثر الموت على أن يضغط البوق . وكثيرًا ما يقضى بعضهم نحبَه بسبب هذا !

(ملاحظة المترجم الفرنسى)

الفصل الرابع عشر

أيام عطلة الأحد الجميلة

ليس من الغرابة بمكان أن أحداً لم يغز إنجلترا منذ أن غزاها وليام الفاتح عام ١٠٦٦ ؛ ذلك لأن الغزاة الأجانب سوف يفزعون حين يضطرون لقضاء يوم الأحد بها . وقد ينتهى بنا الأمر حين نوازن بين يوم الأحد الإنجليزى الذى يبعث فى نفسك البرم والملل وبين يوم الأحد الفرنسى الذى يدفعك إلى اللهو قسراً ، إلى أن تتساءل : أيهما أشقّ من الآخر ؟

فالكثرة من الفرنسيين يقضون الأسبوع كله وهم يتساءلون عما سيفعلونه فى يوم الأحد ، الذى يحلّ دوما دون أن يهتدوا إلى جواب لهذا السؤال . قُل على الأقل هذا ما كان يقع أمامى من أسرة توپان وأسرة روبيار اللتين كثيرا ماكانتا تقولان لى : ماندرى كيف سنقضى يوم الأحد ؟

هذا النوع من التردّد لايعانى منه الناس فى إنجلترا ، فليس ثمة ما يشغل بالهم يوم الأحد غير التفكير فيما سيفعلونه أيام الأسبوع التالى .

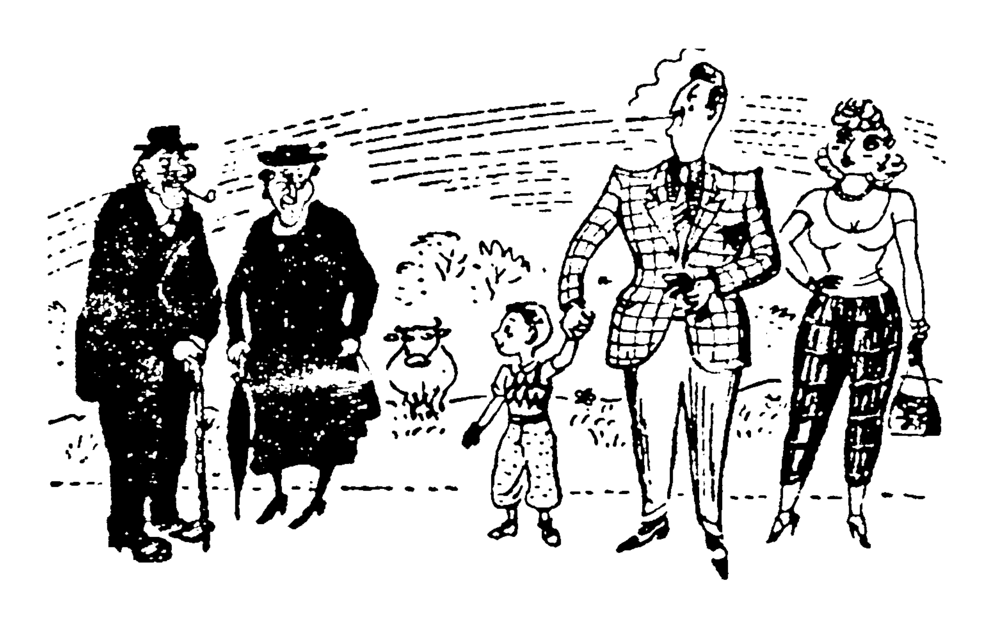
وليس ثمة مايثير فىّ الاكتئاب والألم أكثر مما أراه فى قسمات وجه مسيو روبيار فى نزهته يوم الأحد وهو يدفع عربة آخر مولود له فى طريق الشانزليزيه ، بينما يركل طفله الأكبر بقدمه لأنه عبر الطريق وحده دون إذنه ، ويقبض بيسراه على طفلته الصغيرة ؛ لأنها تأبى عبور الطريق معه ، وينثنى إلى زوجته التى شُغلت بالتطلّع إلى واجهات المحلات ويقول لها : أآتية أنت أم لا ؟ وينتهى به الأمر إلى أن يصل إلى غابة

بولونىْ وسط خِضَم المُتريّضين الذين تحكى قَسمَاتُهم قَسماتِه على صورة عجيبة ، وأكاد أقول على صورة رهيبة !

ويظل هؤلاء القوم السائرون فى سيْرهم حتى يصلوا إلى "مكان" يستكنّون فيه ، ثم يجلسون ويبدءون يحملقون فى وجوه غيرهم من الناس الذين يقصدون "أماكن" أخرى يستكنّون فيها . ولاينفك هؤلاء المارّة يتَفرسُون فى وُجوه الناس ويبدأون الحملقة فى وجوه الجالسين الذين لايكفّون بدورهم عن الحملقة فيهم .

ففى يوم الأحد يتطلّعُ نصف الفرنسيين إلى النصف الآخر . وعلى حين يرتدى الباريسيون فى هذا اليوم ملابس الريف التى لاكلفة فيها عند زيارة أقاربهم فى الريف ، يتنكر أهل الريف فى ثياب أهل المدن . وأشد مايدهش له الباريسيون أن يروا أصحاب هذه الملابس السوداء والياقات البيضاء وهم يتجولون بين الأبقار وحقول البرسيم ، بينما ينظر أهل الريف نظرة الريبة لهؤلاء الباريسيين المتشبهين بالإنجليز ، وقد ارتدوا سترات رياضية من قماش التويد دون أربطة عنق .

ومع نهاية يوم الأحد ينظر الباريسيون وهم فى سيارتهم عائدين من الريف شذراً إلى المشاة الذين اكتفوا بالتريّض فى غابة بولونىْ ، على حين ينظر هؤلاء السائرون ساخرين إلى تلك الأرتال من السيارات المتلاحمة متسائلين : أليس من البله أن يقضى المرء يومه على الطريق وسط صفوف السيارات التى يضطرها الزحام إلى السير ببطء شديد ؟ ويعجب مدّعو الرياضة الذين يقضون يوم الأحد فى حلبة سباق الخيل متراهنين كيف يمضى قوم آخرون يومهم فى مشاهدة كرة يتقاذفها اللاعبون بأقدامهم . ويعجب هؤلاء الذين يشاهدون مباريات كرة القدم من هؤلاء الذين ينفقون أموالهم على الجياد فى سباق الخيل. ويُجمع هؤلاء وهؤلاء على التهوين من شأن غيرهم من المواطنين الذين يضيعون وقتهم فى سياراتهم فوق الطرق سواء المؤدية إلى الريف أو فى شوارع العاصمة !



يرتدى الپاريسيون يوم الأحد سترات رياضية من قماش التويد دون أربطة عنق ،
ويتنكر أهل الريف فى ثياب أهل المدن وهم يتجولّون بين الأبقار وحقول البرسيم .

وما إن يهلّ الصيف حتى يجلس البوّابون على مقاعدهم الخيزرانية أمام مساكنهم الخاصة فى انتظار العائدين من السكان ، فيحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم .

وهناك نفر قليل من الفرنسيين الانعزاليين يُملْون عن حبّهم للمخالفة لا عن طبع متأصّل فيهم ، يقضون أيام الآحاد فى بيوتهم يثبّتون بعض الأشياء بالمسامير أو يرتبون أشياء قلبوها رأسا على عقب ، أو يمضون نهارهم فى مزاولة تلك الرياضة الوطنية المعروفة وهى اللهو بأداء أعمال تافهة[1] ، والتى لاتعدو تحويل المخلّفات القديمة بعد جهد شاق إلى سلع جديدة من اليسير الحصول عليها جديدة من

الأسـواق بأثمـان زهيدة . ورياضـة اللهـو بالتـوافـه هذه تعدّ فى فرنسـا نشـاطا هامـا يستحق أن نُفرد له دراسة خاصة ، وسأعود إلى الحديث عنها .

وأصحـاب مذهـب قضـاء يوم الأحد فى المنازل يشبـهون إلى حد ما ذلك العدد الغفير من مواطنىّ الإنجليز الذين يشغلون أنفسـهم بتجميل حدائقهم أو بقراءة نَهِمَة لمحاضر قضايا الطلاق فى صُحف الأحد المتعدّدة الصفحات ، بتناولهم طعامـهم الردىء المألوف الذى يتناولونه كل يوم ، ولكن بكميّة أكبر .

لقد شاء الخالق - ولمشيئته أسرار لاندرى كُنهها - أن يجعلنا على النقيض من جيراننا إلى آخر لحظة من اليوم السابع (الأحد) . فلكل من فرنسا وإنجلترا وجْهان : وجه الأسبوع ووجه يوم الأحد ، غير أن فرنسا تكشف عن وجهها بينما تحجبُه إنجلترا . فعلى حين يتأنّق الفرنسى فى ملبسه يوم الأحد ، لايُعنى به الإنجليزى. وبينما يلبس الفرنسى أفخر ثيابه يميلُ الإنجليزى إلى التخفّف منها[٢] . وعلى حين يتقن الفرنسى حلاقة ذقنه فى أيام الآحاد لايفعل الإنجليزى ذلك . فليس ثمة طريقتان للحلاقة عند الإنجليزى ، وإن كانت له فى يوم الأحد طريقته التى ينفرد بها فى حلاقة ذقنه أو قضاء وقته ملُولا[٣]،[٤] .

وبينما يلتزم مواطنىّ الإخلاد إلى الراحة خلال هذا اليوم الراكد ، ويرتدون من الثياب ما عفّى عنه الزمن وتناولته يد الترقيع ، تاركين لبعض الأغنياء المُحدثين الذين لم ينالوا حظّا من التربية أن يرتدوا وحدهم أجمل الثياب ، تجد الفرنسيين يتأنقون ويخرجون من دورهم كى يختالوا فى أبهى زىّ ، وهو "زىّ يوم الأحد"[٥].

وليس عند الإنجليزى شىء اسمه زى يوم الأحد ، إلاّ إذا كان غير اجتماعى يفعل ما عَنَّ له دون استحياء ، وهذا من النّدرة بمكان .

إن أسْمَى درجات الأناقة لدى الفرنسى هى أن يقال عنه إنه " مشدود بأربعة دبابيس "[٦] ، وليس لهذا التعبير أو لغيْره مثل تعبير " زىّ يوم الأحد" نظيره فى لغة شكسپير . وبمقارنة الفرنسى بالإنجليزى الذى يحتفظ بالروح الرياضية حتى وهو يرتدى ثياب السَهرة ، نرى أن الفرنسى يحتفظ بنوع من الأناقة المتكلّفة حتى لو ارتدى ثياب الرياضة . فإذا ارتدى بنطلون الجولف لايبدو على صورة لاعب الجولف الحق ، شأنه فى ذلك شأن الجندى المستجد الذى نستطيع أن نميّزه لأول وهلة عن الجندى القديم ؛ لأنه لايبدو مهندما مثل الجنود القُدامى فى زيّه العسكرى ، أو ربما لأنه لم يألف بعد لبس سرواله فيتعثّر فيه .

وعلى أية حال فعلينا أن نعرف مَنْ نحن قبل أن نعرف مانتطلّع إليه . فلقد بدأنا - نحن معشر الإنجليز - نلعب الجولف منذ خمسمائة عام ؛ ولذا نعرف كيف نرتدى ثياب الجولف . وما أوْلى الفرنسيين أن يَرْتَدُوا أيام الآحاد ثياب الأكاديمية الفرنسية التى لها عراقتها فى فرنسا عراقة الجولف فى إنجلترا .

والإنجليزى على العكس من جاره الفرنسى الذى يحب أن يتألّق فى ثيابه وكأنه عُملة نقدية جديدة برّاقة ، فهو يفزع من كل جديد ويعدّه عملة زائفة . والإنجليزى يعدّ الأناقة الحقيقية فى لبس مالا يبدو جديدا . وقديما حين كان الفرنسيون يهبون ثيابهم القديمة لخدمهم حتى تَبْلَى ، كان متأنّقو الإنجليز يطلبون إلى كبار خدمهم ارتداء ثيابهم الجديدة حتى يكسَرُوا من جدّتها ، إلى أن تلعب بها يد الزمن شيئا فتصبح مما يليق أن يظهروا به . أما الفرنسى فإنه يرتدى ثيابه القديمة الى أن تبلَى خيوطها ، محتفظا بثيابه الجديدة ليوم الأحد .

وقد يدهش الأجنبى لأسلوب الإنجليز فى أن يعيشوا أياما ستة من الأسبوع فى حركة ويتواروا كأنهم موتى يوم الأحد من كل أسبوع . وسوف يكون أكثر دهشة حين يرى الفرنسيين أقرب شيئا إلى الحياة أيام الأسبوع ويعودون إلى الحياة الكاملة يوم

الأحد . أما ذلك الحرص على ادخار الثياب الجديدة وعدم الاستفادة بها - وذلك للتظاهر بها أمام الناس أكثر من الاستمتاع بها إلا فى اللحظات الأخيرة كاليوم الأخير من الأسبوع مثلا - فهو أحد السّمات المميّزة للفرنسى الذى يخشى أن يكسوه الصّدأ ، إن لم يصقل نفسه مرة كل أسبوع .

ولقد كانت زيارتى لأسرة تورلو مما مكّننى من التعرّف على جوانب أخرى من حصافة الفرنسيين وتحفّظهم فى وجوه الإنفاق .

الهوامش

(١) Bricolage .

(٢) إلا عندما يتوجه إلى الكنيسة إذا عنّ له أن يتوجّه إليها .

وفى المدن الصغيرة خاصة يتوجه الإنجليزى إلى الكنيسة ، لا لأنه يحب الاختلاف إليها ، وإنما لكى يعرف من هم هؤلاء الذين لم يختلفوا إليها .

(ملاحظة الرائد)

(٣) مكان هذين المعنيين بالعربية كلمة فرنسية هى se raser ، وتعنى حلاقة الذقن أو قضاء اليوم فى ملَل، وهو لونٌ من التلاعب بالألفاظ .

(المعرب)

(٤) سأل المترجم الرائد عما إذا كان يقصد بكلمة se raser المعنى المألوف (حلاقة الذقن) أم المعنى المجازى (قضاء اليوم فى ملَل) ، غير أن الرائد ابتسم ولم ير ما يوجب مزيدا من الإيضاح .

(ملاحظة المترجم)

(٥) Le costume de Dimanche ، وقد نحتَ الفرنسيون كلمة endimanché، بمعنى ارتدى ملابس يوم الأحد من كلمة يوم الأحد Dimanche .

(٦) Tiré à quatre épingles .

الفصل الخامس عشر

الاختراعات الفرنسية الشيطانية

حين وصلت إلى مدينة سومور لأول مرة فى يوم من أيام الصيف لزيارة أصدقائى آل تورلو ، بدا لى منزلهم الواقع فى شارع داسيبيه بنوافذه المغلقة ، وكأنه مهجور لا أثر للحياة فيه . وقد طلبت منى الخادمة التى فتحت لى الباب أن أضع قدمىّ فى خُفّين من اللّباد لعلهما كانا للإبقاء على نقاء الأرضية الخشبية (الپاركيه) وبريقها ، ولكن الأرجح أن هذا كان لكى أفقد توازنى بينما أسير . ثم قادتنى إلى ردهة فسيحة يفوح منها العطن ورائحة قماش الكريتون . ومع أن أشعة الشمس كانت تنفذ من خصاص النوافذ إلا أنى أخذت أُطوِّع نظرى لشبه الظلام الذى غشينى كى أستكنه ما فى هذا الغموض الضارب حولى . فلقد كانت تبدو فى كل مكان أشباح بيضاء خِلْتُ أنها مقاعد وأريكة وبيانو ضخم وصندوق وشىء شبيه بآلة الهارب الموسيقية : إذ كانت كل هذه الأشياء التى حدست بوجودها مغطاة بِكُسْوةٍ بيضاء . وكان ثمة عدد من اللوحات المصورة المعلّقة على الجدران كان من العسير تبيّن فحواها ، لا لأنها صور سوريالية وإنما لأنها كانت مغطاة بورق الصحف . أما الشىء الوحيد الذى تدبّ فيه الحياة فكان ساعة الحائط ، على الرغم من أن دقّاتها كانت تنبعث خافتة من تحت غطاء أبيض يكسوها ، يخترقه سهم لتمثال برونزى لكيوپيد . وفى ركن من الحجرة شاهدت سيفين متقاطعين معلّقين وكلاهما فى غمد من نسيج أصفر . وقد خالجنى الشعور بأنى ربما أكون قد جئت فى وقت غير مناسب ، فلعل القوم كانوا يستعدون للانتقال إلى دار

أخرى ، أو لعل الزمان أصابهم بمحنة فأخذوا فى بيع أثاثهم وأمتعتهم التى يستعد المبتاعون لحملها . غير أن ظهور غطاء رمادى بدا فجأة تطلّ منه رأس الكولونيل وضع نهاية لافتراضاتى المتشائمة . وإذا الكولونيل يقول لى : معذرة أيها الرائد العزيز ، فقد كنت ألهو بأداء بعض الأعمال التافهة . وسألت نفسى عن طبيعة تلك الأشياء التافهة التى يمارسها الكولونيل ، وكان أن اختلفتُ مرات عدة إلى ذلك المكان الذى كان يدعوه الكولونيل " معمله " ، حيث وجدت الكولونيل وبين يديه جهاز عجيب لتوليد الذبذبات وجهاز آخر للتكثيف ، وما فطنت لما يقوم به من تجارب غامضة . ولا أحسبُ أنى قادر اليوم على الجَزْمِ بأن تلك التحفة الرائعة التى انهمك فيها من سنوات سبع هى جهاز استقبال جمع أجزاءه بيديه ، وكلّفه ذلك ما يُربى على أربعمائة فرنك ، وما يستطيع به إلا أن يستمع إلى إذاعة وسط فرنسا فحسب ، هذا إذا كان الجو صافيا ، وقد كان بوسعه أن يستمع إلى إذاعات العالم أجمع ، لو أنه اشترى جهازا لن يتجاوز ثمنه مائتين وسبعة وسبعين فرنكا من أى محل متخصّص ! حقا إن هذا الذى شهدته مما يصعب فهمه على إنجليزى محدود الإدراك .

كانت هذه الأعمال التافهة التى يمارسها الكولونيل تورلو من النوع الحِرفىّ الشائع ، غير أن هناك نوعا آخر أكثر ترفا يمارسه المسيو شارنليه فى سيارته . فما إن يشترى سيارة حتى يبادر فيدخل عليها تعديلات حتى لاتبدو على نمط غيرها من الإنتاج السائد . فيختلف إلى عدد لايُحصى من التجار يشترى من كل منهم قطعة ما : مصباح إشارة ذا وَمِيض ، أو حلية ما أو عاكسًا للضوء ، منُصتا فى انبهار إلى التاجر وهو يقول له : إذا ما أضفت هذه القطعة إلى سيارتك غدت على نمط غير نمط سيارات الآخرين ؛ لذا يحرص المسيو شارنليه على أن يزوّد سيارته بكل ما تقع عليه عيناه مما يضيف إلى السيارة متعة جديدة ، حتى يصبح من العسير عليك أن تتعرّف عليها إذا أعاد طلاءها . وفى الصباح الباكر من أيام الآحاد ، وأحيانا خلال أيام الأسبوع

الأخرى مع فترة راحة الغداء ينطلق المسيو شارنليه بسيارته إلى غابة بولونىْ ليخلو إلى نفسه فيُخرج منفضته لإزالة الغبار العالق بسيارته ثم يجلو الأجزاء المعدنية . وما أسعده حين يمرّ به متسكّع ما فيسأله معجبا عن طراز سيارته ، وإن تظاهر ضائقًا بسؤاله .

وثمة مع هذا اللهو الشائع من الترف المسرف لون آخر أكثر شيوعًا يكاد لايخلو منه يوم ما أوْلانا بدراسته ، فهو جزء لاينفصل من الحياة اليومية لكل فرد : إذ هو من بين مظاهره الملحوظة ، وهو " المصفاة " أو بعبارة أدق " مصفاة القهوة " . وكثيرا ماساءلت نفسى مابال الفرنسي وفى استطاعته أن يحصل على أطيب فنجان من القهوة المعدّة الساخنة ، يكلّف نفسه عناء إعدادها ومشاهدتها وهى تقطر تحت بصره قطرة قطرة من خلال إنبيق عجيب ، فإذا هو آخر الأمر يشربها باردة بعد ما كاد أن يحرق أنامله وهو يحاول محاولته تلك الفاشلة فى ضبط تدفّق المصفاة .

وفى ظنى أن هذا عن ولع له باللهو فى إعداد قهوته(١) .

* * *

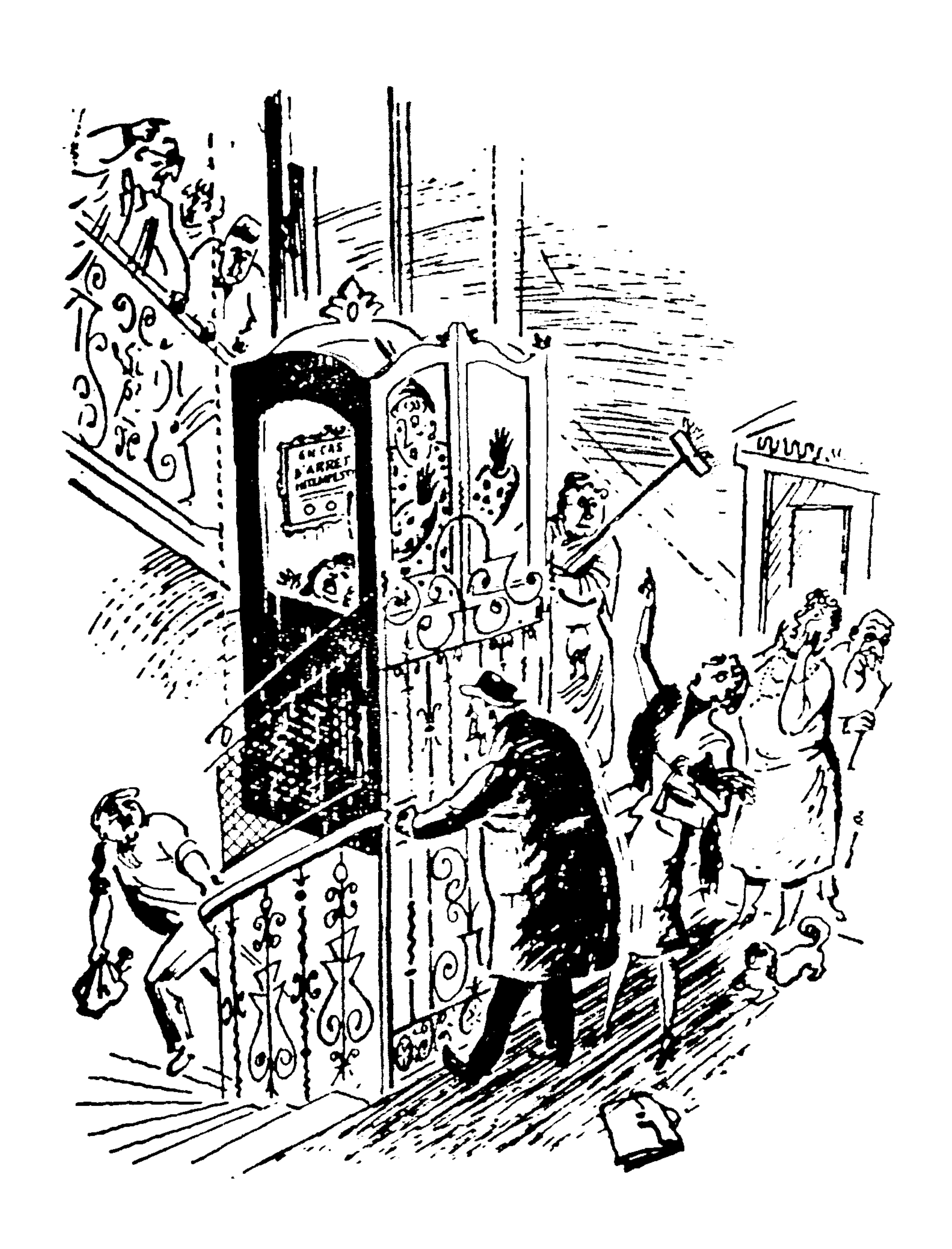
إن " المصفاة " هى من الابتكارات الشيطانية الفرنسية ، ومثلها مثل أجهزة الإضاءة الوقتية التى تستخدم فى إنارة الدَّرَج والتى سرعان ما تنطفئ وحدها آليا ، وحجرات الفنادق المزوّدة بمصباحين أحدهما بالسقف والآخر إلى جانب الفراش ولكنهما لا يُناران معا ، إما هذا أو ذلك . وتلك الأقفاص أو الأكشاك التى يسمّونها المصاعد والتى لاينقطع لها أنين ، ويعدّ استخدامها دون قراءة التعليمات الخاصة بتشغيلها تهورا خطيرا ، ولا تزال بكل فخر هى الوسيلة الوحيدة الأكثر بطئا فى العالم من السير على الأقدام .

أرجو المعذرة من القارئ لهذا الاستطراد الذى خرج بى عن الموضوع ، فلم يكن ثمة مفر من هذا الاستطراد . وها أنذا أعود من جديد إلى مدينة سومور عند الكولونيل تورلو وإلى أغطية أثاث منزله ولهوه بألعابه . فبعد أن غلّف الكولونيل إحدى الآلات الغريبة التى فى معمله بغطاء للتمويه قد يكون منهوبا من مستودع لمخلفات جيوش الحلفاء خلع بذلة المعمل وعلّقها على مسمار ، ثم أخرج ساعته التى يحتفظ بها فى جراب خاص وصاح : عجبا ! لقد انتصف النهار دون أن نشعر . ألم تلتق بعد بربّة الدار ؟

ومضينا نبحث عنها ، وخيل إلىّ أن الكولونيل سيستخرج زوجته من تحت عَازِل للغُبار . وعلى التو طالعتنا مدام تورْلو بجذعها من دولاب ملصق بالحائط وقد ارتدت بذلة زرقاء وغطّت رأسها بوشاح : إذ كانت منشغلة بصيانة " تايَير " موشّى بالفراء فى غلاف واق من العثة .

وإذا الكولونيل يقول لى : تلك آخر حماقات زوجتى ، فهى لاترتديه هنا أبدا إلا فى المناسبات الهامة ، وتحتفظ به لاستخدامه عند الذهاب إلى باريس .

واعتذرت مدام تورلو عن مظهرها الذى كان فى الحق غير لائق ، وتولّت عنا لترتدى ثوبا آخر استعداداً للغداء . وكم أسفت لما سبّبته زيارتى من اضطراب فى الدار ؛ ذلك لأن آل تورلو فى منزلهم هذا الفسيح كانوا يتهيئون لتناول غدائهم فى المطبخ . ولكنهم احتفاء بى نزعوا الأكفنة التى تدثّر أثاث حجرتى الطعام والاستقبال الذى كان يبدو كالأشباح . وهاتان الحجرتان لايدخلانهما إذا كانا وحدهما أبدا . وإذا الكولونيل يقول لى : " سأفتح لك ياعزيزى الرائد زجاجة من النبيذ الفاخر » ، فهو لا يشرب كل يوم إلاّ نبيذ المائدة العادى ، على الرغم من أنه يختزن فى قبو داره أرقى وأقدم أنواع النبيذ .



توقُّف لحين ..

وقد يبدو من التجاوز أن نحكم على أمة بمظهرها ، لا سيما إذا كان هذا المظهر تحجبه أغطية واقية من الغبار . ولست أشك فى أن الفرنسيين عامة أقل استخداما لهذه الأغطية من آل تورلو ، ولكنى إذا غضضت النظر عن الكولونيل فإنى لا أستطيع أن أهمل الإشارة إلى الفكرة الوحيدة التى تشغل بال المسيو توپان أو المسيو شارنليه عندما يشترى أحدهما سيارة ؛ ذلك أنهما يسارعان فيضعان أغطية على مقاعدها لايرفعانها إلا يوم بيعها لتبدو مقاعدها فى حالة جيدة ، ولكى يستطيعا أن يعلنا فى الصحف عنها أنها " بحالة ممتازة "[٢] . وقد يستخدمان تلك الأغطية التى احتفظا بها مرة أخرى ، إذا كانت تصلح لمقاعد سيارة جديدة .

وأكاد أظن أن هذه الأغطية الواقية من الغبار هى رمز لغريزة الادخار ، بل أستطيع أن أقول هى رمز لغريزة حرمان الذات عند الفرنسيين . إن هذا الشعب الذى يبلغ به نهمه إلى التملّك إلى حدّ أن نسمع معه الواحد منهم يقول : " بين يدىّ من الفقراء الكثير "[٣] ، ذلك الشعب الذى حَبَتْه الحياة بمالم تَحب به غيره من شعوب الأرض يقدّس " حرمان الذات " تقديسًا مفرطًا ، وليس حرمانهم لأنفسهم من التمتّع بمقاعد السَيارة إلاّ نوعا من هذا الحرمان الشائع فى أنحاء فرنسا . ولقد سمعت عن مليونير عُرف أنه يتناول طعامه على مائدة متواضعة من الخشب الأبيض ، ويُرسل أبناءه إلى المدرسة المجانية فى القرية ، ويسافر دوما بالدرجة الثالثة ، ويحرص على الخيوط التى تُلفّ بها البضائع فلا يقطعها ، بل يحتفظ بها سليمة لكى ينتفع بها فيما بعد ، وإذا ما طالبه موظفوه برفع أجورهم احتج عليهم قائلا : لست أدرى فيما تنفقون ما تتقاضونه من أموال كثيرة !

فى هذه البلاد ، بلاد الرخاء والوفرة ، نرى الأثرياء أَمْيل مايكونون إلى التظاهر بالتواضع وإلى عدم الإسراف ، والمُنفقون حقا فى فرنسا دون حساب هم الفقراء[٤] .

الهوامش

(١) ثمة شيء قريب من هذا يتصل بالكتب ، فالناشر – إنجليزيا كان أو أمريكيا – إذا ما عرض كتابًا للبيع متصل الصفحات تاركًا للمشترى الفصل بين ورقاته طولا وعرضا أحجم القراء عن الإقبال على ما يصدر من كتب . أما فى فرنسا فالناشرون على خلاف ذلك ، فهم يبيعون كتبهم متلاحمة الصفحات . ولقد حاول بعضهم أخيرا التجديد فيحذو حذو الإنجليز وغيرهم فأصبحوا يبيعون كتبهم لاتلاحم بين صفحاتها ، فإذا هذه التجربة لاتلقى إقبالا من القارئ الفرنسى ، فعاد هؤلاء الناشرون المجدّدون إلى السُنّة الفرنسية التقليدية للفوز برضاء القارئ الفرنسى " الحق " .

ومثل هذا مانراه بين بعض الفرنسيين المدخّنين الذين يرون أن لفافة التبغ " الحقّة " هى تلك التى يلفّها المدخن بيده لا التى تُباع مُعدّة . ويستخدمون لهذا أدوات دقيقة يحتفظون بها فى جيوبهم ، وما أدقّ فهمها واستخدامها على غير الفرنسى. وبهذا كان من اليسير على كل فرنسى مدخّن أن يصبح فى غمضة عين مديراً لمؤسسة صناعية له وحده .

(ملاحظة الرائد)

(٢) .... état impecc

(٣) J'ai mes pauvres وفى هذا التعبير ما يوحى بأن الفقراء الذين يتصدق عليهم مِلْك يده .

(٤) ينضم إلى هؤلاء الفقراء الفرنسيين نفر من كبار الأثرياء الأجانب الذين إذا ما بذلوا بسخاء فى حفلات الليل عُدّ هذا منهم حماقة . والغريب أننا نجد هذا البلد ، بلد الشك والريبة ، وبلد الادخار ، والبلد الذى يدين بالقول المأثور : " القرش الأبيض إذا ما ادّخر ينفع ليوم أسود " وبلد الحذر أمام مشروعات الاستثمار . الغريب أن نجد أن الأجنبى وحده هو الذى يستطيع أن يغرر بأهله ويخرج نقودهم من مخابئها بأساليب استثمارية وهْمية ، فنسمع على فترات مختلفة عن أحد الأجانب ممن تنتهى أسماؤهم بما يؤكد أنهم أجانب مثل " سكى " و " ڤيتش " رُزِقَ من الحيلة ما لم يُرزقه أدهى الفرنسيين ، فإذا هو قادر بذكائه أن يُخرج الملايين من مَدْفَنها ، وإذَا هو قد أتى على كل ما ادّخره الناس منذ ثلاثة قرون . وهؤلاء الذين نُكبوا فى أموالهم يُطْبقون شفاههم ولايقولون شيئا عما أصابهم مخافة أن يهزأ الناس بهم لحَبْسهم أموالهم مخبوءة حتى لاتُدفع عنها ضرائب ، ولكنهم على هذا لايفيدون من هذا الدرس ويعودون ثانية إلى مبدئهم فى الادخار وحرمان الذات حرمانا كاملا هذه المرّة .

(ملاحظة الرائد)

الفصل السادس عشر

أرض المعجزات

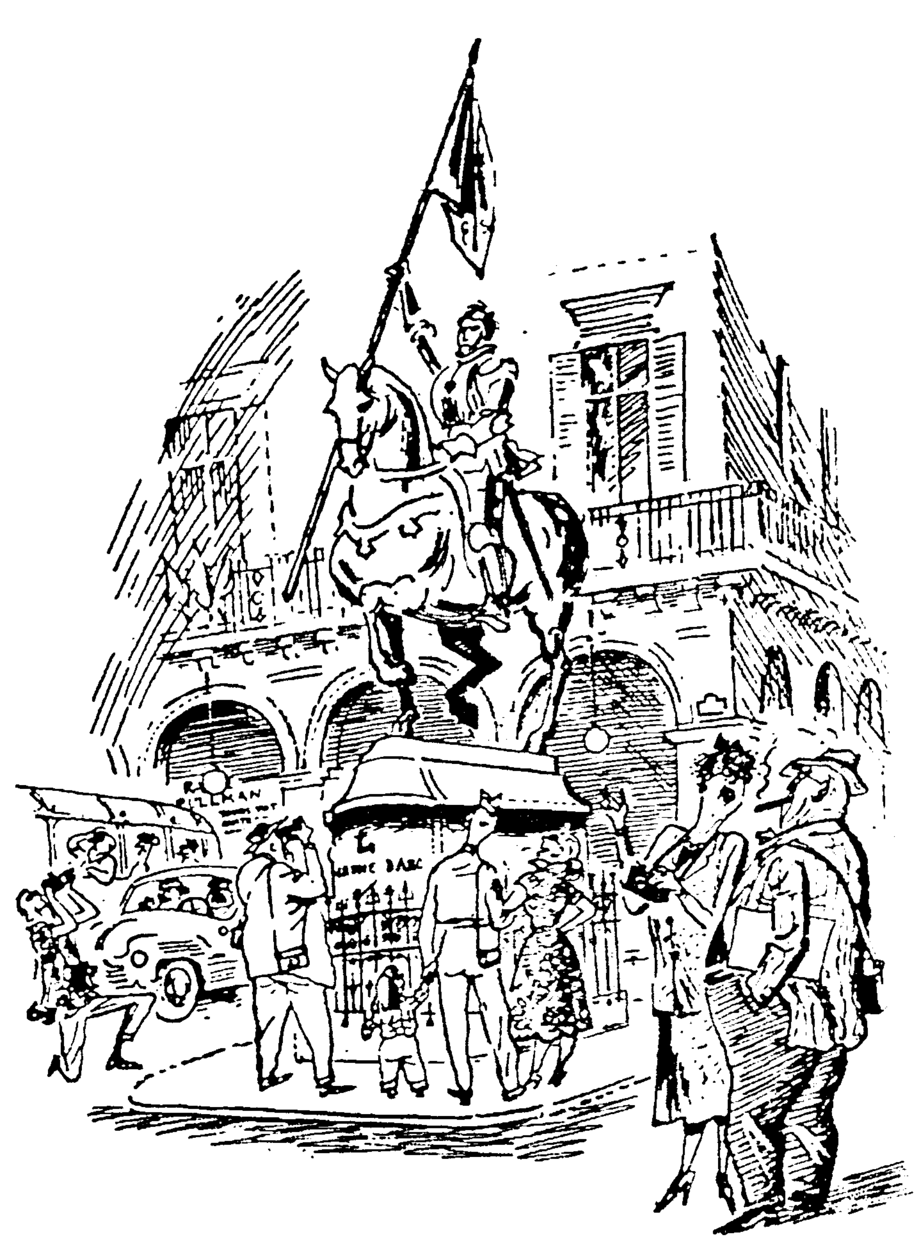
المعجزات والكروم من أهم ما تتمخّض عنه أرض فرنسا . والفرنسيون جميعا ، سواء أكانوا من أنصار الفلسفة الوضعية أو المذهب العقلانى أو الشك الڤولتيرى يؤمنون إيمانًا راسخًا بالمعجزات ، فتراهم يلوذون بالقدرة الإلهية حين يدهمهم العدو على أبواب باريس ، أو فى اللحظة التى تسبق إحدى المباريات بينهم وبين الإنجليز فى ملعب كولومب ، وفى يقينى أن العناية الإلهية كثيرا ما دلّلتهم ، وكأن فرنسا – منذ أن وُجدت – بينها وبين حدوث المعجزات صلة قديمة . فكما لا تنفكّ الرطوبة عن بعض البلاد ، كذلك لا تنفكّ المعجزات لاصقة بفرنسا . ثم هى فوق هذا توائم بين تلك المعجزات وبين مجريات الأمور ، فتتجلّى تلك المعجزات فى ظهور القديسة چنڤييڤ وهى تخطو على قدميها ، وفى ظهور چان دارك وهى ممتطية صهوة جوادها ، وفى ظهور سيارات التاكسى التى استخدمت فى نقل الجنود فى أثناء معركة المارن[1]، وقد تتجلّى غدًا فى أعجوبة ذرّية .

وعندما يصيح رجل من رجال الحكم فى بلد ما : " ما أحوجنا إلى معجزة تنقذنا " فإن ذلك يعنى أنها النهاية . أما فى فرنسا فهذه العبارة تعنى بداية أحداث هامة ، فالفرنسى يتألّق وقت الشدائد وفى غياهب الظلمات ، وينسّق أموره مع الفوضى . وقلّ ما تثير الأمور الممكنة من اهتمام الفرنسى ، أما ماهو غير ممكن فهو الذى يؤجّج حماسه . وفى هذا البلد الذى حبته الطبيعة بالحياة الرخيّة ليس ثمة غير المصاعب مصدرًا للإلهام . وكما يقوم الكيان القومى لهذا البلد على الحيلة ، تلازم المعجزات

الفرنسى حياته ، كما لازمت فرنسا على مر السنين . وأول ما يلقّنه الفرنسيون لأطفالهم – الذين يولدون مفطورين على حب الثقافة – أنهم قد تمخّضت عنهم كرنبة un chou . ويكاد المرء يتعرّف على ميول الفرنسيين من تلميحاتهم المجازية التى ينطوى معظمها على أصناف الطعام ، كما هى مشبعة بألفاظ التدليل اللطيفة فى كل شئونهم . فنرى مثلا كلمة chou لها دلالات مختلفة ، فهى كما تعنى الكرنبة وتعنى الحَلْوَى الشهيّة المحشوّة بالقشدة تعنى أيضًا الرقّة . و هكذا يبذل الآباء كل ما فى وسعهم ليشبّ كل ابن من أبنائهم « طفلا معجزة » .

وما أكثر ما يدفع الفرنسيون أطفالهم إلى حاضنات من ذوى قرباهم ، من عوانس ريفيات لهن حظٌّ يسيرٌ من التعليم ، أو فى رعاية أعمامهم أو أخوالهم الذين يُعرفون بالإفراط فى التدليل، أو تحت رقابة شيوخ لهم فلسفتهم فى الحياة ؛ ولذا ينشأ الأطفال وكأنهم أكبر من سنّهم وتجرى على ألسنتهم حكمة الشيوخ المحنّكين التى قد يفزع لمثلها الآباء الإنجليز ، ولكنها تسعد آباءهم الفرنسيين الذين يختالون وهم يعرضون أبناءهم أمام غيرهم ، كما لو كانوا صفحات من ديوان مختارات أحسن الكَلِم . ويدين الطفل الفرنسى بالمعجزة سرا وجهرا ، فهو لايقف عند تعلم سيرة چان دارك وأسطورة الحدود الطبيعية التى رسمها الخالق للفرنسيين على حين ترك غيرهم من الدول يلتمسون حدودهم بأنفسهم[٢] ، لايقف الطفل عند هذا فحسب ، بل يمضى فيشارك أبطال مجلات الأطفال مغامراتهم مثل البطل تانتان والبطل سپيرو وغيرهما من ملوك الحيلة والدهاء ، الذين يشقّون طريقهم وسط الغابات المجهولة وينقذون من الموت المحقق المستكشفين – الإنجليز بطبيعة الحال – ثم يعودون بعد ذلك إلى فرنسا حاملين أسرار القنبلة السامة وتهانئ سكوتلانديارد .

وتزداد حيل التلميذ خصوبة بما يتعلمه طول سنى الدراسة الثانوية فتُهيئه للقيام بالمعجزة المعروفة لدى جميع الفرنسيين ، وأعنى بها معجزة « المكنسة الصغيرة »



الامريكيون فى پاريس أمام تمثال چان دارك : " أوه .. انظر يا إلمار .. تمثال لإنجريد برجمان!"

المشهورة : إذ يجب على كل فرنسى فى أول يوم من التحاقه بالجندية أن يستجيب فى الثكنة العسكرية لجاويشه ، فيخلق من الخيال مكنسة يكنس بها الريح ، وهذه المعركة الصغيرة - معركته مع المكنسة - وقت السِّلم هى التى تُهيّئه للمعارك الكبرى وقت الحرب . وتظل تلك الصورة المتخيَّلة لاصقة بعقل الطفل أو بخياله ، إلى أن يشبّ ويضمّه معترك الحياة ، وأبـوه من ورائه يذكّره بها حتى لا تغيب عن خياله ، فيقول له دوما: « لسوف تتمثَّل هذا حين تؤدى خدمتك العسكرية » . ولا تنى الكليات الفنية بجانب مدارس اللّيسيه والثكنات العسكرية عن إذكاء « الحيلة » فى نفوس الفرنسيين ، فيتخرج فيها الفتى ماردًا كأنه مُنْطلق من قُمقم سحرى ، ويفهم فى التّو ما يستغرق الآخرون فى فهمه وقتًا طويلا . وقد يرحل الفرنسى عن وطنه ، فيُنشئ مترو الأنفاق فى مدينة كاركاس ، ويبيع الضفادع فى مدينة أديلايد ، ويُحيى طابَع إقليم جاسكونيا فى مدينة شِنْشِناتى ، ويذيع علوم مدرسة البوليتكْنيك فى كابول ، غير أنه مايكاد يجمع ثروة حتى يعود على عجل إلى مدينة من مدن فرنسا المتواضعة ؛ ذلك لأنه إذا كانت ثمة بلاد كثيرة يستطيع المرء فيها جمع المال ، فإن فرنسا هى خير بلد ينفق فيها هذا المال .

* * *

يابلاد المعجزات ، والرجال المُعْجِزين ، والأزياء المُعجزة ، يامملكة ما جَلَّ وما دقّ من الأمور .. ها أنذا عنك راحل .

سأغادرك الآن إلى البنغال تلبية للدعوة الوديّة التى وصلتنى من صديقى القديم الكولونيل بازيل كرانبورن الذى طلب منى أن أشاركه فى آخر رحلة صيد للنمور قبل أن يتسلّم مهام منصبه الجديد فى سنغافورة ، بيد أنى لن أسافر هذه المرة كما اعتدت أن أسافر من قبل ، فثمة مائة وجه تَصْحَبُنى دون أن تراها العيون ، ولكنها ماثلة

أمامى تُلاحِقنى ، ولن يفطن إليها ولاريْب الكولونيل كرانبورن ومُضيفنا المهراجا باجاليور ، فعندما يأخذون فى الحديث عن آكلى لحوم البشر سوف يُحوِّم وجه مارتين فوق المائدة ، فيشغل بالى بمارتين كما يشغل بالى بباريس .

وليس حنينى إليك تُمْليه مشاعرى وعواطفى فحسب ، فمنذ شهور عندما كنت بالهند شعرت ذات ليلة بشوق عارم يسرى فى أحشائى إلى أطعمة فرنسا ، وبينما كنت مستغرقًا فى النوم فى خيمتى بأدغال آسام التى تتناوحُها رياح المُونْسُون المُحْرقة وعواصفها الهوجاء تراءت لى فى أحلامى الأم العجوز جرينوبيه[٣] وهى تقول لى : ماذا تفعل هنا أيها الرائد ؟ ثم أردفت ويداها على خصريْها وهى واقفة على ضفة غدير هادئ ليس عرضة لمهبّ رياح المُونْسُون ولا لأعاصير التيفُون قائلة : هل لك فى شريحة من سمك التَّرويتْ بالقشدة الذى اعتدتُ أن أُقدّمه إليك ؟

وأدركت تلك الليلة أنى لم أعد الإنسان الذى كُنته ، وأنى قد تحوّلت من حال إلى حال . أجل ، لقد تغيَّرت ، وسواء أكنت بين السِّيخ أو بين الزُّولو ، فى رانجون أو زنزبار فليس ثمة ما يشغل بالى إلا ميدان قَنْدوم بباريس وقرية أزى لوريدو[٤]. وعند عودتى بالطائرة من الهند أو صحراء كلاهارى بعد قطع مسافات شاسعة فوق الرمال والصخور حيث تبدو السماء والأرض وقد أشهرت كلتاهما الحرب على الأخرى ، تقتربُ بى الطائرة من نهر السين ذى المنعطفات الرقيقة اللطيفة ، وأشرف على هذه الرقعة المباركة السُّداسيّة الشكل التى اجتمعت فيها جميع الأشياء من أجل الإنسان ، وكأنها هُيّئت لوفق مُتْعاته : متعة عينيْه ومتعة فَمِه ومتعة قلبه . عندها أدركت أنى قد عُدت ثانية إلى أرض المعجزات .

إنه بلد ليس له نظير من البلاد ، فمزارعه وكنائسه ومنازله الريفية قد استحالت كلها إلى مشهد طبيعى لكأنها خُلقت على هذا النحو منذ أن وُجدت .

إنه البلد الذى يضم ثلاثة وأربعين مليونا من الكواكب المُفكّرة ، لكل كوكب منها فكرته " المُنَمنمة"[٥] ، البلد الذى يختلف أهله ويتشابهون فى أن كلا منهم يريد أن يُخالفَ الآخر ، ولا يكفُّون عن الجدال والنقاش ، إلى أن ينتهوا بعبارتهم المأثورة : نحن فى الحق متَّفقون .

إنه بلد تتجلّى فيه المعالم الذاتية لأفراده أجْلَى ما تكون ، فإذا ما سمعوا النشرة الجوية واءموا بين ما يُذاع وما يُحسّون ، فتعلو وجوههم البهجة إذا ما أشارت النشرة إلى أن الجو صحوٌ وَعَلَتْهم الكابة حين تُنذر النشرة بجو عاصف .

هو بلد العجائب .. ففى اللحْظة التى أجد فيها شخصا يُحِبُّنى أجد فيها شخصا يكرهُنى ، وإذا هما يا للعَجب شخص واحد !

يا آل شارنليه . يا آل توپان . يا آل تورلو . يا آل پوشيه ، يامن تستحوذ عليهم روح النقد والحرية . كم أسأت الحديث عنكم ، وآن لى أن أظْفَر بعفوكُم .

لقد قلت عنكم إنكم متشكّكون مرتابوُن مقتّرون ، وفى الحق أن معجزتكم هى أنكم فى الوقت نفسه أهل للثقة كُرماء تشتعلون حماسة . و إذا قُدّر لكم أن تكونوا فى غَدِكم ملتزمين بالدّقة والنظام والصّمت فلسوف تكون هذه كارثة تعمّ الجميع . فمثالبُكم ليست غير الوجه الآخر لمناقبِكم ، وأمَّتكُم التى تضيق بالغرباء هى ملجأ هؤلاء الغرباء . وبالرغم من أنكم لاتحاربون الغش والتدليس فإنكم مع ذلك تُنشّئون ناشئتكم على تقديس الحق .

إن شعبكم المكون من البروچوازيين الصّغار[٦] هو نفسه شعب العِلية الكرماء . أنتم أقل الناس حبًا للاستضافة على حين أن بلادكم أكثر بلاد العالم ترحيبًا بالوافدين على وجه الأرض . وإذا صحّ أن العقول أشبه ماتكون بالبراشُوت التى يجب أن تظل مفتوحة لكى تؤدى مهمّتها على الوجه الصحيح فلعمرى أنتم أفضل " المظليّين" فى العالم .

عفوًا وعذرًا لجُرأتى ، فحين أعود بنظرى إلى الوراء وأطالع هذه المذكرات التى دوّنها رائد سابق مضَى يتعرّف فرنسا والفرنسيين يتولاّنى شىء من الفزع والارتياع لما كان منى من طيش وتهوُّر . فما من حقى - وأنا إنجليزى - أن أتناول عيوبَكم ونقاط ضعفكم بالعدّ والإحصاء . فما أملك من حق للتحدّث عن شئون الحياة غير ذلك الحق المنكود لأولئك الذين يعدّون أنفسهم مؤهّلين لمثل هذا الحديث ، وهم مهما بلغوا من حكمة لاتتجاوز حكمتهم حكمة الأطفال ، فى هذا العمر القصير المدى الذى مهما امتد فلا يبلغ المائة . أو لعل هذا الحق الذى يتيح لى هذا الحديث هو ببساطة ما اكتسبته من حِكْمة لبرنارد شو إذ يقول : إن أفضل وسيلة للإلمام بموضوع ما هو أن تؤلّف عنه كتابا .

ولن يبقى لى بعد هذا إلا أن ألتمس العفو من مليكتى .

كانت الآنسة فيفذْ المُربّية الإنجليزية الحاذقة تُلقّن الأطفال فى غابة بولونيْ أنهم سعداء الحظ لأنهم فرنسيّون ، وهذا لإقامتهم فى البلد الذى لايشاركهم فيه بلد آخر فى العالم قُربًا من إنجلترا ؛ إذ لا تبعد عنها إلاّ بثلاثين كيلو مترا . ولتغفر لى مليكتى جرأتى فى أن أنقض هذه النظرية رأسا على عقبٍ ، فأقول إن من المزايا التى يستمتع بها الإنجليزى أنه لن يكلفَ نفسَه عناءً فى الوصول إلى فرنسا غير أن يعبر بحر المانش . تُرى بعد هذا هل أطمع فى أن تغفر لى صاحبة الجلالة ماكان منى لاختيارى فرنسا موطنًا أعيش فيه ؟ أليس اختيارى فرنسا وطنًا ثانيًا لى هو مشاركة متواضعة من جانبى لتعزيز ما بين بلدينا من " اتفاق وُدّى "[٧] .

وا أسفاه يا مليكتى صاحبة الجلالة ! إنه ثمة ماهو أنْكَى ! فلقد بِتُّ الآن أتسكّع فى شوارع باريس ... فإذا تصادمت سيارتان - ويعلم الله أن ذلك يحدث كثيرا - فإنى أتلبّث ولا أمضى فى طريقى وأقف مع المشاهدين ، وما أكثرهم ! أم هل أجرؤ وأزيد أنه فى الربيع خاصة تخطرُ فى شوارع باريس الغادات الفاتنات اللاتى يبدون

بقدودهن المَشُوقة وكأنهن الأطياف ، وإذا أنا أخالف عادتى فى بلادى وألتفت إلى الوراء . لقد ظللتُ أربعين عاما أكتفى بنظرات عابرة ، وإذا أنا الآن أُحملق وأُطيلُ النظر . وثمة بعد هذا أنى أطلقت لنفسى العنان ولم أجد حرجًا فى أن أسأل المسيو توبان ذات يوم عن دُمَّل برز على أنفه ! ثم لم أنس حين حان الافتراق أن أقول له كما يقول الفرنسى : " هيّا ... إلى اللقاء ... هيّا "[8] .

وأخيرا يامليكتى كم أُحسّ فجأة وأنا فى جبل طارق أو بومباى بالشَّوْق إلى أكل القواقع ، وبالحنين إلى نبيذ شامبُول - موزينى[9] الذى يُتحفُنا به روجْترُونى العجوز من قبْو حانته حين أنزل بمدينته أڤالون ، ذلك النبيذ الذى تنتفخ له عروق وجهى فتبدو زرقاء على وجنتىَ القرمزيّتيْن . عندها يصرخ صاحب الحانة بولده ليستحثه وهو يقول له : " انظر يابنىّ إلى الرائد طومسون وقد ارتسم على وجه العلم البريطانى! "

يا للسماء . ما أفظعه من عار يا صاحبة الجلالة ! لقد حقَّت على اللّعنة ، ولسوف يعاقبنى الله حين أُوَارَى التّراب فى أرض فرنسا ، فتختلط ذرّات جسدى بذرّات ثرَاها .

وإلى أن يأتى ذلك اليوم فإنى أدينُ بالعبودية والطاعة لك ياتلال برجنديا ، ويا أيها الأفق المُشْرَب بزُرقة السّماء فوق الإيلْ ده فرانس ، وياضفاف السّين ، ويا أبرشيَة سان سُولْپيس ، وياجزيرة سان لُوي أنْ ليلْ .

أي فرنسا ... يابلاد المأوَى الرّحب والموائد الحافلة ، كم من مرة نشرتُ بين يدى خريطتك المُحتشدة بأسماء بلدانك الفيّاضة بالآمال ، مثل بُروسيلْيانْد[10] وڤيزلاى[11] وبرانْتُوم[12] ولَو كْتُودي[13] والمُدُن التى تنطوى تحت اسم "لاَفرِتْيه"[14] (أى الحِصْن المنيع) وإن كانت تشتركُ اسْما فلكل منها طابعها الخاص ، تلك البلدان التى تغصّ بالعوانس القابعات خَلْف الستائر للثَّرثَرة والنّميمة ، وبالحُور الفاتنات اللاتى يبدُو أن المْولَى ما خلَقَهُنَّ إلاّ ليدفَعْن العَوانس إلى اغتيابِهن ...

يافرنسا يامن يرتَشِفُك الناس على مرّ الأيام كما يرتشفون أنبذتك الفاخرة . أنت يا مَن تُودِعين عند العالم كأسك ، ولايفوتك أن تأخذى عن هذا الإبداع إيصالا . أُحِبُّ لُغتك . أُحِبُّ سماءك . أُحِبُّ أضواءك . أُحِبّ لهجتك فى الحديث ، وأفهم مرادك الذى يجرى على لسان فلورين طاهيتى العجوز حين أسألها : لماذا لاتذهبين إلى السينما؟" ، فتقول : سأذهب عندما ينصلحُ حالُها .

أُحبُّ كل شىء فيك ، وأُحبك متمثّلة فى كل شىء . الفاء فى اسْمك تعنى الفَرْط فى الحُمْق ، والراء تعنى الرَجَاحة فى العقل ، والنون تعنى النبوغ فى الحِيلة ، والسين تعنى الشّطَط فى التعصّب للوطن ، والألف هى التى تستهل بها تلك الكلمة الشائعة على ألسنة الفرنسيين : أُحبِك .. أُحِبُّك يافرنسا .. أُحبُك .

* * *

الهوامش

(١) كُتب لفرنسا النصر فى معركة المارن بفضل سيارات التاكسى التى كانت تنقل الجنود إلى جبهة القتال .

(٢) لفت المسيو توپان نظرى إلى أن الحَرفيْن الأولين من اسم فرنسا France هما أول حرفيْن فى كلمة « الحرية » Freedom باللغة الإنجليزية وكلمة « الحرية » Freiheit بالألمانية وكلمة « الحرية » Frihet بالسويدية وكلمة « الحرية » Frelsi بالفنلندية وغيرها من اللغات ، وأن ثمة معجزة خَفيَّة لا تعليلَ لها تكْمُنُ وراء هذه الظاهرة (ملاحظة الرائد) .

(٣) Mére Grenouillet طاهية مشهورة وصاحبة مقصف معروف .

(٤) Azay - le - Rideau .

(٥) Leur petite idée .

(٦) Petits bourgois .

(٧) Entente Cordiale الاتفاق الودّى بن بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ لتسوية ما بينهما من خلافات فى أوربا وأنحاء العالم ، وبمقتضاه أطلقت بريطانيا يد فرنسا فى مراكش ، كما أطلقت فرنسا يد بريطانيا فى مصر (المعرب) .

(٨) Allez , au revoir , allez .

(٩) Chambolle - Musigny .

(١٠) Brocélind - de .

(١١) Ve`zelay .

(١٢) Brantôme .

(١٣) Loctudy .

(١٤) تبدأ أسماء كثير من البلدان الفرنسية بكلمة La Ferté أى الحصن ؛ لأنها كانت فى الماضى محصّنة ضد الغزو (المعرب) .

المؤلف فى سطور :

پيير دانينوس

كاتب فرنسى توفى عن ٩١ عامًا، وهو صاحب عدد من المؤلفات الأدبية من أشهرها (مذكرات ماجور تومسون)، والتى ترجمت إلى عدة لغات عالمية وقد صدرت فى عام ١٩٥٤، وذلك فى العام نفسه الذى صدرت فيه قصة (صباح الخير أيها الحزن).

وجدير بالذكر أن قصة (مذكرات ماجور تومسون) لاقت نجاحًا كبيرًا فى أوساط القراء، والتى تعود أحداثها إلى القرن التاسع عشر من داخل المجتمع البريطانى.

وقد اشتهر بمؤلفاته العديدة التى استوحاها من خلال رحلاته الخارجية العديدة إلى دول العالم المختلفة من بينها قصة بعنوان (سونيا الأخرون وأنا) والتى يرجع تاريخها إلى عام ١٩٥٢، ومن بين مؤلفاته كتاب بعنوان البيجاما.

المترجم فى سطور :

ثروت عكاشة

- ولد فى القاهرة عام ١٩٢١ .

المؤهلات العلمية :

- تخرج فى الكلية الحربية (١٩٣٩)، وفى كلية أركان الحرب (١٩٤٨).
- دكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون فى فرنسا (١٩٥١).
- دبلوم الصحافة من كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٦٠).

أهم الوظائف التى تقلدها :

- ملحق عسكرى فى السفارة المصرية فى بون ثم باريس ومدريد (١٩٥٣-١٩٥٦).
- سفير مصر فى روما (١٩٥٧-١٩٥٨).
- وزير الثقافة والإرشاد القومى (١٩٥٨-١٩٦٢).
- رئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب (١٩٦٢)، (١٩٦٦-١٩٧٠).
- رئيس إدارة البنك الأهلى المصرى (١٩٦٢-١٩٦٦).
- عضو مجلس الأمة (١٩٦٤-١٩٦٦).
- نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة (١٩٦٦-١٩٧٠).
- مساعد رئيس الجمهورية للشئون الثقافية (١٩٧٠-١٩٧٢).
- أستاذ زائر بالكوليج دى فرانس (١٩٧٣).

١ - نشاطه الإبداعى :

- موسوعة تاريخ الفن: (العين تسمع والأذن ترى).
- الفن المصرى: العمارة (١٩٧١).
- الفن المصرى: النحت والتصوير (١٩٧٢).
- الفن المصرى القديم: الفن السكندرى والقبطى (١٩٧٦).
- الفن العراقى القديم (١٩٧٤).
- التصوير الإسلامى الدينى والعربى (١٩٧٨).
- التصوير الإسلامى الفارسى والتركى (١٩٨٣).
- الفن الإغريقى (١٩٨١).
- الفن الفارسى القديم (١٩٨٩).
- فنون عصر النهضة: الرنيسانس والباروك والركوكو (١٩٨٨).
- الفن الرومانى (١٩٩١).
- الفن البيزنطى (١٩٩٢).
- فنون العصور الوسطى (١٩٩٢).
- التصوير المغولى الإسلامى فى الهند (١٩٩٥).
- الزمن ونشيد النغم: من نشيد أبوللو إلى تورانجاليلا (١٩٨٠).
- القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية (١٩٨١).
- الإغريق بين الأسطورة والإبداع (١٩٧٨).
- ميكلانجو (١٩٨٠).
- فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى (١٩٩٩).

ترجماته :

ترجم الدكتور ثروت عكاشة كتبًا كثيرة نذكر منها:

- أعمال للشاعر أوفيد.
- أعمال لجبران خليل جبران.
- المسرح المصرى القديم، لإتيين دريوتون (١٩٦٧).
- مولع بفاجنر، لبرناردشو (١٩٦٥).
- العودة إلى الإيمان، لهنرى نك (١٩٥٠).
- السيد آدم، لبان فرانك (١٩٤٨).
- سروال القس، لثورن سميث (١٩٥٢).
- الحرب الميكانيكية، للجنرال فولر (١٩٤٢).

مؤلفات ودراسات:

- مولع حذر بفاجنر (١٩٧٥).
- إنسان العصر يتوج رمسيس (١٩٧١).
- إعصار من الشرق أو جنكيزخان (١٩٥٢).
- مصر فى عيون الغرباء (١٩٨٤).
- مذكراتى فى السياسة والثقافة (١٩٨٨).
- سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج دى فرانس عام ١٩٧٣ .

هذا بالإضافة إلى بعض المؤلفات ومجموعة من الأبحاث بالفرنسية والإنجليزية.

أهم الإنجازات الثقافية والحضارية:

- مشروع إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبى سمبل ومعبد فيلة.
- معاهد: الباليه، والكونسرفتوار، والسينما، والنقد الفنى، ثم ضمت هذه المعاهد فى أكاديمية الفنون.
- دار الكتب والوثائق الجديدة.
- قصور الثقافة.
- فريق باليه أوبرا القاهرة.
- عروض الصوت والضوء فى الأهرام، والقلعة، والكرنك، ومتحف مراكب الشمس.

الجوائز والأوسمة :

- الجائزة الأولى فى مسابقة القوات المسلحة (١٩٥٠).
- وسام الفنون والآداب الفرنسى (١٩٦٨).
- وسام لوجيون دونير (جوقة الشرق) الفرنسى بدرجة كاموندور (١٩٦٨).
- الميدالية الفضية لليونيسكو تتويجاً لإنقاذ معبد أبى سمبل وآثار النوبة (١٩٦٨).
- الميدالية الذهبية لليونيسكو لجهوده من أجل إنقاذ معبد فيلة وآثار النوبة (١٩٦٨).
- جائزة الدولة التقديرية فى الفنون من المجلس الأعلى للثقافة (١٩٨٧).
- دكتوراه فخرية فى العلوم الإنسانية من الجامعة الأمريكية فى القاهرة (١٩٩٥).
- جائزة مبارك فى الفنون من المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٢).
- جائزة العويس للإنجاز الثقافى والعلمى (٢٠٠٥).

التصحيح اللغوى : نبيل عبد الفتاح
الإشراف الفنى : حسن كامل